المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

الواحات المفقودة

الطبعة الثانية

تأليف :

أحمد محمد حسنين بك

ترجمة :

أميرنبيه و عبد الرحمن حجازى

مراجعة :

طلعت الشايب

2/880

الواحات المفقودة

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٨٠/ ٢
- الواحات المفقودة
- أحمد محمد حسنين بك
- أمير نبيه وعبد الرحمن حجازى
- طلعت الشايب
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

The Lost Oaises
by: A. M. Hassanein Bey
1925

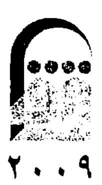
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

الواحات المفقودة

تأليـــــف: أحمـــد محمد حسنين بك
ترجمـــــة: أمير نبيه وعبد الرحمن حجازى
مراجعـــة: طلعـت الشايـــب



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٨٨٥ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 7 -315 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجمين:.......... 9
شكر وتقدير:.......... 15
الصحـــراء:.......... 19
الفصل الأول: التخطيط للرحلة.......... 27
الفصل الثانى: مباركة الأمتعة.......... 31
الفصل الثالث: المؤن والتجهيزات.......... 35
الفصل الرابع: الخطط والنذر.......... 47
الفصل الخامس: السنوسية.......... 57
الفصل السادس: سلام جغبوب.......... 73
الفصل السابع: الغذاء والدواء.......... 83
الفصل الثامن: الطريق إلى جالو والعواصف الرملية.......... 91
الفصل التاسع: فى واحة جالو.......... 103
الفصل العاشر: الرحلة.......... 123
الفصل الحادى عشر: الطريق إلى بئر زيغن.......... 143
الفصل الثانى عشر: الصحراء المتغيرة وتصويب الخرائط.......... 167
الفصل الثالث عشر: الكفرة.. الأصدقاء القدامى وتغيير الخطة.......... 181
الفصل الرابـــع عشر: الكفرة وموضعها على الخريطة.......... 195
الفصل الخامس عشر: واحة أركينو المفقودة.......... 211
الفصل السادس عشر: واحة العوينات المفقودة.......... 227

الفصل السابع عشر: السير ليلاً إلى إردى................................243
الفصل الثامن عشر: الدخول إلى السودان................................263
الفصل التاسع عشر: إلى فوراويا مع نقص المؤن.....................281
الفصل العشرون: نهاية الرحلة...297

إهداء إلى:

الأستاذة الدكتورة شهرت العالم

السيدة الأستاذة حياة على

عرفانًا وتقديرًا..

المترجمان

مقدمة المترجمَين

عندما كنا صغارًا كان الأطفال يحدثوننا عن "صندوق القصص"، وهو صندوق تخرج منه وتختفى فيه كل القصص الغريبة والطريفة، ولا ندرى لماذا تذكرنا ذلك الصندوق العجيب عندما قرأنا – للمرة الأولى؛ هذا الكتاب؛ فقد اكتشفنا أننا أمام عالم من القصص الغريبة، أو قل إنه زخم منها، ورغم أن المؤلف لم يروِ سوى الحقيقة – بكل ما فيها من طرافة وجمال فى بعض الأحيان، وقسوة وآلام فى أحيان أخرى ؛

فقد جعلنا نتساءل: ما كل هذا؟! فالصحراء – كما نعرفها – هى تلك المساحة القفر التى لا تحوى سوى الفراغ، أو الأطلال، أو السراب، بينما جعلنا أحمد محمد حسنين بك نشعر أننا أمام اكتشاف جديد! فقد صحبنا إلى عالم لم نألف مفرداته، وفتح لنا أبوابًا لم نحسب أن لها وجودًا.

وعندما بحثنا عن هذا الرجل، جاءت الإجابة لتعيدنا من جديد لذكرى صندوق الطفولة؛ فحياته قصة غريبة بحق، بل هى عشرات القصص، حتى إننا وجدنا أنفسنا بعد فترة ندعوه فيما بيننا "رجل القصص" أو "سيد المتناقضات"؛ فَهو ابن أحد شيوخ الأزهر، لكنه درس وتخرج فى أوكسفورد، فى زمنٍ لم يكن فيه هذا الأمر مألوفًا على الإطلاق. عمل فى وزارة الحربية والداخلية والخارجية، وتدرج فى مناصب القصر الملكى ليصبح فى سنوات قليلة الأمين الثانى للملك فؤاد، ورائد الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد، ثم أمينه

الرجل الذى يُغيِّر الوزارات ويُسقطها رغم أنه كان حريصًا علـى أن يبدو فى صورة الزاهد المترفع عن أمور الساسة والسياسة. عُدَّ بحكم مولده من عامة الشعب، لكنه تزوج من السيدة لطيفة يسرى ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد وحفيدة محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية، وطلقها رغم أنه كان يحبها، ورغم أنه كان مقدرًا لها أن ترث الملايين بعد وفاة والدتها، ليتزوج - عُرفيًّا - من والدة الملك فاروق - الملكة نازلى - بناء على رغبتها، وبناء على طلب الملك فاروق نفسه، علّه يستطيع أن يكبح جماح نزواتها التى كانت تسيء للأسرة المالكة. حاول فى يوم من الأيام أن يكون أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من أوروبا إلى مصر، وسقطت به الطائرة مرتين فى فرنسا وإيطاليا، ونجا من الموت فيهما بأعجوبة، وأصلح عطب الطائرة وقرر استئناف رحلته، لولا أن الملك فؤاد أرسل إليه برقية يأمره فيها بالعدول عن الطيران والعودة إلى مصر على أول باخرة. كان بطل مصر فى لعبة " سلاح الشيش"، والمصرى الوحيد الذى اشترك فى الدورة الأوليمبية الخامسة التى أقيمت فى أستوكهولم عام ١٩١٢، ورئيس النادى الأهلى المصرى. كان كل هذا وأكثر، لكن الأوراق لا تتسع للحديث عن هذا الرجل، إلا أنه من بين كل قصصه التى شارك فى صنعها أو حُكيت عنه لا نستطيع إغفال قصة بعينها لعلها هى السبب الرئيسى فى هذه الرحلة وهذا الكتاب. ففى عام ١٩٢١ قرر أحمد محمد حسنين بك التوجه فى رحلة إلى واحة "الكفرة" التى تقع فى قلب الصحراء الليبية، وكان صاحب الفكرة ومنظم الرحلة وقائدها، وفى أثناء إعداده لها طلبت منه السيدة "روزيتا فوربس" الإنجليزية أن تذهب معه، ونظرًا لأنها

كانت تحمل خطاب توصية من صديق عزيز عليه وافق على أن ترافقه فى هذه الرحلة؛ فتستر عليها وزعم أنها زوجته وأنها مسلمة، وألبسها ثيابًا عربية، وأسدل على وجهها حجابًا كثيفًا، وإلا لما سمح البدو لهذه الأجنبية بالتوغل فى عالمهم، وعاش أحمد حسنين مع "روزيتا فوربس" أسابيع عديدة، تجمعهما خيمة واحدة، لكنه لم يحاول الاقتراب منها، أما هى فقد حاولت، لكنه أبَى وترفع، وعندما سُئِل هل قُدَّ قميصك من دبرٍ، أجاب ضاحكًا بأن المسألة لم تصل إلى هذا الحد، وعندما تعجب السائل من هذا الرد وقال له "ولكن كيف هذا؟ فقد كنت فى عنفوان شبابك وروزيتا امرأة جميلة، وكنتما فى الصحراء أسابيع عديدة تجمعكما خيمة واحدة كثيرًا من الليالى، والبدو الذين يرافقونك يعتقدون أنها زوجتك وما أنت بولىٍّ أو قديس"، فضحك قائلاً لأن الأزهر انتصر هذه المرة على أوكسفورد؛ أى أن نشأته وجذوره غلبت على ثقافة صباه وموطن علمه، وعندما عادت روزيتا إلى إنجلترا وضعت كتابين هما "سر صحراء الكفرة"، و"الطريق إلى الكفرة عبر الصحراء الليبية"، نسبت فيهما فضل هذه الرحلة لنفسها،وادَّعت أن أحمد حسنين كان أجيرها ومترجمها فقط، وأخذت برأيها صحف عديدة فى أوروبا وأمريكا، وألحَّ بعض الإنجليز - من أصدقاء أحمد حسنين الذين كانوا يعرفون حقائق الرحلة، وأنه صاحب الدور الرئيسى والفضل الأول والأخير فيها - على أن يرد على هذه الادعاءات ويفند مزاعم روزيتا، لكنه رفض. فقد شعر وقتها أنه إن تكلم فكأنما يتسول حقه، وهو من تأبى كرامته مثل هذا السلوك، كما رفض أن يجتر أحزانه ويمكث بجوارها ينعى حظه؛ فهو المقاتل بالغريزة، وقام فى العام التالى - بمفرده - برحلة ثانية، ولكن

بالغريزة، وقام فى العام التالى – بمفرده – برحلة ثانية، ولكن هذه المرة قرر أن يعبر مناطق لم يألف البدو أنفسهم عبورها، ونجح فى رصد الكثير من الظواهر الطبيعية والبشرية، وكان لهذا الاكتشاف دوى كبير فى مصر وجميع أنحاء العالم، حتى إنه قد نظمت حفلة على شرفه فى دار الأوبرا الملكية، حضرها الملك فؤاد الأول، وألقى فيها أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة مدح فيها أحمد محمد حسنين بك كان مطلعها:

أقدمْ، فليسَ علَى الإقْدامِ مُمتنع   واصنعْ بهِ المجدَ فهو البارعُ الصنعُ
لِلناسِ فى كُلّ يَوْمٍ مِنْ عجائبهِ   ما لَمْ يَكُنْ لامرئ فى خاطِرٍ يقعُ

وأفاض شوقى بك فى وصف هذا الإنجاز الذى تحقق خاصة فى قوله:

أكْبَرْتُ مِنْ (حَسنين) همَّةً طمَحتْ   تَرومُ ما لا يَرومُ الفِتيَةُ القنعُ
وَما البُطولَةُ إلا النَّفسُ تَدفَعُها   فيما يُبلّغُها حَمدًا فَتَنْدَفِع
وَلا يُبالى لَها أهْلٌ إذا وَصلوا   طاحوا عَلى جَنباتِ الْحَمْدِ أمْ رجَعوا
رَحّالَةَ الشَّرقِ، إنَّ الْبيدَ قَدْ عَلِمَتْ   بأنكَ اللَّيثُ لَمْ يُخْلَقْ لَهُ الفَزَع
ماذا لَقيتَ مِنَ الدَّوِّ السَّحيقِ، وَمِنْ   قَفْرٍ يَضيقُ عَلى السّارى، وَ يتَّسع؟
وَهَل مَررْتَ بأقْوامٍ كَفِطْرَتِهِمْ   مِنْ عَهْدِ آدَمَ لا خُبْثٌ وَلا طبعٌ؟
وَمِنْ عَجيبٍ لِغَيْرِ اللهِ ما سَجَدوا   عَلى الفَلا، وَلِغَيْرِاللهِ ما رَكَعوا
كَيْفَ اهْتَدى لَهُم الإسْلامُ، وَانْتَقَلَتْ   إلَيهِمُ الصَّلَواتُ الخَمْسُ وَالجُمَعُ؟
جَزتْك مِصرُ ثَناءَ أنْتَ مَوْضِعُهُ   فَلا تَذُبْ مِنْ حَاءٍ حينَ تَسْتَمِعُ
وَلَوْ جَزَتْكَ الصَّحارى جِئتنا مَلِكًا   مِنَ المُلوكِ، عَلَيك الرّيشُ وَالوَدَع

كما تسابقت الدول والمؤسسات لتكريمه والاحتفاء به؛ فاجتمعت الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن ومنحته ميداليتها الذهبية، وهى أسمى وسام يمكن للجمعية أن تقدمه لكبار المستكشفين، وانهالت عليه الأوسمة والأنواط والنياشين من دول العالم المختلفة تقديرًا لهذا الاكتشاف، ومنها وسام "سان لازار" الذى منحته إياه الحكومة الإيطالية، وهو يعد من أرفع الأوسمة الإيطالية شأنًا. وفى إحدى المناسبات التى نظمت على شرفه، التقى أحمد حسنين مع روزيتا فوربس، وكان يضع على صدره وسام "سان لازار" فسألته فى سخرية "عن أى عمل استحققت عليه هذا الوسام؟" فأجابها أنه استحقه لطهارته وعفته، ورغم أنه اعترف فيما بعد أنه ندم على هذا القول، فإنه وجد نفسه مدفوعًا لقوله إزاء ترفعها وادعائها، وقرر أن يكتب كتابًا باللغة الإنجليزية يصف فيه رحلته الأخيرة ليكون بمثابة ردٍّ على كتابات فوربس.

وقبل أن ننهى حديثنا عن أحمد حسنين بك فلابد أن نشير إلى أن القدر أبَى أن يترك هذا الرجل يرحل عن عالمنا دون أن يجعل من نهايته قصة عجيبة تُضاف إلى رصيد القصص التى ارتبطت به؛ ففى ١٩فبراير ١٩٤٦ تُوفى أثر حادث سيارة فوق كوبرى قصر النيل، أشار كثيرون إلى الشبهات التى كانت تحوم حوله، وبمجرد أن وصل الخبر إلى الملك فاروق توجه على الفور إلى دار أحمد حسنين، وأمر بجمع كل أوراقه الخاصة، ومن بينها عقد زواجه العرفى من الملكة نازلى، وأنعم على أحمد حسنين بالوشاح الأكبر " نيشان محمد على"،

ورغم أن هذه المقدمة القصيرة قد لا تفى المؤلف حقه، فإننا حاولنا - قدر الإمكان - أن نترك للقارئ الفرصة الأكبر ليرافقنا داخل أحد صناديق القصص الحقيقية أو عوالمها.

وقبل أن نبدأ رحلتنا ينبغى أن نوضح للقارئ أن هذه الرحلة امتدت عبر أربع دول هى على الترتيب وفق الوضع السيادى الحالى: مصر، وليبيا، وتشاد، والسودان.

وعلى الله قصد السبيل،

المترجمان

شكر وتقدير

أدين كثيرًا للدكتور جون بول JOHAN BALL مدير المساحة الصحراوية المصرية الذى تفضل بإيجاز النتائج العلمية لبعثتى، كما كانت نصائحه وتعليماته التى أعطانى إياها لاستخدام الأدوات العلمية لا تقدر بثمن؛ إذ كنت بالفعل سعيد الحظ أن أعتمد على علمه الغزير.

فخريطة رحلتى - أحد مرفقات هذا الكتاب - تفضل بإعدادها كل من الدكتور بول والسيد برون BROWN بالإضافة إلى الزملاء الأخرين فى إدارة المساحة المصرية.

كما قام كل من الدكتور هيوم HUME والسيد مون MOON من إدارة المساحة الجيولوجية المصرية بتصنيف العينات الجيولوجية التى أحضرتها معى، وأعدا تقريرًا جيولوجيًّا مهمًّا. ومن خلال مساعدتهما الطوعية أضافا الكثير إلى نتائج بعثتى.

بينما كان اللواء سبينكس SPINKS باشا، وميشلانى MESHALANI بك من إدارة المدفعية بوزارة الحربية مسئولين عن إعداد الصناديق والحاويات وكل تجهيزات التخييم التى استخدمتها، والتى أثبتت كفاءتها فى كل الأحوال، وأنا ممتن للعناية من الأفكار التى بذلاها فى الإعداد لهذا الأمر.

أما صديقى القديم السيد الشريف الإدريسى، وابنه السيد مرغنى الإدريسى فقد واصلا مشورتهما الأمينة ومساعدتهما الحاضرة دائمًا، والتى سبق أن حظيت بها منهما فى أثناء رحلتى للكفرة عام ١٩٢١.

وخلال بعثتى تلقيت أكثر المساعدات فاعليةً وودًا من كـــل مـــن الكولونيل هنتر HUNTER باشا مدير إدارة المناطق الحدودية السابق، والكولونيل م.ماكدونيل M.MACDONNELL مدير الصحراء الغربيـــة السابق، والميجور ألبرت HALPERT والكابتن أتون HUTTON مـــن قيادة السلوم، والكابتن هاريسون المسئول عن السيارات المدرعة فـــى السلوم، وكل من السيد عبد العزيز فهمى أفندى، والسيد أ.كامل أفندى مأمورىَ السلوم وسيوة، والملازم لاولر LAWLER من سيوة.

وعندما وصلت إلى السودان كان طريقى أكثر سهولةً ويسرًا من خلال عطف صاحب السعادة الفريق لى ســتاك LEE STACK باشـــا السردار والحاكم العام للسودان، ولا أستطيع أن أترك هـــذه الفرصـــة تمر دون أن أعبر عن شكرى الحار لكل الموظفين الرســميين فـــى الحكومة السودانية على امتداد طريقـــى، خاصـــة اللـــواء ميـــدوينتر MIDWINTER باشا نائب الحاكم العام للسودان، واللـــواء هودلســـتون HUDDLESTON باشا نائب السردار، والقائم مقام م. حافظ بـــك مـــن الفرق العسكرية فى الخرطوم، والسيد هـــ.أ. ماك مايكل H. A. MAC MICHAEL وكيل مساعد الوزارة المدنية، والكابتن ج. إى. فيليـــبس J.E. PHILIPPS و صموئيل عطية بك، وأحمد السيد من الخدمة المدنية السودانية، والسيد شارلز دوبويسCHARLES DUPUIS نائب الحـــاكم فى دارفور، والصاغ أ. حلمى فى الفاشـــــر، والسيد ج. د. كـــرايج J.D. CRAIG حاكم كردفـــان، والبمباشـــى أ. خليـــل فـــى الأبـــيض، والضباط، والمسئولين، والأعيان فى "الفاشر" و"الأبيض".

كما أننى ممتن للبمباشى ج. ف. فولى G.F FOLEY. من وحـــدة المدفعية فى "الفاشر".

وأدين على وجه الخصوص لكل من الســـيد هارولـــد هولانـــد HAROLD HOWLAND والسيد و. هـ. ل. واطسون W.H.L.WATSON صديقىّ القدامى فى أوكسفورد لمســاعداتهما التـــى لا تقـــدر بـــثمن ونصائحهما القيمة فى إعداد هذا الكتاب.

الصحراء

«فى رحلتى الأولى للصحراء الليبية[1] أخذت على نفسى عهدًا بأننى لن أعود إليها مرة أخرى».

كنا قد ضللنا طريقنا وفقدنا كل آمالنا، ولم تَبدُ أية إشارة للواحة التى ننشدها أو علامة على وجود أية بئر قريبة، بدت الصحراء قاسيةً لا ترحم أو تقبل اللين، ووقتها أقسمت ألا أعود إليها مرة أخرى إذا ما كُتِب لنا أن نخرج منها على قيد الحياة.

وبعد سنتين من هذا التاريخ كنتُ قد عدتُ إلى الصحراء ذاتها، وإلى الموضع نفسه الذى ضللنا فيه طريقنا، وتحديدًا عند البئر ذاتها التى أنقذت حياتنا فى المرة السابقة؛ فالصحراء تدعوك إليها، ولكن ليس من السهل سبرغور فتنتها وسحرها.

ولعل أروع ما فى حياة الصحراء هو ليلها؛ فأنت تسير طوال اليوم بأقدام متقرحة؛ لأن السير أقل ألمًا من امتطاء الإبل، وتجارى القافلة بأعين نصف مغلقة، وتتبع إيقاع خطوات الإبل على نحو آلى، وحلقك يحترق ظمأً، ولا توجد بئر مياه على مرمى البصر. أما الرجال الذين يتبعونك فلا مزاج لهم للغناء، وجوههم مجهدة، وأعينهم محتقنة بالدم، وهى تتطلع - بلا تعبير، وبلا هدف - إلى تلك التدرجات اللونية الباهتة التى تتراوح بين صفرة الرمال الشاحبة وزرقة السماء، بينما قرب المياه مدلاة على جانبى الإبل.

---

(١) كانت هذه الرحلة عام ١٩٢١.

إننا لا نتحدث كثيرًا فى الصحراء؛ فهى تُنجب الصمت وتعلمه، وعندما نكون فى مشكلة ما فإننا نتجنب النظر إلى أعين الآخرين؛ فلا حاجة بنا إلى الخُطب أو الكلمات الرنانة. فالكل يعرف ما يحدث، والكل يتحمله بجلد وكبرياء؛ لأنك لو تذمرت فأنت تلقى باللوم على الله، سبحانه وتعالى، وهو الأمر الذى لا يجرؤ أن يقترفه أى بدوى، فهذه هى الحياة التى أعدت من أجله. إنه الطريق الذى كتبه الله عليه أن يسلكه؛ لذا يجب عليه أن يقبله، ربما يقوده إلى الموت الذى اختاره له الله سبحانه وتعالى، إلا أنه لا يوجد من يستطيع الفرار مما كتبه سبحانه وتعالى، والبدوى يردد دائمًا قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾،[٢] لكن فى مثل هذا الوقت قد تُقسِم أنك لو نجوت بحياتك، فإنك لن تعود إلى هذه الصحراء مرة أخرى.

عندما يصل يوم العمل إلى نهايته، يُنصب المخيم، ولا ترتفع أية خيمة؛ فالرجال منهكون للغاية، ولا يُبالون بما أصاب أجسادهم. ويُرخى الليل سدوله، وقد تكون ليلة ترصعها النجوم، وقد يكون هناك قمر، وتدريجيًّا تعمُّ السكينة، ويبدأ الحديث بعد يومٍ من الصمت، تتقارع النكات الواهنة وتتبادل، وفجأة يغامر أحد الرجال – ربما أصغرهم سنًّا – بإلقاء نكتة أكثر بهجة من الآخرين بصوت أعلى من أصواتهم، وبلا وعى يرفع البدو أصواتهم بالضحك، وتزداد طبقة الصوت وارتفاعه. إنها الصحراء وهى تمارس سحرها!

نسمات الليل الرقيقة تنعش أرواح القافلة، وخلال دقائق تُستخدم الفناطيس الفارغة كطبول ليبدأ الرقص والغناء.

---

(٢) سورة النساء: آية ٧٨.

ومع أول صوت للموسيقى قد يكون الرجال فى عملهم: يعتنون بالإبل أو يصلحون أحمالهم أو سروج إبلهم، ولكن أول نغمة موسيقية تجلب القافلة بأثرها حول لهيب النار المتقد. كل فرد يبحث عن رفيقه، ليتأكد أنه لا يزال سعيدًا وعلى قيد الحياة، يحاول أن يبدو أكثر مرحًا من جاره ليمنحه مزيدًا من الثقة. إنها لعبة الثقة عندما تبدو شاحبةً فى بدايتها؛ فنحن نجبر أنفسنا على أن تبتهج، نستخف بمشاكلنا ومعاناتنا فيقول أحدهم "الإبل كلها بخير ... لقد رأيت ذلك الجرح، وهو ليس خطيرًا كما كنت أظن"، ويقول آخر "إن بوحسان قال إنه لمح علامة تشير إلى وجود بئر ليس بعيدًا من يميننا"، نجهد أنفسنا أكثر وأكثر حتى نوهمها أن كل شيء على ما يُرام بالفعل. إن الأمر برمته خدعة - ربما من بدايته إلى نهايته - لكنه سحر الصحراء عندما يهيمن.

إن الأمر أشبه برجل متيم بامرأة فاتنة، لكنها قاسية، تعامله معاملة سيئة والعالم ينهار بين يديه، بينما تبتسم له فى المساء ليصبح العالم كله جنةً. وعندما تبتسم الصحراء فلا يوجد موضع على الأرض يعادل العيش فيها.

يستنزف الرقص والغناء من أفراد القافلة ما تبقى من النشاط الذى سلبه اليوم منهم، تنهك أرواحهم حتى يسقطوا نيامًا، ينامون تحت قبة السماء الجميلة التى ترصعها النجوم، وقليل من أفراد الحضر يعرفون متعة الجلوس والتطلع للنجوم. ولا عجب أن العرب برعوا فى علم الفلك! فعندما ينتهى يوم العمل فإن البدوى الوحيد لا يتبقى له شيء سوى الجلوس ومراقبة حركة النجوم، والشعور بالسمو والسكينة التى تمنحها للروح.

وهذه النجوم تصبح مثل الأصدقاء الذين يقابلهم المرء كل يـوم، وعندما يرحلون فإن الأمر ليس مؤلمًا كإيلام الرجال عندما يـودع بعضهما بعضًا عند الفراق، بل إنه أشبه بمشاهدة صديق يغيب تدريجيًا عن البصر مع الأمل فى رؤيته مرة أخرى فى الليلة القادمة.

"حى على الصلاة ... الصلاة خير من النوم"

كانت هناك بضعة نجوم لا تزال صامدة فـى السـماء، عنـدما انطلق تكبير أول رجلٍ استيقظ فى القافلة، نهض الجميع، وليس هناك عبارة تصف حالهم أكثر من القول إنهـم كـانوا يجمعـون شـتات أجسادهم؛ فأوصالهم تؤلمهم، وحلوقهم لا تزال جافة، ومع هذا فمـاذا غيَّر حالهم على النحو الذى أصبحوا عليه؟ أصبح هناك أمل لـديهم، بل ربما ثقـة، أو قل يقين داخلى أن كل شىء سوف يصير على مـا يُرام.

فى هذه الأثناء كان العالم لا يزال رماديًا فارغًا، ولا توجد سوى نيران الصباح وهى تقاوم نسمات الشمال البـاردة، وعيوننـا تتجـه غريزيًا صوب الشرق حيث تُشرق الشمس، وإذا لم تكن هناك سحب فإن السماء تتلون بصفرة باهتة تلقى ظلالاً طويلة محيرة خلف الإبـل والرجال، شاحبة للغاية حتى تستطيع بالكاد تسميتها ظلالاً، ثم يـأتى اللون الضارب إلى الحمرة الذى يمنح الدفء للمكان والألوان تظهـر بالضبط فى الفترة ما بين بزوغ الفجر وشروق الشمس؛ إذ بمجرد أن تشرق الشمس لن تجد شيئًا سوى امتدادات لا تنتهـى مـن اللـونين الأصفر والأزرق، ويظل اللون الأزرق يتلاشى ويتلاشى حتى تصبح السماء - فى منتصف النهار تقريبًا - بلا ألوان.

يجلب الصباح معه النشاط، بينما يجلب الليل السلام والسكينة، وهو الوقت الذى يعرف فيه المرء سحر الصحراء.

ففى صمت هذا الفضاء الشاسع المفتوح تصبح الحواس البشرية أكثر حدةً، وفى النهاية يستطيع المسافر فى الصحراء أن يشعر باقترابه من بعض الواحات المأهولة بالسكان، بمثل ما تخبره غريزته عن وجود أى كائن حى على بعد بعض مئات من الأميال. وفى الصمت اللامتناهى للصحراء يتطهر الجسد والعقل والروح، ويشعر المرء أنه قريب من الله – سبحانه وتعالى – يشعر بحضرة قوته الجبارة، التى لا يستطيع أى شىء بعد ذلك أن يحول انتباهه عنها، وتدريجيًّا تُفضى هذه الجبرية الحتمية والإيمان الراسخ بحكمة الله – سبحانه وتعالى – إلى الترفع؛ حتى إنه قد يقدم حياته للصحراء دون تذمر. نعم هناك أوقات يشعر فيها المرء بالفعل أن الأمر لا يهم!.

تُخرج الصحراء أفضل ما فى الإنسان، بينما تدفع الحضارة البشر إلى مجابهة الخطر، حتى يقاتل كل فرد من أجل نفسه ومن أجل سلامته، بينما فى الصحراء تصبح الذات أقل أهمية؛ فالكل يحاول أن يقدم أقصى ما يستطيعه من أجل رفاقه. دع كارثةً تهدد قافلةً ما، وقد يكون لدى أحد الرجال فرصة لأن ينجو بنفسه، لكننى لا أصدق أن هناك بدويًّا يهجر رفاقه حتى ينقذ حياته، ومن أكثر الأمور المروعة التى قد تحدث فى الصحراء نقص المياه، وقد تعتقد فى هذه الحالة أنك سوف تحاول الاحتفاظ بما معك من مياه من أجل نفسك، إلا أنه بدلاً من ذلك سوف تجد نفسك مع زمزميتك المفضلة، تأخذها بيديك، وتدور بها على الرجال متسائلاً إن كان أى منهم يبغى الشرب

أم لا، تفعل ذلك بشكل غير مبالٍ كما لو كان هناك الكثير من الماء ومخزونه؛ فمسألة السلامة الشخصية تتضاءل، وأيًّا كان ما يحدث.. فليحدث للقافلة بأسرها؛ فأنت لا تريد أن تفر بمفردك؛ ذلك هو الشعور الذى يتملكك.

لذا لم أكف مطلقًا عن الإعجاب بسكينة البدو وشجاعتهم اللتين لا يعكرهما شيء.

* * *

عند السفر فى الصحراء هناك ثلاثة عناصر رئيسية هى: الإبل والماء والدليل؛ أما **الإبل** – فهى أهمها، إذ قد تفقدها دون أن تدرى سببًا لذلك، كما حدث عندما مات أحد أفضل إبلى فى الليلة التالية لمغادرتى "الكفرة"، بينما فى المقابل صمد أضعف إبل القافلة لمسافة تربو على ٩٥٠ ميلاً قطعها من "الكفرة" إلى "الفاشر" وهو يترنح تحت وطأة حمولته، وعلى الرغم من توبيخى لمالكه لأنه ضم للقافلة مثل هذا الحيوان الذى يُرثى له، فقد أجاب وقتها بأن الله سوف يحرسُه، وللحقِ فقد حماه الله، إلا أن موت أحد الإبل فى الصحراء يعد خطبًا جللاً؛ لأنه يعنى ضياع معظم أو كل حمولته.

أما **الماء** فيحمل – فى الغالبِ الأعم – فى قِرب مصنوعة من جلد الضأن، ومعظم هذه القِرب تُختبر لأيام وأسابيع عديدة قبل استخدامها، وقد تكتشف فجأة أن الماء بدأ يتسرب أو يتبخر من بعضها، أو قد يرتطم جملان ببعضهما خلال رحلة الليل مما ينجم عنه انفجار قربة أو اثنتين.

أما الدليل فقد يقول لأسباب عدة إن " رأسه قد دارت ودارت"، وهو ما يعنى أنه قد ضل وجهته، خصوصًا إذا ما كانت هناك سحب قد أخفت الشمس لبضع ساعات، أو قد يؤدى خطأ ما فى إحدى العلامات الأرضية إلى أن يضل الدليل طريقه.

ولكن هناك أمرًا يظل أكثر أهمية من هذه العناصر الثلاثة - الإبل، والمياه، والدليل - وهو الإيمان، الإيمان العميق الذى لا حدود له.

* * *

يمكن للصحراء أن تكون جميلة وكريمة حين تسير القافلة نشيطة وسعيدة، إلا أنها يمكن أيضًا أن تكون قاسية ومهلكة، والقافلة التعسة التى ضربها سوء الحظ تتقدم وهى تترنح فى يأس. يحدث ذلك عندما تتدلى رءوس إبلك من الإجهاد والعطش، وعندما ينفد مخزون مياهك، ولا تلمح أية إشارة أو علامة للبئر التالى، وعندما تفتر همة رجالك ويصبحون بلا أمل، وعندما تجد الخريطة التى تحملها بيضاء؛ لأن الصحراء التى تجتازها لم يطرقها أحد من قبل، وعندما تسأل دليلك عن الطريق فيجيبك بهز كتفيه: "الله أعلم"، وعندما تمسح الأفق وكل ما يحيط بك وأينما تنظر فلا تجد سوى خطوط متدرجة بين زرقة السماء الشاحبة وصفرة الرمال، وعندما لا توجد أية علامة أرضية أو إشارة تعطى شيئًا طفيفًا للأمل، وعندما يبدو هذا المدى الفسيح مثل دائرة يزداد إحكامها حول حلقك الجاف، عندها يشعر البدوى أنه فى حاجة إلى قوة أكبر حتى من هذه الصحراء متحجرة القلب، وعندها سوف يصلى البدوى لربه القوى لينقذه، وعندما يتلو صلاته الأخيرة

ولا تقُبل، يلف "جيرده" حوله، ويغوص فى الرمــل منتظــرًا - فــى رباطة جأش مذهلة - الموت المحتوم، هذا هو **الإيمان** الذى يجب أن تتخذه الرحلة التى تعبر الصحراء.

لكل هذا فالصحراء قاسية لا ترحم، إلا أن كل مَنْ عرفهــا ذات مرة لابد أن يعود إليها.

الفصل الأول

التخطيط للرحلة

«هذه هى قصة الرحلة التى قمت بها عام ١٩٢٣، من "السلوم" على ساحل البحر الأبيض المتوسط، إلى "الأبيض" فى السودان، "وتبلغ تلك المسافة نحو ٢٢٠٠ ميل"، وخلالها أسعدنى الحظ أن أكتشف واحتين مفقودتين هما: "أركينو"، و"العوينات" اللتان كانتا فى السابق مجهولتين للجغرافيين تمامًا».

ورغم أن رحلتى هذه كانت فى المقام الأول رحلة للاستكشاف العلمى، فقد حاولت - فى هذا الكتاب - ألا أضجر القارئ بالأمور التقنية، وأن أسرد الأحداث على نحو مباشر، والتى قد تكون فى بعض أجزائها شيقة حتى لأولئك الذين لا يعرفون شيئًا عن مصر أو السودان أو الصحراء الليبية.

كان أقصى طموحاتى أن أصل إلى "الكفرة" - مجموعة الواحات التى توجد فى الصحراء الليبية - التى لم يزرها أى مستكشف من قبل سوى الرحالة الألمانى الجسور رولفس ROHLFS الذى نجح فى الوصول إليها عام ١٨٧٩، ولكنه استطاع بالكاد أن ينجو بحياته، ودُمرت كل مذكراته وملاحظاته العلمية.[٣]

---

(٣) فى عام ١٨٧٣ قام المستكشف الألمانى جيرارد رولفس Gerhard Rolfs بدعم من الخديو إسماعيل بمحاولة عبور بحر الرمال العظيم لكى يصل إلى "الكفرة" عبر واحة "الدخلة"، إلا أن جمله المحمل بأحمال ثقيلة عجز عن عبور الكثبان الرملية العالية،=

وفى عام ١٩١٥ أسعفنى الحظ أن ألتقى فى القاهرة بالسيد إدريس السنوسى الزعيم الشهير لإخوان السنوسية، بينما كان فى طريق عودته من مكة بعد أدائه مناسك الحج، و"الكفرة" هى عاصمة السنوسية. وفى عام ١٩١٧ ذهبت فى مهمة رسمية لمقابلة السيد إدريس بمرافقة الكولونيل ميلو تالبوت MILO TALBOT – الضابط المتميز الذى تقاعد من الجيش المصرى ثم عاد إلى الخدمة مرة أخرى إبان الحرب العالمية – فى " زويتينا"، ذلك الميناء الصغير القريب من واحة "جدابيا" التى تقع فى "برقة"، ووقتها جددت تعارفى بهذا الرجل البارز، وانتهزت الفرصة وصارحته بطموحى، وكان السيد إدريس بالغ المودة معى، وطلب منى أن أخبره بالموعد الذى أعتزم فيه القيام برحلتى، حتى يقدم لى المساعدة والدعم اللذين قد تكون الرحلة إلى "الكفرة" دونهما أمرًا بعيد المنال.

قابلته مرة أخرى فى " أكراما " بالقرب من " طبرق"، وأخبرته وقتها أننى سوف أبدأ الرحلة بمجرد أن أتحرر من مسئولياتى العسكرية، وكان معى فى " طبرق " آنئذٍ السيد فرانسيس رود FRANCIS RODD أحد أصدقاء الدراسة القُدامى فى باليول[٤] BALLIOL، وقررنا وقتها أننا سوف نذهب سويًا.

=وأجبرته القبائل على أن يستدير صوب الشمال، وأن يسافر بين ممرات الكثبان الرملية إلى " سيوة " لينجو بحياته، وفى النقطة التى أجبر فيها على تغيير اتجاهه، أطلق عليها Regenfeld أو حقل المطر إذ أمطرت السماء بشدة فى هذا اليوم، وهناك شيد رولفس نصبًا تذكاريًا كتب عليه أنه زار هذه المنطقة عام ١٨٧٤، ورغم فشله فى هذه المحاولة فإنه أعاد تكرارها من جديد وسلك اتجاهًا مغايرًا هذه المرة؛ إذ بدأ رحلته من الشمال وسار صوب الجنوب إلى أن وصل إلى "الكفرة" ليصبح أول رجل أوروبى يصل إلى هناك وذلك فى عام ١٨٧٩. "المترجمان"

(٤) إحدى كليات جامعة أوكسفورد. "المترجمان"

وعندما انتهت الحرب، حملت إلىَّ السيدة روزيتا فوربس " ROSITA FORBES " (التى تدعى الآن السيدة أ. ماك جراث) خطاب توصية من السيد رود وطلبت الإذن فى أن ترافقنا؛ لذا شرعنا ثلاثتنا فى التخطيط لتلك الرحلة، ولكن عندما حل موعد الرحيل وانضمام السيد رود إلينا حالت الظروف دون ذلك، وفى النهاية نجحت أنا والسيدة فوربس وبالتعاون الصدوق من السلطات الإيطالية، وبدعم السيد إدريس ومساعدته – الذى زودنا بقافلتنا – فى أن نخرج للرحلة عام ١٩٢٠، وأن نصل إلى "الكفرة" فى يناير ١٩٢١.

لكن رحلتى إلى "الكفرة" بما حملته من إثارة أغرتنى باكتشاف تلك الصحراء المجهولة الشاسعة التى تمتد خلفها، كما كانت هناك شائعات أيضًا عن واحات مفقودة لا يعرف عنها سكان "الكفرة" أنفسهم شيئًا سوى ما يقال ويتردد فيما بينهم. عدت إلى القاهرة عازمًا على أن أجهز حملة أخرى، تتوجه مباشرة صوب الجنوب عبر صحراء غير معروفة إلى أن تصل إلى الوادى والسودان بدلاً من العودة مباشرة إلى "الكفرة" كما فعلت أنا والسيدة فوربس من قبل.

إلى جانب هذا، كان كل ما معى فى رحلتى الأولى من أدوات علمية يقتصر على بارومتر معدنى،(٥) وبوصلة

---

(٥) جهاز يُستخدم لقياس الضغط الجوى، ونظرًا لأن الضغط الجوى يختلف من منطقة إلى أخرى بحسب منسوب ارتفاعها عن سطح البحر، فتستخدم قراءة هذا الجهاز لمعرفة مناسيب الأماكن المختلفة، وعلى الرغم من أن النتائج المتحصلة من هذا القياس لا تعد دقيقة للغاية إلا بعد معالجتها بالكثير من المعاملات الحسابية، فإنها تعد من أفضل الطرق وأسهلها فى عمليات استكشاف المناطق غير المأهولة بالعمران، خاصة تلك المناطق التى لا تتوفر لها خرائط طبوغرافية دقيقة. "المترجمان"

منشوريـــة؛[٦] لذا لم أتمكن من جمع ملاحظات علمية دقيقة، وكل ما عدت به كان بضع نقاط عن أحداثيات للطريق رصـــدتها بالبوصــــلة تعتمد على القياسات التى قمت بها. وكنت متلهفًا على التحقـق مـــن صحة ملاحظات "رولفس"، وأن أحدد بصورة قاطعة موضع "الكفرة" على الخريطة.

وفى عام ١٩٢٢ عرضت خطتى - لرحلة تعبر الصحراء مـــن ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى السودان - على صاحب الجلالـــة الملك فؤاد الأول، الذى كان كريمًا للغاية بما أبداه من اهتمام بـــأولى رحلاتى، ومنحنى وسام الاستحقاق، وتعاطف بشدة مـــع مشـــروعى، وأمر بمنحى إجازة طويلة من واجباتى الرسمية، وبعد ذلك أمر بـــأن تتحمل الخزانة المصرية تكاليف الرحلة بالكامل، وبالفعل فإن رحلتى ما كان لها أن تلقى النجاح الذى لاقته لولا دعم جلالته الذى لايقـــدر بثمن.

استكملت استعداداتى، وبحلول شهر ديسمبر عام ١٩٢٢، كنت قد جمعت حقائبى فى منزل والدى بالقاهرة كى يتم مباركتها طبقًا للعرف القديم لبنى جلدتى قبل أن أخرج لرحلتى عبر الصحراء الليبية.

(٦) بوصلة يمكن بواسطتها قياس زوايا انحراف أى جسم فـــى الطبيعـــة عـــن الشـــمال المغنطيسى؛ لذا يمكن استخدامها فى توقيع أية ظاهرة جغرافية على سطح الخريطـــة، وقد سميت بهذا الاسم نظرًا لأنه من ضمن مكوناتها منشور ثلاثـــى مـــن الزجـــاج. "المترجمان"

الفصل الثانى

مباركة الأمتعة: "الله يسدد خطاك"

كانت الكلمات العربية تخبو فى جلال هواء الحجرة الكبيرة - الخالية من الأثاث - حيث أضواء الشموع وسُحب البخور المتصاعدة يتنافسان على السيادة، بينما تكومت بطول الحوائط مجموعات غريبة من الأمتعة: صناديق كبيرة، صناديق صغيرة، قِرَب من جلد الأغنام، فناطيس معدنية لحمل المياه، أكياس مليئة بالأطعمة المحفوظة، بالات من الخيام، حقائب جلدية ومعدنية تحتوى على معدات علمية وأدواتى الشخصية، وبعد صخب محاولة جعل كل شىء ملفوفًا ومحكم الربط ومرتبًا فى نظام، أطبق الصمت علينا حيث كنا نقف فى منتصف الغرفة، وفى الخارج كان الليل المصرى قد أرخى سدوله بالفعل، وعَبَرت الحديقة همهمات باهتة من حياة ليل القاهرة لتدخل من نافذتنا.

كنا ثلاثة: أنا، وعبد الله - وهو نوبى من أسوان، وكان من أكثر من كنت أثق فيهم من الرجال - وأحمد - وهو من أسوان أيضًا، وإن بدا نصف محطم بعد أن نادته حياة المدينة، بينما كان يقف بجوارنا، رغم أنه برهن بعد ذلك على أنه طاهٍ ماهر، وأنه من يضفى البهجة والحيوية على الرحلة.

كان يقف أمامنا رجل عجوز طويل القامـــة ذو لحيـــة بيضـــاء، يرتدى قفطانًا حريريًّا برتقاليًّا داكن اللـــون، ملامحـــه ذات التجاعيـــد الرقيقة تتحدث عن السلام الذى يأتى من الـــورع، وكانـــت أصـــابعه النحيفة الطويلة تقبض برفق على حبات مسبحة من الكهرمان، بينمـــا تتصاعد حلقات رقيقة من الدخان الأبيض تنبعث من مبخـــرة فضـــية تزينها النقوش يحملها أحد الخدم الواقفين بجـــواره، وضـــع الرجـــل الورع مسبحته جانبًا ورفع كفيه وذراعيه عاليًـــا صـــوب الســـماء، وبصوت أوهنه الزمن، وإن كان يشع إيمانًا، بدأ يردد الدعاء من أجل أولئك الذين كانوا على مشارف الرحيل:

"ربنا يسدد خطاكم، ويتوج جهـــودكم بالنجـــاح،
ويردكم إلينا سالمين غانمين".

ثم بدأ يدور داخل الغرفة وهو يحرك المبخرة فى إيقاع منـــتظم أمام كل كومة من الأمتعة، ويتلو بعض الأدعية. كانـــت تلـــك هـــى المراسم التقليدية لمباركة الحقائب، تكرست عبر عقود مـــن خـــروج العرب فى القوافل، وعلى الرغم من هجر ذلك التقليد فى هذه الأيـــام الأخيرة، فإنه فى دار والدى الذى أمضى حياته فى تشرب هذه الثقافة وسير الرسل والأنبياء، كان ذلك من أكثر الأمور الطبيعية فى العـــالم التى يجب أن تُمارس عندما يزمعِ ابنه الوحيـــد علـــى الســـفر إلـــى الصحراء.

وبينما كنت أقف أمام الرجل الورع لأتلقى مباركتـــه، شـــعرت بأننى لم أعد بعد الآن مصريًّا من أبناء اليوم، بل صرتُ بدويًّا بصدد العودة للصحراء، حيث نصب آباء آبائه خيامهم. وتأملت والدى؛ فمنذ

خمسة عشر عامًا، أرسلني إلى أوروبا لأدرس وأتعلم، ونـــادرًا مـــا التقت طرقنا منذ ذلك الحين، وفي بعض الأحيان كنت أتمنى لو أنني درست شيئًا يدخل في دائرة اهتمامه فربما استطعت الانتفـــاع بعلمـــه العميق، إلا أنه قال يومًا لأحد زملائه في الدراسة: " إنه سوف يعيش في جيل آخر، دعه يحظَ بالتعليم الذي سوف يحتاج إليه آنذاك"، ولكن الآن بينما أتأهب للعودة إلى الصحراء التي جاء منها آباؤنا، يعـــرف كلانا ما يجول بذهن الآخر ويفهمه.

وبعد دقيقة من الصمت، وضع يده على كتفي ودعا لـــي قـــائلاً: "تصحبك السلامة، وربنا يرشد خطاك، ويقويك، وينجــــح مقصدك".
وهكذا بوركت الأمتعة.

أخذ أحمد وعبد اللـــه الأمتعة الثقيلة وتوجهـــا إلى "الســـلوم"، وتركا معي المعدات العلمية والكاميرات التي تتطلب عناية خاصة في حملها.

وفي ١٩ ديسمبر غادرت الإسكندرية بالســفينة متوجهًـــا إلـــى السلوم.

الفصل الثالث

المؤن والتجهيزات

«بحلول يوم الحادى والعشرين كنت أهبط سُلَّم السفينة فى السلوم، ذلك الميناء الصغير الذى يقع بالقرب من الحدود الغربية لمصر، وهناك كنا سنأخذ الإبل ونتوجه عبر طريق "جغبوب" إلى "جالو"، ذلك المركز المهم فى تجارة الصحراء، حيث سيتم تجهيز قافلتنا، وتبدأ الرحلة الكبيرة صوب الجنوب».

ورحلة مثل رحلتى هذه دائمًا ما يكون لها العديد من نقاط البداية، تقترن بكل منها مشاعر وخبرات متباينة؛ ففى الحجرة ذات الضوء الشاحب ورائحة البخور الذكية بمنزل والدى كانت المغامرة نوعًا من الحلم الجميل فاتنًا فى احتمالاته، ولكن بالكاد يمكن اعتباره حقيقة، بينما فى السلوم جاءت الحقيقة العملية من خلال تجميع المؤن والتجهيزات، وحزمها وإعادة حزمها حتى يصبح كل شىء فى أصغر حجم، وأفضل شكل للحمل، والتحقق منها جميعًا للتأكد من أننا لم ننسَ شيئًا، والترتيب مع مالكى الإبل من أجل المرحلة الأولى من الرحلة، بينما فى "جالو" سوف تأتى البداية الثالثة مع قافلتى الخاصة والطريق إلى "الكفرة"، الذى على الرغم من أننى قد سبق أن اجتزته من قبل فإنه لا يزال غير مألوف لى، ثم تأتى البداية الأخيرة لكل ما يسبق عندما أنطلق من "الكفرة" وأتوجه صوب المجهول الذى لم يُكتشف بعد.

كان عبد الله وأحمد قد سبقانى بالفعل إلى " السلوم " مع الحقائب الثقيلة، وتم ترتيب أمر الإبل، إلا أن الاتفاق كان ينتظر تصديقى عليه، وشرعنا بعد ذلك فى ترتيب تجهيزاتنا ومؤننا.

* * *

ولعله قد يكون من الشيق أن أقدم بعض الوصف للمصريين اللذين رافقانى خلال هذه الرحلة.

عبد الله: نوبى من أسوان، قوى البنية، مفتول العضلات، ذو عينين صغيرتين عميقتين، تخفيان ما يتسم به من مكر ودهاء بالإضافة إلى قدر كبير من اللامبالاة أو قل السمو. كانِ الرجل فى نحو الأربعين، جيد التعليم، يعرف القرآن جيدًا، التقيتُ به للمرة الأولى عام ١٩١٤، عندما كان مرافقًا لعائلة الإدريسى فى مصر، وقد أعجبت به كثيرًا؛ نظرًا لروح المرح المتأصلة فيه وولائه لسيده. وكان أمينًا بكل ما تعنيه الأمانة من معنى؛ لذا أوكلت إليه مسئولية المؤن. وفى صندوق أدوات عبد الله، يستطيع المرء دائمًا أن يجد كل ما يحتاج إليه، بدايةً من قطع الجلد ومسلات البدو البدائية التى تستخدم فى إصلاح الأحذية، إلى الاختراعات المعقدة اللازمة لإصلاح عمود خيمة محطم، علاوة علىٍ ذلك كان مستعدًا بالأكاذيب ليسوِّى كل المواقف، سواء أكان يريد منى أن أتخذ مظهر البدوى الرحالة من مصر، أم التاجر الجائل، أم رجل الدولة ذى المكانة العالية عندما حللنا وسط طبقة الموظفين فى "السودان". وكان عبد الله يتسم بشىء فريد؛ فبين غروب الشمس وساعة أو ساعتين بعد ذلك، كان يبدو أنه من العسير أن تبقيه مستيقظًا، حتى ولو كان يجلس

ويشارك فى مناقشة ما، فسوف ينعس قليلاً فى أثناء جلوسه؛ ففى إحدى المناسبات، وكنا قد انتهينا للتو من تناول طعام الغداء، ومضت ساعة تقريبًا، وكنوع من المزاح أخذ زروالى - وهو أحد البدو الأوفياء الذين انضموا إلى قافلتنا فى "جالو" - كمية كبيرة من الزعتر (معطر قوى يستخدم لإضافة نكهة إلى الشاى) ووضعها فى شاى عبد الله خلال إغفائه، وعندما استيقظ الأخير وتذوق شايه أدرك ما حدث، إلا أنه لم يقل شيئًا، لكنه ببساطة شديدة أعاد كوبه إلى موضعه، وبعد فترة التفت عبد الله حوله ثم قال لزروالى: "أحسب أنك تنتظر أحدهم، أظن أننى سمعته قادمًا"، وعندما نهض زروالى ليستطلع الأمر، قام عبد الله فى هدوء باستبدال الأكواب حتى يعود زروالى ويشرب من كوب الشاى الذى به نسبة كبيرة من الزعتر، بينما عاد عبد الله للنعاس فى سلام مرة أخرى.

وقد برزت غريزة عبدالله الوظيفية على أفضل نحو عندما وصلنا إلى إحدى المناطق المأهولة بالقرب من نهاية الرحلة، وكان هناك نقص فى الطعام؛ فقد جمع كل بقايا القافلة بما فيها الصفائح الفارغة، وزجاجات الدواء، بل حتى أمواس الحلاقة المستعملة، واستبدلها مع السكان المحليين: بزبد، ولبن، وبهارات، وجلود.

وعبدالله أيضًا هو ذلك الشخص الذى استاء للغاية عندما عرضت فيلمى السينمائى الخاص ببعثتى الاستكشافية خلال المحاضرة التى ألقيتها فى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول بدار الأوبرا الملكية فى القاهرة؛ فعندما وجد عبدالله أنه يظهر فى كثير من المشاهد وهو يرتدى قميصًا باليًا، ساءه أن يظهر فى ثوب غير لائق

أمام مليكه، وسأل إن كان هناك شيء من الممكن فعله حتى يظهر في قميص نظيف وليس باليًا على هذا النحو!.

أما **أحمد** فهو أيضًا نوبي من أسوان، نحيل القوام، لا يعرف الاستسلام مطلقًا، كان خادمي وطباخي الخاص، ورغم أنه كان جيد التعليم، فقد أصبح طاهيًا لأنه أحب أن يحيا حياة حرة كما قال؛ إذ إنه لو أصبح رجل دين كما كان والده يتمنى، لكان لزامًا عليه أن يحيا وفق نمط معين، وهو ما كان جليًّا أنه لا يتفق مع طبيعته؛ فقد كان مرحًا دائمًا، وعلى الرغم من أن أحدًا في القافلة لم يلق لعنات منه، فإن البدو لم يلقوا إليه بالاً، بينما لو صدرت كلمة مثل التي قالها أحمد من أي شخص آخر، لكانت هناك إراقة دماء، ولكن البدو اعتادوا على طريقته في الحديث، ولم يتشاجروا معه سوى مرة واحدة.

وقد اعتاد أحمد بعد أن ينتهي من الطهي أن يجلس مع البدو ويزدري معلوماتهم عن الدين، ويبرهن على تفوقه بتلاوة مقاطع - من الذاكرة - من الشعر العربي وبعض الأحاديث النبوية الشريفة. ولم يفشل أحمد مرة واحدة في أن يعد لي قدحًا من الشاي حتى في أحلك الظروف، حتى إنه في إحدى المرات كان يعاني آلامًا مبرحة في قدميه نتيجة للسير طوال الليل، وبينما كنا ننصب الخيام أخبرته أنني لا أريد أي إفطار أو شاي حتى أنام، وأمرته بأن يتوجه إلى الفراش على الفور، ومع ذلك وبينما كنت أتأهبّ للذهاب إلى مخدعي وصل أحمد ومعه كوب من الشاي الساخن.

وعلى الرغم من أنه لعن البدو جميعًا وآباءهم وأجدادهم، فإنه ما سقط بدوي منهم مريضًا إلا وكان أحمد يبذل كل ما في وسعه حتى

يسعفه؛ فقد تعلم تدريجيًا استخدام مثل هذه الأدوية كما تعلمتها، وكثيرًا ما كان يحضر لى زجاجة صغيرة ليسألنى – عندما يختلط عليه الأمر – هل هذا هو الكينين أو إنه الأسبرين؟

* * *

متطلبات الترحال فى الصحراء بسيطة، وقائمة الأشياء التى يجب أن يصحبها المرء معه تكاد أن تكون شائعة؛ فبالنسبة للطعام هناك قبل كل شيء: الدقيق، والأرز، والسكر، والشاى. وعلى الرغم من أن كل سكان الصحراء متيمون باللحم، فإنه بالطبع لا يمكن حمله وعلى المرء إما أن يصيده فى طريقه أو يرحل بدونه. أما الشاى فهو يعد مشروب الصحراء الليبية قياسًا بالقهوة، ومرد ذلك إلى سببين: الأول دينى والثانى عملى. فقد حرَّم السيد بن على السنوسى – مؤسس الطريقة السنوسية التى تتحكم فى الإقليم الذى كنت أسافر خلاله – على أتباعه كل وسائل الرفاهية، واشتمل تحريمه على التبغ والقهوة، ولكن لسبب ما لم يحرم الشاى؛ لذا فإن أتباعه يعدون من" شاربى الشاى " إذا جاز لنا أن ندعو بالاسم ذاته السائل الباهت الرقيق المعطر الذى يزين موائد الشاى فى أوروبا وأمريكا، وذلك السائل داكن اللون المر الذى يؤازر البدوى فى أثناء سيره وينعشه فى نهاية يومه. أما السبب الثانى فهو أن الشاى مشروب منبه للعمل، بينما القهوة ليست كذلك. والشاى هو ذلك الشيء الذى تنتهى به كل وجبة فى الصحراء، وهو الذى ينعش المسافر المرهق فى نهاية يوم سفر شاق، بينما القهوة فهى للحياة الأقل قسوة فى الواحة والدار.

وبعد هذه المؤن يأتى التمر أو ربما يجب أن يوضع فى البدايـــة؛ فالإبل تعيش على التمر بمثل ما تعيش عليه القافلة بأســرها، عنــدما تنفد الأطعمة الأخرى أو لا يكون هناك وقت للتوقف وطهى الطعـــام. ولكن التمر ليس هو ذلك الدسم الحلو الذى اعتــاد المــرء تناولـــه كحلوى أو فى أثناء النزهات الرقيقة فى الغرب؛ إذ إن التمــر الـــذى يجب على المرء أن يستخدمه عند السفر فى الصحراء به نسبة قليلــة من السكر؛ لأن السكر يسبب العطش، وحيث الآبار تبعد أيامًــا فــإن مؤن المياه لا يسرف فى استخدامها.

كما اصطحبت معى أيضًا بعض المعلبات " بلوبيف، خضراوات، فاكهة"، إلا أن المعلبات كانت ثقيلة الوزن، واصطحاب عــدد كــاف منها لرحلة طويلة، كان سيتطلب عشرين جمــلاً إضــافيًا أو أكثــر لحملها. كما ضم مخزوننا القليل من القهوة، إلا أنه نــادرًا مــا كنــا نشرب القهوة، واستخدمت معظمها كهدايا للأصدقاء الذين اكتســبناهم طوال الطريق، وكان معى بعض زجاجــات مــن الحبــوب الجافــة الممزوجة باللبن، التى أثبتت فائدتها كوجبة للطــوارئ عنــدما كــان الطعام يقل، ومع ذلك فقد كان البدو غير متيمين بها؛ فقد قالوا " إنهــا تشعرهم بالامتلاء دون لذة التذوق".

تلك هى قائمة المؤن التى كانت معنا باســتثناء بعــض الملــح والتوابل خاصة الفلفل من أجل العصيدة، وهى مــزيج مــن الــدقيق المغلى والسمن يجعلها الفلفل حارة المذاق.

كان هناك بعض التنوع، إلا أن التنوع أمر يجب على المــرء أن يقلع عنه عندما تحمل مؤنه دواب عليها أن تحيا هى ذاتها - بصــفة رئيسية - على ما تستطيع حمله.

لم تكن هناك أية رفاهيات فى الطعام، مهما كان مقدار السرور الذى قد تبعثه للتخلص من رتابة الأرز، والخبز الجاف، والتمر، والشاى. فإذا ما كان لدى المرء خبرة بالسفر فى الصحراء، والحكمة المستخلصة منها، فعليه ألا يأخذ معه أى طعام لا يكفى لإطعام كل فرد فى القافلة؛ فعند السفر فى الصحراء لا يوجد تميز حسب المكانة أو الطبقة سواء أعلى أو أدنى.

إلا أن الاستثناء الوحيد لقاعدة " الرفاهية " تلك كان هو التبغ؛ فطالما أنه كان لا يصاحبنى سوى رجل واحد فى أثناء السير فقد كان يدخن معى متى عنَّ لى ذلك، وعلى أية حال فإن ذلك لا يعد انتهاكًا حقيقيًا لتلك القاعدة. وقد وفر لى مخزون السجائر المصرية والتبغ الذى كان معى متعة بالغة طوال الرحلة.

بعد ذلك يأتى الماء، وهو المشكلة الكبيرة والمتواصلة عند السفر فى الصحراء؛ فالرجال قد يصمدون دون طعام لأيام لا يمكن تصور عددها، سواء أكان للضرورة أم لغرابة الأطوار، ولكن الرجل الذى يستطيع الاستمرار لمدة أربعة أيام دون مياه يعد أعجوبة؛ فالصحراء تسمى صحراء فقط بسبب ندرة الماء؛[٧] لذا على المسافر إلى الصحراء أن يفكر أولاً – وقبل كل شيء – فى مؤن شربه.

وقد حملنا الماء معنا بوسيلتين: المؤن المألوفة حُملت فى خمس وعشرين قربة، وهى وسيلة حمل المياه التقليدية فى الصحراء وتصنع من جلد الضأن، ويتسع كل منها لما يتراوح بين أربعة وستة

(٧) يعرف الجغرافيون الصحراء بأنها ذلك النطاق من الأرض الذى يقل فيه معدل سقوط الأمطار عن ١٠مم فى العام ويندر به الماء. "المترجمان"

جالونات، وكان من السهل انفجارها إذا ما اصطدم جملان من الــذين يحملون تلك القرب فى الظلام على أحد الطرق الصخرية؛ لــذا فقــد حملت مؤن المياه الاحتياطية الخاصة بالطوارئ فى فناطيس، وهــى عبارة عن حاويات طويلة مــن القصـــدير ذات شــكل مســتطيل أو بيضاوى، ومقطع عرضى يسمح بأن تعلق منها بسهولة على جــانبى الإبل، وكان لدينا أربعة فناطيس يتسع كل منها لحمل أربعة جالونات، وأربعة أخرى يتسع كل منها لحمل اثنا عشر جالونًا؛ لذا كانت مؤننــا الكاملة نحو مائتى جالون تقريبًا. كانت تكفى لإعالة قافلتنا – عندما تم إعدادها فى النهاية – فى المسافة الممتدة من بئر إلى أخرى، والتــى كُنَّا نأمل أن نصادفها. وقد حملنا مؤننا الاحتياطية فى الفناطيس فقط، فإلى جانب أنها أقل عرضة للتلف، فقد كانت القرب تأخذ مساحة قليلة عندما تصبح فارغة، حتى إنه كان يمكن حمل خمسة وعشرين قربــة كلها فوق جمل واحد، بينما لا يوضع سوى فنطاسين على كل جمــل سواء كانا فارغين أو مملوءين.

كانت هناك أيضًا بعض زجاجات المياه الفردية، ولكن ســرعان ما تم التخلص من معظمها لأن الرجال أنفوا حملهــا، وقــد احــتُفظ ببعضها من أجل مائها البارد؛ فقد كان تبخر الرطوبــة مــن قمــاش الخيام الذى يحيط بالزجاجات أو الحقائب يجعل درجة حرارة المــاء فى داخلها مستساغًا؛ خاصة عندما أصبح الجو حارًّا بعد ذلك.

أما الخيام فقد كانت أربعًا: اثنتان على شكل الجــرس، واثنتــان على شكل المستطيل، بالإضافة إلى العديد من أوانى الطهى، والتــى يأتى على رأسها "حلة" نحاسية ضخمة لغلى الأرز.

وللطوارئ الصحية كان هناك صندوق للأدوية به " كينين، ويود، وقطن، وضمادات، وساليسيلات البزموت لعلاج الدوزنتاريا، وأقراص مورفين، وسرنجات حقن، ومصل مضاد للدغ العقارب - الذى ألقانى فى مأزق خطير ثم أنقذنى منه - ومرهم زينك لعلاج الإكزيما، وحبوب لعلاج عسر الهضم، وملح إبسوم. كما كان معى أدوات جراحية بسيطة، وأدوات وأدوية لعلاج الأسنان أعطانى إياها أحد أصدقائى من أطباء الأسنان. كنت مجهزًا للعناية بالأمراض اليومية البسيطة، أما إذا حدث شىء أكثر خطورة فكان علىَّ أن أقول: "الله هو الشافى".

وللصيد والدفاع عن النفس أخذت معى ثلاث بنادق، وثلاثة مسدسات أوتوماتيكية، بالإضافة إلى بندقية رش، أهديتها خلال رحلة العودة، أما باقى الأسلحة فقد زادت إلى ست بنادق، ومسدس واحد، ومن الطريف أنه عندما وصلت البنادق إلى ميناء السلوم فى صناديقها الخشبية ذات الشكل المميز، سرت على الفور إشاعة فى البلدة مفادها أننى أحمل معى مدفعًا أوتوماتيكيًّا لغرض غامض، أسهب المثرثرون فى تفسيره.

وبهدف إعداد تقرير قوى وصادق - قدر الإمكان - عما وجدته ورأيته أخذت معى خمس كاميرات، كانت ثلاث منها من إنتاج شركة "كوداك"، وقد ظلت تعمل على الوجه الأكمل حتى نهاية الرحلة، وواحدة أخرى كانت متطورة بعض الشىء ذات عدسة مسطحة - دُمرت نتيجة لتسرب الرمال إليها، أخيرًا كانت هناك ماكينة تصوير سينمائى، ولكل هذه الكاميرات اصطحبت معى أفلامًا من إنتاج شركة

أفلام إيست مان كوداك EASTMAN KODAK FILMS، وقد حُزِّمت بعناية مدروسة؛ إذ لُفَّت أولاً بقصدير لعزلها عن الهواء، وبعد ذلك وضعت في عبوات من القصدير مليئة بنشارة الخشب، وفى النهاية فى صناديق خشبية، إلا أن هذا الحرص فى التغليف أثبت أنه لم يكن جيدًا للغاية، بالنظر إلى درجة الحرارة الشديدة التى تعرضنا لها فى الجزء الأول من الطريق، والمطر والرطوبة التى واجهناهما بعد ذلك فى "السودان". وقد أخذت معى نحو ٩٠٠٠ قدم من الأفلام من أجل كاميرا التصوير السينمائى، وقد حالفنى الحظ فى العمل الفوتوغرافى كله، وعلى الرغم من أن الأفلام لم تحمض إلا بعد أن عدت إلى مصر بعد ثمانية أشهر من ذلك، فإن نسبة الفشل كانت ضئيلة ومعقولة.

وبالنسبة للملبس أخذت معى الزى البدوى التقليدى، الذى يتكون من القمصان البيضاء والسراويل الطويلة، وكلها مصنوعة من القطن، بالإضافة إلى "جيرد"(٨) صوفى، وجاكت حريرى، وصديريات وبنطلونات من القماش مثل تلك التى تُستخدم عند ركوب الخيل ولكنها تصل إلى رسغ القدم، والأخيرة كنت أستخدمها فقط فى المناسبات الرسمية عند دخول الواحة ومغادرتها.

لم أرغب فى ارتداء ملابس الصحراء حتى نهاية المرحلة الأولى من الرحلة؛ فقد تركت السلوم فى معطف كاكى وبنطلون ولى بالفعل

---

(٨) قطعة طويلة من القماش يبلغ طولها نحو ثلاثة أمتار، بينما يبلغ عرضها نحو مائة وعشرين سنتيمترًا، وهى تصنع فى الغالب الأعم من الصوف الناعم، وتلف حول الجسم بطريقة خاصة بغرض التدفئة والحماية من رياح الصحراء. "المترجمان"

أيام مجدهما، وكان فى قدمى خف بدوى أصفر اللون، وهو الوحيد الذى يصلح ارتداؤه عند السفر فى الصحراء، وعلى رأسى قبعة مصنوعة من جلد النمر، نظرًا لأن الجو كان قارص البرودة فى ذلك الوقت، ولا شك أن شكلى كان مضحكًا للغاية عندما بدأنا رحلتنا.

عند السفر إلى أرض مجهولة - خاصة فى الشرق - من المهم أن تكون قادرًا على تقديم هدايا إلى الأشخاص البارزين الذين سوف تقابلهم، وقد اصطحبت معى ما كان يبدو كمية هائلة من الحرائر، والأوعية النحاسية، والمباخر المزينة بالفضة، وزجاجات العطر، والمناديل الحريرية، والأباريق الفضية، وأكواب الشاى، والأجراس الفضية التى كان البدو يسرون باستخدامها فى استدعاء عبيدهم بدلاً من التصفيق المعتاد بالأيدى. وعندما رأيت كل هذه الهدايا وهى تحزم، شعرت - بيقين - أننا سوف نعود بنصفها، ولكن عندما وصلنا إلى "الكفرة" اكتشفت أن أمر الهدايا لا يقتصر على من كانوا فى الحسبان، بل إن كل فرد قدَّم لى خدمة تافهة خلال رحلتى السابقة، كان يتوقع أن يُكافأ على الخدمة التى سبق أن قدمها. ولم يكن لدينا الكثير من البضائع التى ذكرتها من أجل هذه الهدايا، وعلى الرغم من ذلك فلم أشعر أن تلك الهدايا كان لها دور فعال فى جعل رحلتى أكثر سهولة، بقدر أنها كانتَ مجاملة من البدوى الذى جاء من الحضر إلى أخيه البدوى فى الصحراء.

ثم تأتى بعد ذلك الأدوات العلمية التى كانت أكثر أهمية من كل ما سبق جميعًا لقيمتها فى رصد الظواهر الطبيعية التى مررنا بها خلال الرحلة.

امتلأ الأسبوعان اللذان أمضيتهما فى " السلوم " بالأيام المزدحمة والبسيطة كما كانت أدواتنا؛ فكل شىء يجب أن يكـــون أقــرب إلـــى الصواب ويلقى العناية اللازمة؛ فالأشياء سوف تحمل فــوق ظهـــور الإبل فى كل صباح، وتوضع عنها كل مســـاء، وتــرص كحـــواجز لمواجهة الطقس والهجوم المحتمل؛ لذا يجب أن تُحزم بشـــكل محكـــم وآمن، كما أنه فى نهاية يوم الترحال غالبًا ما يــؤدى عــدم مبـــالاة الجمَّالين أو إجهادهم إلى أن يتركوا السناديق والأحمال تســـقط مـــن فوق الإبل دون عناية بدلاً من أن يتعاملوا معها بالاهتمام اللائق.

الفصل الرابع

الخطط والنذر

«لقد وضعتُ خططى كلها على أساس التوجه مباشرة صوب الجنوب إلى "جغبوب"، إلا أنه حدث أمر ما - قبل موعد الرحيل بيومين - قد أزعجنى».

ففى إحدى الأمسيات كنت أجلس فى حجرتى بإحدى الاستراحات الحكومية الصغيرة مشغولاً بتأمل ملاحظاتى العلمية، حيث سمعت طرقًا على الباب، لم أستطع تصور من ذا الذى يريدنى فى هذه الساعة، لكنى توجهت إلى الباب وفتحته قليلاً، فوجدتُ أحد البدو الذين لا أعرفهم يقف هناك وهو يلف نفسه - وفق الطريقة البدوية - بجبرده، أغلقت الباب سريعًا، وسألته " من أنت؟"

فأجاب "صديق"، ولا أدرى لماذا لم أطمئن إلى رده.

سألته ما اسمك؟ وماذا تريد؟

فأردف زائرى عبر الباب الموصد " أنا صديق ولدى شىء أريد إخبارك به، ويجب أن تعرفه".

فتحت الباب وسألته عما يريد إخبارى به.

فدخل وقال "سوف تأخذ الطريق المباشر إلى جغبوب؟" قالها متسائلاً.

أومأت بالإيجاب.

فوجدته يقول بقوة " لاتذهب".

سألته " لماذا؟".

فأجاب "البيه رجل غنى، يحمل معه قدرًا كبيرًا مــن نعــم الله، والإشاعات تقول إن معك صناديق كثيرة مليئــة بالــذهب، والبــدو جشعون".

ورأيت أنه نصف مصدق لهذه الإشاعات على الرغم من تظاهره بعدم تصديقه لها.

"وقد اتفق الجمَّالون مع بعض أصدقائهم على الطريق أن يكمنوا لك ليسرقوك، وسوف تفقد مالك، إن لم تكن حياتك".

فأجبته ملوحًا " يستطيع المرء دائمًا القتال".

فوافقنى قائلاً "ربما يكون ذلك ممكنًا إذا كان معك عدد كبير من الرجال".

ولم يكن معى عدد كاف من الرجال؛ لذا سألته عــن معلوماتــه الأخرى؛ فقد بدت القصة مقنعة إلى حد ما، وعندما علمت أن زائرى قريب لأحد الأفراد الذين سبق أن أسديت إليه صــنيعًا فــى مهمتــى السابقة للسنوسى، شعرت أنه قد يكون من الحكمة تصديقه؛ لذا شكرته على تحذيره، وبعدها رحل فى ظلام الليل، وجلست أقلب أمــر هــذا الموقف الميلودرامى الذى لم يكن فى الحسبان.

فأهل الصحراء سريعون فى تعقب دوافعك إذا ما استطاعوا، وإذا لم يستطيعوا فسرعان ما تنسج الأقاصيص المتخيلة ليقدروا مَنْ أنت؟

وما معك؟ وماذا تنوى فعله؟ ونظرًا لأن معظم أمتعتنا كانت فى صناديق، والصناديقِ لعقل البدوى تعنى كنوزًا، وإذا كانت ثلاث بنادق فى صناديقها تُرجمت إلى مدافع حربية، فما المانع من أن تُترجم صناديق الكاميرات والأدوات العلمية إلى ذهب وأوراق بنكنوت؟ لذا لم يكن غريبًا أن أصحاب الإبل التى استأجرناها، كانوا مقتنعين أننى ذاهب إلى الصحراء بثروة طائلة لسبب غير معلوم، وليس من المستبعد أن يكونوا قد خططوا لسرقتى، وكان الشجار - مهما نكن موفقين فيه - قد يعد بداية رديئة لمشروعنا؛ لذا رأيت أنه من الأفضل تجنب هذه العقبة عوضًا عن مواجهتها.

ومن غير إبطاءٍ - فى اليوم التالى - وجد أصحاب الإبل الذين اكتُشفت خطتهم الصغيرة أنهم قد أعفوا من الرحلة، وتم استئجار آخرين مع إبلهم ليقلونى إلى "سيوة " بدلاً من الطريق المباشر إلى "جغبوب"، فقد كنا سنسير بطول ضلعى مثلث يشغل رءوسه كل من "السلوم"، و"سيوة"، و"جغبوب". وكان هذا الأمر بالفعل يزيد من طول الجزء الأول من رحلتنا، إلا أن أمر الطول والزمن كانا أقل أهمية من الوصول بسلام؛ فالطريق عبر "سيوة" به العديد من المميزات؛ فهو يمتد داخل الحدود المصرية وليس داخل إقليم مأهول بالقبائل التى ينتمى إليها الجمَّالون السابقون، الأمر الثانى أنه يمتد عبر حدود يمر بها كثيرون؛ حيث سيصبح كمون المتآمرين على قافلتنا أمرًا محفوفًا بالمخاطر، أما النقطة الأخيرة فهى أن سرعة رحيلنا بعد تعديل خططنا على هذا النحو لن يتيح الوقت للمتآمرين أن يُعدوا خطة جديدة إذا ما أرادوا ذلك، لكل هذا بدت الخطة آمنة، وقد أثبتت أنها آمنة بالفعل.

مع حلول الأول من يناير سبقتنى القافلة، وبعد ثلاثة أيام من ذلك تفضل الملازم أول باثر BATHER باصطحابى فى سيارة لألحق بها، وقد وجدناها عند " ديجنيش " التى تبعد نحو ستة وثلاثين ميلاً، وبعد أن ودعت الملازم استأنفت الرحلة.

كان لا يزال هناك نحو ستة أيام سفر قبل أن نصل إلى "سيوة"؛ لذا استثمرنا وقت فراغنا خلال هذه الفترة فى تمويه صناديقنا وحقائبنا لتشبه أمتعة البدو المألوفة، والحادثة الوحيدة الجديرة بالذكر خلال هذه الأيام الستة هى حدوث أول فألٍ حسن من ثلاثة أمور اعتُبرت مؤشرًا على أن رحلتنا سوف تتوج بالنجاح.

ففى ظهيرة اليوم الخامس، رأيت غزالاً يرعى على مسافة قريبة من قافلتنا، فسعيت خلفه دون أى تفكير مسبق سوى الأمل فى الحصول على لحم طازج، وفى هذه الأثناء سمعت صياح الرجال من خلفى يحاولون أن يُثنونى عن هذا الأمر، لم أستطع فهم سبب معارضتهم فى الذهاب خلف هذا الصيد، خاصة وأن البدو يعشقون اللحم، وتخيلت أنهم يخشون من أن ذهابى بعيدًا عنهم قد يوقف تقدم القافلة، ولم يبدُ لى هذا السبب كافيًا؛ لذا تابعت سعييٍّ، وبعد عدة مطاردات صوبت بندقيتى نحو الغزال وأصبته فى مقتل.

وبينما كنت أقترب من القافلة عائدًا بما اصطدته، دهشت مرة أخرى؛ فقد وجدت الرجال يعدون نحوى وهم يلوحون بأذرعهم ويصيحون مرحًا وتهنئةً، لم أستطع فهم سلوكهم الحالى بقدر عجزى عن فهم سلوكهم السابق، حتى جاءنى التفسير، وعلمت عندها أن من تقاليد البدو أن أول طلقة نار تطلق نحو صيد ما بعد رحيل القافلة

تعد طلقة حرجة؛ لأنها لو طاشت فإنه سوف تحل كارثة ما بالقافلة - بلا شك - قبل أن تنتهى الرحلة، أما إذا أصابت الهدف فإن الحظ السعيد سوف يبتسم للمهمة بأسرها؛ لذا كان رجال القافلة كارهين أن يرونى أضع حظنا على المحك بهذه السرعة، ووقتها قلت لنفسى إننى لو تذكرت قواعد السفر عند البدو لكنت ادخرت أولى طلقاتى لأطلقها عندما نصل إلى " الفاشر"، بعد ستة أشهر من ذلك.

أمضينا ثلاثة أيام فى " سيوة"،(٩) حيث استأجرنا إبلاً أخرى للرحلة إلى "جغبوب"، بالإضافة إلى استكمال بعض الاستعدادات النهائية؛ فقد كانت "سيوة " هى النقطة الأخيرة من العالم الذى سوف أتركه خلفى؛ فهنا سوف تنتهى الخدمات البريدية والبرقية، وبعد هذه النقطة لا يوجد شيء يُشترى سوى منتجات الصحراء، وبعض الأرز أو القماش، وربما كان ثمنها باهظًا جدًّا.

خلال هذه الأيام الثلاثة استمتعت بالضيافة والمساعدة الكريمة التى حظيت بهما من إدارة المناطق الحدودية ممثلة فى شخص المأمور كامل أفندى والموظفين الرسميين فى المدينة والملازم أول لولر LWLER قائد القوات هناك.

* * *

تعد "سيوة" أكبر الواحات وأكثرها سحرًا: بينابيع مائها الرائعة، وفاكهتها الممتازة، وتمرها الذى يعد أفضل نوع فى العالم، بما يجعلها

---

(٩) تقع سيوة على خط طول ٢٥,٣٠° وخط عرض ٢٩,١٢°، وهى تبعد عن السلوم جنوبًا بنحو ٢٠٠ ميل وعن القاهرة فى الاتجاه الجنوبى الغربى بنحو ٣٥٠ ميلا، ويبلغ مستوى منسوبها قياسًا لمنسوب سطح البحر نحو ٤٢ مترًا. "المترجمان"

جديرة بأن تكون مشهدًا لصورة رائعة، كما أن بهـــا أكثـــر التقاليـــد غرابةً وطرافةً؛ فعلى سبيل المثال إذا فقدت امرأةٌ زوجها فإنها تظـــل أربعين يومًا دون اغتسال ودون أن يراها أحد؛ حيث يُلقـــى الطعـــام إليها من خلال شق فى باب مسكنها، وعندما تنتهى هذه الفترة تـــذهب للاغتسال عند إحدى الآبار، وفى رحلتها هذه يحاول كل فرد تجنـــب مسارها؛ لأنها تُدعى فى هذا الوقت " غولـــة"، ويُعتقد أنهـــا تجلـــب الحظ السيئ لكل من يراها فى هذا اليوم " اليوم الأول لاستحمامها".

وفى سوق التمر الذى يُسمى "مسطاح" تعرض كل أنواع الـــبلح معًا – أفضلها وأردأها – فى أكوام، ولا يُفكر أحد فى لمس أى بلح لا يخصه، أو فى خلط البلح الجيد بالبلح الردىء لتحقيق ربح أكبر، بينما فى المقابل يستطيع أى فرد أن يدخل الـــسوق ويأكل ما شاء لـــه من أفضل الأنواع دون أن يدفع مليمًا واحدًا، ولكن عليه فقـــط ألا يأخـــذ معه أى شىء إلى خارج السوق.

كما يوجد فى "سيوة" ضريح لأحد الأولياء يضع عنـــده الأفـــراد متعلقاتهم كأمانة؛ فإذا كان المرء ذاهبًا إلـــى أحـــد الأمـــاكن البعيـــدة يستطيع اصطحاب حقائبه وأكثر الأشياء قيمة ويضعها بـــالقرب مـــن هذا المقام، ولا يستطيع أى فرد حتى أن يحلم بلمســـها، وحرفيًّـــا إذا ترك أى فرد سُرَّةً مليئة بالذهب هناك فلن يلمسها أحد، ومـــرد ذلـــك اعتقاد بسيط – لكنه غير قابل للدحض – فيما بيـــنهم، بأنـــك إذا مـــا لمست أى شىء قريب من الضريح وهو لا يخصك، فإن سوء الحـــظ سوف يصيبك ما حييت.

عندما كنت أتأهب لمغادرة "سيوة" كانت مجموعتى الصغيرة من الرجال قد تضاعف عددها؛ ففى "السلوم" أضفت إلى عبد الله وأحمـــد

رجلاً يُدعى حامد من قبيلة "مونافا"، وقد تميز بأنه كان أكثر من يعمل بمفرده فى القافلة بأثرها؛ فلم أره يومًا متعبًا، وقد كلفته بالعناية بجملى، ثم بعد ذلك بالفرس الذى حصلت عليه فى "الكفرة"، والشخص الرابع فى المجموعة كان إسماعيل وهو من " سيوة"، ورغم أنه كان يبدو ضعيف الجسم، فقد كان آخر من يستسلم على الطريق ويمتطى الإبل، وإسماعيل هو ذلك الشخص الذى اعتددت أن أصطحبه معى عندما كنت أذهب لاستطلاع مواضع العينات الجيولوجية، أو عندما كنت أجمع بعض الملاحظات العلمية عن بعض المواضع؛ فقد جاء من واحة تقع عند الحدود المصرية، حيث البريد والتلغراف هناك جعلاه على اتصال بالعالم الخارجى؛ لذا كانت شكوكه البدوية الفطرية أقل من الشكوك الفطرية التى يتسم بها البدو الأخرون، تلك التى قد تُحيل كل فعل بسيط غير مفهوم إلى شىء ذى دوافع مختلفة، ذات مرة سألنى "لماذا يجمع البيه شظايا الصخور؟" ما لم يكن هناك ذهب فى داخلها أو ينوى العودة ليحتل البلاد؟ وعندما قلت له الأمر ليس كذلك يا إسماعيل؟ أجاب " إذًا كان البيه يريد بعض الصخور، فما على البيه إلا أن يطلبها منا.

رحلت مع قافلتى الجديدة عن "سيوة " يوم ١٤ يناير، لنقطع بذلك اخر صلة لنا بالعالم الخارجى، وعند أول توقف، نزعت عنى سترتى الكاكى وارتديت الزى البدوى، وعندها شعرت أننى أصبحت جزءًا من حياة الصحراء، وكان أثر ذلك على الرجال فوريًا؛ فقبل ذلك كانوا يقتربون منى بحرج وتكلف، أما الآن فقد عادوا إلى طبيعتهم يُقبّلون يدى على الطريقة البدوية، ويقولون "الآن أصبحت واحدًا منا".

أما الفأل الحسن الثانى فقد حدث لنا على بعد بضعة أميال خارج "سيوة"؛ إذ وجدنا بعض التمر فى طريقنا، خلفه أحد التجار سيئى الحظ الذى أصابته حادثة بينما كان متوجهًا بحمولته إلى السوق. والتمر على الطريق بمثابة وعد بحظ جيد فى الرحلة المزمعة؛ فمن الشائع عندما يرحل بدوى مع قافلته أن يسبقه أصدقاؤه سرًّا ويلقون بعض التمر فى الطريق الذى يُفترض أن يمر به.

لذا! فمع طلقتى الأولى والغزال الذى اصطدته، والتمر الذى عثرنا عليه على الطريق أصبح لدينا مبرر جيد لأن نكون متفائلين، لكن أفضل هذه البشائر على الإطلاق كان على وشك الحدوث. فقد سبق وأن أرسلت رجلين ليسبقانا برسالة إلى السيد إدريس فى "جغبوب" أُعلمه فيها باقترابى؛ فالمرء فى الصحراء لا يتوجه لزيارة شخص ذى مقام رفيع، أو حتى صديق له فجأة وعلى نحوٍ غير متوقع؛ فلابد أن يكون هناك وقت لكليهما ليرتديا ملابس جديدة لائقة، ويذهبا إلى اللقاء كسيدين كريمين.

وبعد أن غادرنا "سيوة " بيومين، كنت أسير خلف القافلة على مسافة ما، عندما فوجئت بتوقفها، وعندما سألت عن سبب ذلك التوقف غير المعتاد جاءنى الرد بأن الرسولين جاءا يقولان إن السيد إدريس سوف يكون هنا خلال ساعة، وكان مجىء رئيس السنوسية بنفسه للقائنا فى بداية رحلتنا هو أسعد مبشر بيمن الطالع، أما بقية الرسالة فكانت تعكس آداب السلوك فى الصحراء؛ فقد تضمنت الطلب بأن نخيم حتى يحضر إلينا الرجال.

وفى التو نصبنا خيامنا، وقبل مرور فترة طويلة ظهرت طليعة قافلة السيد إدريس وهى تقترب، وخيمت على مسافة قريبة منا، وبعد

بعد ساعة من ذلك تقدم السيد إدريس بنفسه ترافقه حاشيته صوب خيمتى، وذهبت للقائه.

قابلنى السيد إدريس بمودة بالغة، واستأنفنا التعارف الذى تم فى اللقاء السابق، مع تقدير بالغ من جانبى وسعادة ظاهرة من جانبه، فما كان لرحلتى السابقة أن تنجح مطلقاً لولا مؤازرته ومساعداته التى قدمها لنا.

تغدينا فى خيمته؛ حيث تناولنا الأرز، والدجاج المطهى، والكعك البدوى الحلو، ثم شربنا الشاى المعطر بالنعناع وماء الورد، وأبلغته بخططى، وأخبرته عن أنباء العالم الخارجى، وكان مهتمًا بأن يعرف النتائج النهائية لمؤتمر السلام فى فرساى.

وبناء على اقتراحه أحضرت كل رجال قافلتى إلى خيمته لينالوا بركته، وبينما كنت أصغى معهم إلى الكلمات المألوفة التى تقال فى هذه الظروف وهى تتدفق من بين شفتيه، تبادر إلى ذهنى فى تلك اللحظة صورة الحجرة التى كان يعبقها البخور فى القاهرة وصورة أبى وهو يبارك رحلتى، وكيف قفز خيالى آنئذ صوب الصحراء والإبل وحياة البدو، أما الآن فالحاجة للتخيل قد ولّت؛ فقد كنت فى ملابس بدوية وخلفى إبل قافلتى، بينما يمتد أمامى الطريق إلى الهدف الذى أنشده.

أما الرجال فقد كانت تجربة أن يُباركوا من السيد إدريس ذاته، دليلاً قاطعًا على النجاح الذى سوف نحققه؛ فلا شىء يمكن أن يؤذينا الآن ولا شىء يُضارع مقابلته.

عند الغروب ودَّع كل منَّا الآخر، وتم تفكيك المخيمين، لتمضي كل قافلة فى مسيرتها؛ حيث اتجه السيد إدريس شرقًا إلى مصر، بينما اتجهت غربًا إلى "جغبوب"، داخل الصحراء، وحيثما كنا نسير أصرَّ رجالى على تتبع الآثار التى خلفتها قافلة السيد إدريس، حتى ينالوا أكبر قدر من حسن الطالع الذى حدث لنا.

الفصل الخامس

السنوسية

«ربما لا تكتمل أية قصة عن الصحراء الليبية ما لم تتضمن جزءًا عن السنوسية، صاحبة النفوذ الأعظم فى هذا الإقليم، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع معقد، وأن الإنصاف يقتضى تناوله فى مُؤلَّف كامل، فإننا فى هذا الفصل المحدود سوف نمر مرور الكرام على النقاط المهمة من تاريخ السنوسية».

السنوسية ليست عرقًا، أو وطنًا، أو كيانًا سياسيًّا، أو دينًا، على الرغم من أنها تجمع فى ثناياها بعضًا من هذه الخصائص الأربع؛ ففى الواقع يعد السنوسيون - على وجه الحصر - بدوًا مسلمين، يتركز معظمهم فى الصحراء الليبية، ويمتد نفوذهم على مساحة كبيرة من هذا الإقليم، كما تعترف بهم الحكومات المحيطة باعتبارهم قوةً حقيقية فى شئون النطاق الشمالى الشرقى من أفريقيا، وربما كان أفضل وصف موجز للسنوسية **هو أنها سلطة دينية، قيادتها وراثية، تهيمن على البشر فى الصحراء الليبية.**

ويمكن تقسيم تاريخ إخوان السنوسية إلى أربع مراحل اتخذت كل منها ملامحها من شخصية قائدها؛ هم على التوالى: السيد بن على السنوسى وهو مؤسس الطريقة، ثم السيد المهدى ابنه، ثم السيد أحمد ابن أخى الأخير، وأخيرًا السيد إدريس وهو ابن المهدى والرئيس الحالى لإخوان السنوسية (فى هذا الوقت).

السيد محمد بن على السنوسى: يُعرف بالسنوسى الكبير، ولد فى الجزائر[١٠] عام ١٢٠٢ هجريًا الموافق ١٧٨٧ ميلاديًا، ويعود نسبه إلى رسول الله ﷺ،[١١] نال تعليمًا دينيًا رفيع المستوى فى جامع القرويين بفاس بالمغرب، وفى مكة المكرمة؛ حيث تتلمذ على يد الإمام العالم سيدى أحمد بن إدريس الفاسى، وقد طورت نزعته ومال نحو الزهد والتصوف، وزادت قناعته بأن ما يحتاج إليه دينه هو العودة إلى الصورة النقية للإسلام كما تتمثل فى تعاليم رسول الله ﷺ.

وفى الواحد والخمسين من عمره أُرغم على ترك مكة بناء على معارضة الشيوخ الكبار الذين تحدوا تشدده؛ لذا عاد إلى برقة - مارًا بمصر - وبدأ فى إنشاء مراكز لنشر تعاليمه بين البدو.

وفى هذه النقطة سوف نوضح معنى ثلاث كلمات سوف ترد بعد ذلك فى النص، وهى: "الزاوية"، "الإخوان"، "الوكيل".

الزاوية:[١٢] هى بناية تتكون من ثلاث حجرات، وغالبًا ما يرتبط

(١٠) بلدة " مستغانم"." المترجمان "

(١١) يرد ذكره بأنه الإمام المجتهد الولى الصالح الداعية سيدى محمد بن على السنوسى بن العربى بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن القطب الشهير السيد يوسف بن القطب السيد عبد الله بن الخطاب بن على بن زيّان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا على بن أبى طالب-وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت إمام المرسلين ﷺ." المترجمان "

(١٢) يقول الإمام السنوسى فى إحدى رسائله " والزاوية فى الحقيقة إنما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة،وتعمر بها البلاد، ويحصل بها النفع لأهل الحضر والباد، ولأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان"، وقد وضع الإمام السنوسى مجموعة قواعد لتشييد الزوايا وعملها، من بينها:
أ - تشيد الزاوية على قطعة من الأرض يتم الاتفاق عليها مع القبيلة أو القبائل=

حجمها بأهمية المنطقة التى توجد فيها: تخصص الأولى للدراسة حيث يتلقى فيها أبناء البدو تعاليمهم على يد الإخوان، بينما تستخدم الثانية نزلاً للزائرين حيث يتلقى فيها المسافرون الضيافة لمدة ثلاثة أيام كما تقضى بذلك تقاليد البدو، بينما فى الثالثة يقطن إخوان السنوسية.

وتُشيَّد الزاوية عادةً بالقرب من إحدى آبار المياه حيث من الطبيعى أن يتوقف المسافرون، وتلحق بها فى الغالب الأعم قطعة أرض صغيرة يزرعها الإخوان.

الإخوان: هم الأعضاء النشطون فى الجماعة، القائمون على تعليم مبادئها ونشر تقاليدها، وتأتى كلمة "الإخوان" دائمًا بصيغة الجمع، ولا تستخدم بصيغة المفرد مطلقًا حيث تستخدم الكلمة للمفرد والجمع.

الوكيل: هو الممثل الشخصى أو نائب زعيم السنوسية داخل المنطقة التى توجد بها الزاوية.

=صاحبة الشأن، ويفضل أن يختار لموضعها ربوة عالية تُشرف على ما حولها، ويتوفر بها المناخ الصحى، وتعتبر قطعة الأرض التى بنيت فوقها الزاوية والمساحة المتفق عليها أن تتبع الزاوية من الجهات الأربع وقفًا، لا يستطيع أحد أخذه، ويسرى عليه حكم الأبدية بإذن الله سبحانه وتعالى.

ب - تتكفل القبيلة أو القبائل صاحبة الشأن بتكاليف بناء الزاوية.

جـ - الحرم المتفق على تخطيطه حول الزاوية يصبح حرمًا آمنًا لمن دخله واستجار به، ولا يجوز أن يُطلق الرصاص فى داخله أو أن يُشهر السلاح أو التشاجر، أو رفع الصوت بالغناء أو بالخناق، كما يمنع فيه رعى الحيوان.

د - لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزوايا المتاخمة لها، ولا يجوز لشيخ الزاوية أن يتعدى على حدود الآخرين.

هـ - على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنويًا، كلهم أو بعضهم، إذا ما رأوا وجوب ذلك.

و - تتكون موارد الزاوية من الزراعة، ورعى الأغنام، والهبات الخيرية، والزكاة الشرعية.

وقد وجد السنوسى الكبير أن المسلمين فى " برقة " قد سقطوا فى البدع، كما زاد الانحلال والانحطاط الفكرى فيما بينهم، ليس فقط من وجهة النظر الدينية، بل أيضًا من وجهة النظر الأخلاقية، ولعلنا نورد بعض الأمثلة الصغيرة لإيضاح هذه النقطة.

فقد شيد بعض زعماء البدو من أصحاب النفوذ في الجبل الأخضر،(١٣) الذى يقع شمال برقة، بنيانًا أشبه بالكعبة الحقيقية الموجودة فى مكة المكرمة، وعملوا على ترويج فكرة مفادها أن الحج إلى هذه الكعبة الزائفة، قد يعد بديلاً عن الحج إلى الكعبة المشرفة التى تعد قبلة القبل، ومن الثابت أنه على كل مؤمن أن يحج إليها متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

كما أنه على الرغم من التسليم بأن صوم رمضان - الذى يعد وقتًا للتقشف والتأمل الدينى - وأحد الأركان الرئيسية فى إيمان المسلم، فقد اعتاد البدو أن يذهبوا قبل بداية شهر رمضان المعظم إلى واد يُقال له "وادى زازا"، الذى يشتهر بترديد جدرانه لصدى الأصوات التى تطلق فيه، ثم يصيحون بالسؤال التالى: وادى زازا، يا وادى زازا هل نصوم شهر رمضان أو لا؟ وبالطبع فإن رجع الصدى يُعيد ترديد الكلمة الأخيرة من السؤال وهى "لا..لا.. لا.."، وعندها يعود من أجابهم الله من خلال وسيطه إلى ديارهم وهم يحملون تبريرًا على عدم الصوم.(١٤)

---

(١٣) يتوارث بعض المتصوفة الليبيين حتى الآن رواية مفادها " أن هذا الجبل يعد من الجبال المباركة، وأن كل الأولياء عبدوا فيه الله سبحانه وتعالى ولو ساعة. "المترجمان"

(١٤) ويشبه هذا الأمر ما كان يعتقده الإغريق من وجود "أوركل" أو وسيط تجيب الآلهة من خلاله. "المترجمان"

كما وجد أيضًا بعض العادات المنتشرة بين البدو التى تعود إلى الجاهلية مثل وأد البنات، لإنقاذهن من الشر الذى قد تجلبه حياتهن، وبالطبع كان كل ذلك يقف حائلاً بين التزامهم بالتعاليم القويمة للإسلام.

وفى ظل هذه الظروف فإن ما كان يدعو إليه مؤسس إخوان السنوسية فى تعاليمه ووعظه هو العودة إلى خيمة الإسلام النقية، وهو ما التقى مع الاحتياجات الملحة للإيمان القويم فى هذه المنطقة.

وقد شيد السيد بن على السنوسى أول زاوية فى أفريقيا فى "سيوة"، التى توجد فى مصر بالقرب من حدودها الغربية، ومن هذه النقطة تحرك صوب الغرب إلى " برقة " فأنشأ زوايا فى "جالو" و"عجيلا"، ثم أكمل مسيرته صوب الغرب فشيَّد زوايا فى كل من طرابلس، وتونس. وتدريجيًا انتشرت تعاليمه بين البدو فى كل هذا النطاق؛ حيث كانت تسبقه سمعته بوصفه رجلاً ورعًا وعالمًا جليلاً، حتى إن زعماء البدو تنافسوا فيما بينهم على استضافته.

وعندما عاد إلى "برقة" عام ١٨٤٣ أنشأ فى الجبل الأخضر بالقرب من "درنة" زاوية كبيرة سُميت بـ"الزاوية البيضاء"، وحتى ذلك الوقت لم يكن لديه مركز لقيادة السنوسية، بل كان يحيا حياة المعلم الجوَّال، إلى أن استقر به المقام فى "الزاوية البيضاء"، واستقبل فيها زواره من قادة البدو ووجهاء برقة.

ودعا السنوسى الكبير إلى العودة إلى صورة الإسلام النقية، والالتزام بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولا شكَّ أن أفضل نموذج عن تعاليمه هو ذلك المقطع المقتبس من رسالة بعث بها إلى شعب "واجانجا" فى " واداى" – وقد رأيت نصها الأصلى فى "الكفرة" – قال فيها: "إنا ندعوكم بدعوة الإسلام لطاعة الله ورسوله، قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[١٥] وقال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾،[١٦] وقال تعالى:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.[١٧]

والطاعة هى الامتثال لأمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وأداء زكاة الأموال وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وشهادة الزور... وغير ذلك مما حرم الله سبحانه وتعالى. فبذلك تنالون الخير الأبدى والربح السرمدى الذى لا يعتريه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان".

وكان الاهتمام الرئيسى لمؤسس الطريقة السنوسية يتعلق بالبعد الدينى للحياة؛ فهو لم يسعَ لأن يكون قائدًا سياسيًا، أو يحظى بسلطة دنيوية، فقد دعا للتقشف فى الحياة بمثل الحماس الذى مارسه به، وهو لم يعلمهم مذهبًا دينيًا محددًا، كما لم يلزمهم بقبول عقائد خاصة، لكنه

---

(١٥) سورة محمد: آية ٣٣.
(١٦) سورة النساء: آية ٨٠.
(١٧) سورة النساء: آية٦٩.

اهتم كثيرًا بسلوك أتباعه مقارنة باهتمامه بالأمور المذهبية، وإضافته الوحيدة للشعائر الإسلامية هو دعاء واحد كتبه بنفسه، ويسميه السنوسيون " الحزب"، وهو لا يتعارض مع أى من تعاليم الفقهاء، كما لا يضيف جديدًا لما ورد بالقرآن الكريم، لكنه ببساطة يكرر بعض ما ورد به فى صياغة مختلفة.

وفى خطابه لشعب "واجانجا" - الذى أقتبس منه المقولة التالية - التى يصف فيها المهمة التى ألقاها الله - سبحانه وتعالى - على عاتقه بقوله "ننبه الغافل، ونعلم الجاهل، ونرشد الضال".

وقد حرَّم كل صور الرفاهية فى العيش على أولئك الذين أخذوا على عاتقهم أن يكونوا من الإخوان؛ فقد حرم امتلاك الذهب والمجوهرات - باستثناء المخصص لزينة النساء - وتناول التبغ وشرب القهوة، ولم يفرض أى طقس، وكل ما طلبه هو العودة إلى الصورة البسيطة للإسلام كما وردت فى تعاليم رسول الله ﷺ، ولم يكن متسامحًا فى التعامل ليس فقط مع المسيحيين واليهود بل أيضًا مع ذلك الجزء من العالم الإسلامى الذى - وفقًا لقناعته - حاد عن المعنى الحقيقى للإسلام.

وفى عام ١٨٥٤ أنشأ السيد بن على زاوية فى "جغبوب"، تطورت فى النهاية لتصبح مركزًا تعليميًّا لتعليم إخوان السنوسية، ولم يأتِ اختياره " لجغبوب " عشوائيًّا، أوعلى سبيل المصادفة، ولكنه يبين حكمته وذكاءه العملى؛ فقد كان مقتنعًا أنه يأتى على رأس أولوياته أن يسوى النزاع بين القبائل المختلفة فى الصحراء، وأن ينشر السلام فيما بينها. ونقتبس فقرة أخرى من خطابه لإيضاح هذه

النقطة: " لقد عزمنا على نشر السلام بينكم وبين العرب (يعد شعب واجانجا الموجه الخطاب إليهم من السلالات السوداء) الذين يغزون حدودكم، ويأخذون أبناءكم عبيدًا وأموالكم؛ إعمالاً لقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[١٨] وأيضًا سوف نتبع طريقه " اتقوا الله، وأفشوا السلام فيما بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين".

وقد كانت "جغبوب" نقطه إستراتيجية لغرضه؛ فهي تقع في منتصف الطريق بين القبائل فى الشرق والغرب، الذين كانوا في صراع دائم، وبجعل مركز قيادته هناك يستطيع السنوسى الكبير أن يبسط نفوذه ليضع حدًّا لهذا الصراع، وينفذ أمر رسول الله ﷺ "وأفشوا السلام فيما بينكم"، إلا أنه من وجهة النظر العملية فإن "جغبوب" لم تكن مكانًا واعدًا ليصبح مركزًا تعليميًّا للأنشطة الدينية كما يأمل السنوسي الكبير؛ فهى لا تملك كثيرًا من مقومات الواحة، إذا جاز لنا أن ندعوها واحة بالفعل؛ فأشجار النخيل نادرة هناك، والماء مالح قليلاً، والتربة قاسية على الزراعة، إلا أن أهميتها الإستراتيجية - على كل حال - كانت واضحة، ودون تردد اختارها موضعًا لتمركزه، ومن خلال تأثيره استطاع أن يضع حدًّا للغارات المتبادلة بين القبائل فى الشرق والغرب، وسوّى العديد من الضغائن والصراعات القديمة ليس فقط بين هذه القبائل بل أيضًا بين القبائل الأخرى فى "برقة".

---

(١٨) سورة الحجرات: آية ٩.

عاش السيد بن على ست سنوات بعد أن استقر فـــى "جغبـــوب"، وبسط نفوذه طولاً وعرضًا؛ فقبائل الزوىّ، الذين اشتهروا بأنهم قطاع طرق "برقة"، وأنهم لا يخافون الله أو البشر، دعوه ليأتى إلى "الكفرة"، ويصبح زعيمًا عليهم، وليؤسس زاوية هناك، واتفقوا فيما بينهم علـــى أن يُقلعوا عن الغارات واللصوصية والهجوم على القبائل الأخرى،(١٩) وعرضوا عليه ثلث ممتلكاتهم فى "الكفرة" إذا ما قَبِل أن يأتى إليهـــا، وبرغم أنه لم يستطع الذهاب شخصيًّا فقد أرســـل نيابـــة عنـــه أحـــد الإخوان الشهيرين وهو سيدى عمر بوهوا الـــذى أنشـــأ أول زاويـــة سنوسية فى "الجوف" بالكفرة، ومنها بدأت تنتشر تعـــاليم السنوســـى الكبير بين الزوىّ، كما كلَّف إخوانًا آخرين بالذهاب إلى مناطق أخرى فى الصحراء الليبية، وقبل موته كان كل البدو المنتشرين على التخوم الغربية لمصر وفى برقة قد أصبحوا من أتباعه. وقد وافته المنية عام ١٨٥٩، ودفن فى الضريح الذى ترتفع فوقـــه القبـــة البيضـــاء فـــى "جغبوب".

---

(١٩) يرى الدكتور جمال حمدان فى كتابه " أنماط من البيئات " أنه يمكن تصنيف النهب والغزو فى الصحراء باعتباره حرفة بكل ما فى الكلمة من معنـــى، فعـــدم كفايـــة الموارد المشروعة يشرعها للبدوى بحيث لا تعتبر عِارًا بل غـــارًا؛ لهـــذا جعـــل البدوى من النهب نظامًا – ويقول البعض تهكمًا بل فنا جميلاً، وهدف الغـــزو إمـــا مناطق الاستقرار المجاورة للصحراء، وإما القوافل التى يفرضون عليهـــا إتـــاوات باهظة أو ينهبونها، وإما الواحات. وآلة قراصنة الصحراء هؤلاء هى الخيل، ومن أهم غنائم الغزو الرقيق؛ فهؤلاء القراصنة فى موضع القوة الذى يسمح لهم بأســـر أعداد كبيرة، لكنهم ليسوا فى موضع الغنى الذى يسمح لهم باقتنائهم وغذائهم؛ لـــذا تصبح النخاسة هى الحل الوسط؛ مما سبق يتضح مدى ما غيرته السنوسية فى هذه القبائل، وما أضافته للمنطقة. " المترجمان "

سيدى محمد المهدى: تولى أمر السنوسية خلفًا لوالــده، ورغــم حداثة سنه آنذاك، حيث كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا عندما توفى والده، فإن اختياره خليفة لوالده دعمه أمران: أولهما يعود لواقعة حدثت فى نهاية مقابلة مع والده، وكان المهدى بصدد مغادرة الحجرة، عنــدما نهض السنوسى الكبير وكلفه بإعداد خفه الذى كان قــد خلعــه عنــدما دخل، ووقتها خاطب مؤسس الطريقة الحضــور بالكلمــات الآتيـــة "اشهدوا أيها الرجال الحاضرون كيف أن ابن على السنوسى رتب خفى ابنه المهدى" وقد اعتبروا أن ذلك لا يعد فقط إشارة إلـــى أن المهــدى سوف ينجح فى خلافة أبيه، بل إنه سوف يفوقه فى ورعه وتقواه.

ثم كانت هناك أيضًا تلك النبوءة القديمة بأن المهدى الذى ســوف يعيد للإسلام مجده، سوف يبلغ سن الرشد فى الأول من محرم عــام ١٣٠٠ هجريًا، ويولد من أبوين يدعيان محمــد وفاطمــة، ويمضـــى العديد من السنوات فى مكان منعزل، وكان كل جزء من هذه النبوءة ينطبق على شخص المهدى، الذى وقع الاختيار عليه ليكــون خليفــة للسنوسى الكبير.

وعندما بلغ السيد المهدى سن الرشد كان يوجد فى برقة نحو ٣٨ زاوية، وفى طرابلس نحو ١٨ زاوية، وفى مصر ما يقرب مــن ٢٠ زاوية، بالإضافة إلى العديد من الزوايا الأخرى التى تتوزع فى شمال أفريقيا، وكان عدد أتباع السنوسية فى هذا الوقت يتراوح بين مليــون ونصف وثلاثة ملايين نسمة يدينون بالولاء الروحى لــرأس الإخــوة السنوسية، وعندما تولى المهدى هذا المنصب أصبح أكثر أفراد عائلة السنوسى شهرة.

وقد رأى منذ البداية أن هناك مجالاً أكبر لمد تأثير السنوسية فى اتجاه "الكفرة" والأقاليم التى تقع جنوبها مقارنة بالأقـاليم التـى تقـع شمالها؛ لذا قام فى عام ١٨٩٤ بنقل مركز قيادته من "جغبوب" إلـى "الكفرة"، وقبل رحيله حرر كل عبيده، ولا يزال يعيش العديـد مـنهم ومن أبنائهـم فى "جغبوب"حتى الآن.

وقد عُدَّ انتقاله إلى "الكفرة" بمثابة بداية مرحلة مهمة فى تـاريخ السنوسية، وأيضًا فى تنمية التجارة بين السـودان وسـاحل البحـر الأبيض المتوسط عبر طريق "الكفرة"؛ فالطريق القاسى الخالى مـن المياه الممتد بين بئر "بوطفل " الذى يوجد بالقرب من "جالـو" وبئـر "زيغن" الذى يقع شمال "الكفرة" أصبح خلال عهـد المهـدى طريقًـا تطرقه باستمرار وانتظام العديد من القوافل التجارية، بالإضافة إلـى المسافرين القادمين لزيارة مركز السنوسية، حتى إن أحد البدو قال لى ذات مرة "إن المرء كان يستطيع السير لمسافة نصف يوم من نهايـة قافلة إلى بداية الأخرى".

كما كان الطريق الممتد من جنوب "الكفرة" إلى "الواداى" يعد من الطرق الخطرة والقاسية فى هذه الأيام، وقد تسبب المهدى فى حفـر بئرين على هذا الطريق فى المسافة الممتدة من "الكفرة" إلى "تيركـو" هما: "بيشرا" و"سارا".

وكانت هذه المجموعة من الواحات تعد مركزًا رئيسيًّا للصوصية فى الصحراء الليبية إبان حكم قبيلة زوىّ البدويـة، الـذين انتزعـوا "الكفرة" من قبائل التبو السوداء؛ فقد كان الزوىّ من القبائل المولعـة بالحرب، وفى الأيام التى سبقت قدوم السنوسى كان هناك قانون فيمـا بينهم يهددون بموجبه كل من يمر بحدودهم؛ فكل قافلـة تمـر عبـر "الكفرة" سواء كانت قادمة من الشمال أو الجنوب كانت تنهـب، أمـا

سعيدة الحظ منها فكانت تُجبر على دفع دية مرور للزوىّ، وقد أقنع المهدى المسيطرين على "الكفرة" بأن يُقلعوا عن فرض هذه الإتاوات، وأدرك أهمية تنمية تجارة الواحات والطرق التى تقطع الصحراء الليبية من الشمال إلى الجنوب، وناضل ليجعل السفر فى الصحراء آمنا، حتى إن بوماتارى زعيم الزوىّ أخبرنى - عندما كنت فى "الكفرة" - أنه فى أيامه أمكن للمرأة أن تسافر من "برقة" إلى "الواداى" دون أن يتحرش بها أحد.

كما نجح المهدى فى مد دائرة نفوذ السنوسية إلى العديد من الاتجاهات؛ فقد أرسل الإخوان إلى الخارج لإنشاء الزوايا من المغرب فى أقصى الغرب إلى إيران فى أقصى الشرق، إلا أن جهده الأعظم كان فى الصحراء الليبية بين البدو وقبائل السود التى توجد فى الجنوب من "الكفرة"، وهو لم ينجح فى أن يجعل من السنوسية قوة روحية فى هذه الأقاليم، وذات تأثير قوى من أجل السلام والوئام بين القبائل فحسب، بل جعلها كذلك منظمة تجارية قوية محفزة على تنمية التجارة وازدهارها، وفى السنوات الأخيرة من حياته عمل شخصيًا على مد نفوذ الإخوة صوب الجنوب، فقد ذهب إلى "جيرو" التى تقع إلى الجنوب من "الكفرة"، وعندها وافته المنية فجأة عام ١٩٠٠ م.

وكان أبناء المهدى فى هذا الوقت قاصرين؛ لذا أصبح ابن أخيه السيد أحمد رأس الإخوة السنوسية، باعتباره الوصى على السيد إدريس،(٢٠) الذى كان الوريث الشرعى نظرًا لأنه أكبر أبناء المهدى سنًا.

---

(٢٠) كان السيد إدريس - أكبر أبناء المهدى - يبلغ من العمر فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عامًا. "المترجمان"

وقام زعيم السنوسية الجديد بانحراف مفاجئ عن سياسة من سبقوه؛ فقد أراد أن يجمع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وعندما استولى الإيطاليون على حكم برقة وطرابلس من الأتراك حاول السيد أحمد أن يوحد قوته الروحية كرأس للإخوة مع ما تبقى من القوات العسكرية التركية.وعندما اندلعت الحرب العالمية حثه مبعوثو الألمان والأتراك على مهاجمة الحدود الغربية لمصر، ولكن سعيه فشل فشلاً ذريعًا، وأُجبر السيد أحمد على المغادرة إلى الآستانة في غواصة ألمانية.

وقد رأى ثالث زعماء السنوسية الأمور بصورة مختلفة عن السنوسى الكبير وأكبر أبنائه؛ حيث أدرك أن القوة الروحية لا يمكن هزيمتها على أرضها، فى حين أنه إذا ما نزل الميدان طالبًا السيادة الدنيوية، فالأمر لا يتطلب سوى بضع قوات عسكرية مجهزة لتدمر سمعته؛ فقوة السيد بن على السنوسى والسيد المهدى تكمن فى أنفسهم وفى تأثيرهم الروحى الذى ينبع من ذاتهم، بينما تنازل السيد أحمد عن هذا التأثير وعول على الجيوش والذخيرة الحربية والظروف المحيطة، وعندما فشل كل هذا، لم يتبقَ له شيء.

وقد سلمت قيادة السنوسية بعد ذلك من يد السيد أحمد إلى وريثه المباشر السيد إدريس الذى يستمد جزءًا كبيرًا من مكانته بلا شك من حقيقة كونه ابن المهدى، لكنه حتى دون هذه الميزة فإنه يمتلك من السمات الشخصية ما يكفى كأساس للنجاح فى ذلك المنصب المهم الذى تقلده؛ فهو يجمع بين كرم الأصل ودماثة الخلق مع شخصية حازمة لأعلى الدرجات، وهو لا يحظى بولاء ودعم ومؤازرة إخوان السنوسية فحسب بل يحظى بمثل ذلك أيضًا من سكان الصحراء الليبية.

وفى عام ١٩١٧ أبرمت اتفاقية بين الحكومة الإيطالية والسيد إدريس بوصفه رأس إخوان السنوسية، يحق له بمقتضاها أن يدير شئون واحات "جالو"، " وعجيلا"، و" جدابيا"، و"الكفرة"، واعترف بذلك بوضوح، وتم التصديق على هذه الاتفاقية مرة أخرى بعد عامين من ذلك فى " رجيما"، وللأسف الشديد فقد حدث سوء فهم عام ١٩٢٣ بين جانبى هذا الاتفاق تسبب فى تجميده، لكنه يؤمل على أية حال أن يتم توقيع اتفاق جديد بين السيد إدريس والسلطات الإيطالية لعله يعيد لهذه الواحات التى توجد فى الصحراء الليبية[٢١] سلامها وازدهارها.

ولا مجال للسؤال عن أن تأثير إخوان السنوسية على حياة البشر فى هذا الإقليم كان جيدًا، ولم يقتصر دور إخوان السنوسية على تعليم البشر الدين والمعلومات العامة، بل إنهم حكموا وتوسطوا بين الرجال

---

(٢١) هاجر السيد محمد إدريس بعد ذلك إلى " مصر " بعد شعوره أن الايطاليين يتآمرون عليه، وفى عام ١٩٤٠ اتفق مع الإنجليز على تكوين جيش ليبى من المهاجرين الليبيين فى " مصر " و"سوريا"، سُمى بالجيش السنوسى، كما اتصل به الجنرال شارل ديجول وعرض عليه مساعدة " فرنسا " له فى طرد الإيطاليين، وفى عام ١٩٤٣ تخلصت " ليبيا " من الاستعمار الإيطالى إثر هزيمة "ألمانيا" وإيطاليا فى الحرب العالمية الثانية من دول الحلفاء " إنجلترا"، و" فرنسا"، و"الاتحاد السوفيتى"، و"الولايات المتحدة الأمريكية"، وخضعت كل من ولاية "طرابلس" وولاية " برقة " لإدارة عسكرية إنجليزية، بينما خضعت ولاية "فزان" لإدارة عسكرية فرنسية، وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م أعلن استقلال ليبيا المتحدة بولاياتها الثلاثة والمناداة بمحمد إدريس السنوسى ملكا على " ليبيا"، وظلت تحمل اسم المملكة الليبية المتحدة حتى صدر قرار ملكى فى ٢٧ أبريل ١٩٦٣م، بإنهاء الاتحاد وأصبح اسمها المملكة الليبية، ولكن الوعى الوطنى بدأ يطفو على السطح منذ عام ١٩٦٦، وفى عام ١٩٦٧ قاد "سليمان المغربى" المحامى المتعلم فى "الولايات المتحدة الأمريكية" أول إضراب لعمال النفط فى ليبيا، وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٦٩ م اندلعت الثورة الليبية التى أطاحت بالملك إدريس، وقاد مجلس قيادة الثورة العقيد معمر القذافى. "المترجمان"

والرجال وبين القبائل والقبائل، كما وضحت ذلك بجلاء تلـــك الفقــرة التى اقتبسناها من الخطاب الموجه إلى سكان "واجانجا " كيف جعــل السنوسى الكبير من وظيفة صنع السلام واجبّا على إخوان السنوسية، ولقد تطور هذا الأمر وأصبح أكثر أهمية على يد ابنه العظيم المهدى.

ومما لا شك فيه أن الدور الذى لعبته السنوسية فى حفظ الهــدوء والسكينة بين البشر فى الصحراء الليبية مـــن الصـــعب حصــره أو تجاوزه.

الفصل السادس

سلام جغبوب[٢٢]

«بعد ظهر اليوم التالى للقائنا مع السيد إدريس شاهدنا القبة البيضاء لجامع "جغبوب" ترتفع أمامنا، وطبقًا لتقاليد البدو خيمنا على مسافة قريبة من البلدة، وأرسلنا رسولاً ليسبقنا ويعلن وصولنا، وبعد ساعتين عاد الرسول ليخبرنا أنهم جاهزون لاستقبالنا».

تقدمت القافلة، ومع اقترابها من الأسوار بدأنا فى إطلاق بنادقنا فى الهواء،[٢٣] وكان فى استقبالنا عند البوابة سيدى حسين الوكيل أو ممثل السيد إدريس فى البلدة، ترافقه مجموعة من الإخوان الذين

---

(٢٢) كانت واحة "جغبوب" حتى ذلك الوقت تعد من الأراضى المصرية، وقد انتقلت تبعيتها إلى الحكومة الليبية عام ١٩٢٥، أثر توقيع " معاهدة جغبوب " لترسيم الحدود بين مصر وليبيا، بعد أن تنازل عنها الملك فؤاد إلى الجانب الليبى، الذى طالب بها نظرًا لأنها تضم رفات عميد الأسرة السنوسية، وقد ساعد على إبرام هذا الاتفاق عدة عوامل لعل أبرزها ما يلي:

- ارتباط الملك فؤاد بعلاقات ودية طيبة مع الأسرة السنوسية والإيطاليين الذين كانوا يحتلون ليبيا فى ذلك الوقت.
- كان ترسيم الحدود بين "مصر " و" ليبيا " يعد أمرًا مهمًا للإنجليز الذين كانوا يهيمنون على السلطة فى مصر فى ذلك الوقت نظرًا لوجود الإيطاليين على حدود مصر الغربية.
- تنازلت " ليبيا " فى المقابل للحكومة المصرية عن مرتفعات " السلوم". "المترجمان"

(٢٣) تستخدم هذه الوسيلة للإعلان عن اقتراب القافلة." المترجمان "

يدرسون فى المدرسة، بينما اصطف التلاميذ على طـول الطريـق، وظلوا يهتفون لنا بينما كنا نمر بينهم، وكان دفء تـرحيبهم يتـردد صداه فى قلوبنا.

كان الدخول إلى "جغبوب" بالنسبة لى بمثابة العودة للديار؛ فمنـذ عامين كانت أقرب نقطة إلى نهاية رحلتى، والآن تقف بوصفها نقطة بداية أو واحدة من عدة نقاط. إنها الحقيقة؛ فهى مازالت تعـد نقطـة بداية للرحلة العظيمة التى ستبدأ.

وتقترن ذكرى زيارتى الأولى "لجغبوب" بالشعور الـذى يتملـك المرء عندما تنتهى رحلة طويلة، أما الآن فإننى أدخلها وأنا مترقـب المرحلة التالية من رحلتى ومستثار لكى أبـدأ. ولا شـك أن نهايـة الرحلة وبدايتها لحظتان عظيمتان، ولكن المشاعر التى تقترن بكليهما مختلفة.

كنت متلهفًا لأبدأ من جديد، ولكن مر شهر وأربعة أيـام قبـل أن أستطيع العودة للطريق؛ لأنه لم يكن هناك أية إبل تنتظرنى، رغم أننى قبل أن أترك السلوم أرسلت رجلاً يُدعى السـيد علـى السـيتى عبـر الطريق المباشر"لجغبوب" ليقوم باستئجار الإبل المطلوبـة، ويجعلهـا تنتظر إلى أن أصل من الطريق الطويلِ عبـر"سيوة"، ولكن عليًا هـذا تحول بقدرة قادر إلى هواء، وبقدر ما علمت فقد ذهب لما يقرب مـن "جدابيا" دون تحقيق أى نجاح يُذكر؛ لأنه لم يجد أى بدوى على طريق "السلوم" يقبل أن يؤجر لـه الإبل التى أريدها، كما لم يجـد أيـة إبـل متاحة فى "جدابيا" أيضًا، انتظرت أسبوعين ولم تبدُ أية إشارة لعلى، ثم اكتشفت أن سبب عدم حصوله على الإبـل يعـود إلـى أن اسـتخدام

الطريق من "جغبوب" إلى "جالو" مقصور على بدو قبيلتي "الزوى" و"المجابرة"، ولا يجرؤ أى بدوى آخر على المغامرة بالسير فيه.

ورغم تلهفى على الرحيل من جديد، فإننى لم أستطع مقاومة سحر المكان وسكينته، الذى وجدت نفسى محتجزًا فيه.

وتعد جغبوب مركزًا تعليميًا ودينيًا، فلا يوجد هنا تجارة أو زراعة، باستثناء بعض القطع الصغيرة من الواحة التى يزرعها العبيد السابقون - الذين أعتقهم السيد المهدى عند انتقاله إلى "الكفرة" - بالخضراوات، بالإضافة إلى بعض النخيل؛ فحياة البلدة تتمحور حول المسجد الذى يوجد بها، والذى يتسع لما يتراوح بين خمسمائة وستمائة فرد، والمدرسة التى تعد بمثابة مركز السنوسية للتعليم الدينى، وبالقرب من المسجد توجد بضعة منازل تخص عائلة السنوسى، والإخوان، بالإضافة إلى بعض المنازل الخاصة المتناثرة داخل الأسوار وخارجها، إلى جانب مجموعة من البنايات التى تتجمع بالقرب من المسجد، وتضم العديد من الحجرات التى تتسع لسكنى نحو مائتين أو ثلاثمائة طالب.

وقد بلغت "جغبوب" قمة مجدها عندما اتخذها السيد بن على "السنوسى الكبير" مركزًا لإخوان السنوسية، وعندما خلفه ابنه السيد المهدى استمرت أهمية البلدة بضع سنين حتى نقل مركز أنشطة الإخوان إلى "الكفرة"، ثم عندما تولى السيد أحمد الشريف - بصفته الوصى على السيد إدريس الصغير - السلطة، ازدهرت "جغبوب" مرة ثانية باعتبارها عاصمة للسنوسية. وقد تغيرت أهميتها عبر السنين من خلال حضور أو غياب رأس الأسرة السنوسية داخل

أسوارها. وإذا ما اتخذها السيد إدريس مـرة أخـرى مقـرًا لقيـادة السنوسية، فخلال شهرين سوف تفيض البلدة والمدرسـة بـالإخوان والطلبة والزوار لضريح السنوسى الكبير.

لكن خلال وقت زيارتى لم يكن هناك سوى ثمانين من صـغار البدو، الذين يتراوح أعمارهم بين ثمانى وخمس عشرة سنة، يدرسون تحت إشراف الإخوان، وإذا ما كان هناك طلبة أكثر فسـوف يكـون هناك مدرسون أكثر، ولكن عند زيارتنا كان رأس عائلة السنوسـية - الذى قابلناه فى طريقه إلى مصر - قد نقل مقر قيادته إلى "جدابيا" التى تقع بعيدًا صوب الغرب.

أما المسجد ففى إحدى حجراته الداخلية يوجد قفص من النحـاس المزخرف يطوق الضريح؛ حيث يُسجى جسد ذلك الرجل العظيم الذى نشد لقومه العفاف، والزهد، والصورة البسيطة للإسلام التى لم يلوثها أى اتصال بالعالم الخارجى، وإلى هذا الضريح يـأتى كـل متشـيع للطريقة السنوسية متكبدًا مشقة الرحلة من أجل أن يبايع ويجدد القسم.

ويحضر تلاميذ المدرسة إلى "جغبوب" لأحد هذين الغرضين: إما أن يعدوا أنفسهم ليصبحوا من "الإخوان"، أوببساطة ليعودوا بعد ذلـك إلى ديارهم فى الواحات بعد أن يصـبحوا رجـالاً متعلمـين وقـادة روحيين فى مجتمعاتهم.(٢٤)

---

(٢٤) ساهم هذا الأمر فى نشر الإسلام فى كل من "واداى"، و"باجرامى"، و"بورنو" ونـواحى بحيرة تشاد؛ فقد كانت طريقة السنوسيين فى نشر الإسلام بين الأفارقة تعتمد على عـدة طرق منها: شراء الأرقاء الصغار من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من قبائـل السـود ويربونهم فى تلك الزوايا، فإذا ما بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلـم أعـادوهم إلـى بلادهم لكى يهدوا أهلهم، وينشئوا الزوايا السنوسية بين القبائل الأفريقية. "المترجمان"

وباستثناء الإزعاج الذى سببته لى مشكلة عدم إمكانية الحصول على إبل لاستكمال رحلتى إلى "جالو" التى تبعد نحو ٣٥٠ كيلومترًا صوب الغرب، كانت حياتى فى "جغبوب" سلامًا داخليًّا واستعدادًا للمشروع القادم.

فالصحراء تتطلب وتستدعى تأهيلاً ذهنيًّا وروحيًّا مختلفًا عن حياة المدينة بصخبها وتلاحقها؛ لذا كنت كثيرًا ما أتجول حول البلدة الصغيرة أو خارجها حيث الواحة التى تحيط بها، أو أقف فى منطقة ظليلة باردة بجوار المسجد أو أجلس فى بعض الأوقات فى البرج الذى يعلوه أتحدث مع البدو المتعلمين، أو أراقب الليل وهو يسقط فوق القبة ناصعة البياض والكتل البنية للمبانى التى تشرف عليها، حين أتخلص من كل القلق والحيرة والمشاكل التى تجلبها الحياة المتكلفة فى الأماكن المزدحمة.

كانت الأيام تمضى يومًا تلو الآخر على النحو التالى: تمشية فى الصباح، يعقبها صلاة فى منتصف النهار بالمسجد، وجبة طعام هادئة، عمل قليل باستخدام أدواتى العلمية أو الكاميرات، صلاة بعد الظهر، تمشية أخرى، وجبة طعام توزع بعدها أكواب الشاى المدوقة على رجالى طبقًا للتقاليد البدوية، صلاة مرة أخرى، وبعد ذلك تأمل هادئ فى سماء المساء بنجومها المسالمة، ثم أتوجه للنوم الذى لا يعرف مذاقه ساكن الحضر.

* * *

من بين كل الإخوان الذين قابلتهم وتحدثت معهم فى "جغبوب"، كان هناك على وجه الخصوص رجل أثار فضولى؛ لأنه كان يتجنب

الجلوس أو الحديث معى، كما لم أستطع معرفة سبب عزلته الغريبة ممن سألتهم من الإخوان، وأخيرًا وبالمصادفة عرفت قصة سيدى آدم بوجميزة.

وسيدى آدم عجوز هرم ذو وجه يكسوة الكبرياء، وتقطر منه المرارة، كما لو أن الحياة لم تكن كريمة معه فى أيام شيخوخته.

وفى زيارتى الأولى " لجغبوب " مكثتُ فى داره الفارغة مدة ثلاثة أيام، ولم تتح لى وقتها الفرصة لأن أجرى معه محادثة طويلة، وفى هذه المرة جاء ليرانى ليلة وصولى ويرحب بعودتى إلى "جغبوب"، وشعرت وقتها أن هناك مأساةً وراء هذا الكهل، كان أحد أفراد قبيلة "باراسا" التى تعد من الصفوة بين البدو، وكان معتزًا بنفسه كأى فرد منهم، ورغم هذا فلم يكن راضيًا بقدره، ولبعض الوقت كنت أتساءل كيف أصبح على هذا النحو؟! فالبدو لم يكن من شيماتهم ذلك؛ فكل من حولى فى "جغبوب" كانوا بشرًا مطبوعين على القناعة والرضا وفعل الخير، بينما وقف سيِدى آدم بمفرده بعيدًا عن إخوانه، يمثل صورة مأساوية لانهزام الكبرياء!

وفى نهاية إحدى الليالى بينما كنت عائدًا من المسجد بعد الصلاة، قابلت مبروكًا – وهو عبد عجوز من عبيد سيْدى المهدى – بادرته بالتحية "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"؛ فرد علىَّ" وعليكم السلام يا سيِدى ورحمة الله وبركاته"، بعدها جلست معه، وبدأنا نتحدث عن المساحات الصغيرة المزروعة فى الواحة وأى منها يتولى العناية بها، فتعجب قائلاً "إيه! ليس لدينا طعام كثير، ولكن بمباركة سيِدى المهدى فإن القليل الذى لدينا مثل الكثير الذى فى أى مكان آخر".

وفى هذه الأثناء مرَّ سريعًا شخص ضعيف طويل القامـــة يرتــدى عباءة بيضاء بدا كشبح يعبر الساحة، كان هو آدم بوجميرة، فقلت وأنــا أشير إليه "إن سِيدى آدم يسير هناكِ"، ثم تساءلت "إنه لم يبدُ فى صـــحة جيدة عندما حضر لرؤيتى اليوم، تُرى ماذا أصابه؟" لا، إنهــا ليســت صحته يا سِيدى، إنه شـــخص سيئ الحظ؛ فقد حلَّ به عدم رضا سيدنا - يقصد زعيم السنوسية - فالرجل المسكين يعــانى مـــن ســـوء ولاء أخيه".

وعندها بدأت قصة آدم بوجميرة تتكشف أمامى بواسطة مبروك.

"سيدى بوسيف بوجميرة شقيق سِيدى آدم كان فى أحــد الأيـــام موضع ثقة سِيدى المهدى ووكيله القوى فى "جغبوب"، وعندما كـــان طفلاً صغيرًا، سقط جدار عليه وتحطم فوق رأسه، ولحسن الحظ كان سِيدى السنوسى الكبير - مؤسس الطريقـــة - فى الجوار، فأخذ رأس الطفل وضمها معًا، قائلاً "هذه الرأس سوف تصبح فى أحــد الأيـــام ينبوعًا للعلم والمعرفة، وتحققت نبوءته؛ فقد أرسل والد بوسيف الطفل إلى "جغبوب"، وعندما استقر السنوسى الكبير هناك تركه يدرس فـــى جامع "جغبوب"، حتى أصبح قائدًا للإخوان فى الواحة ومعلمًا كبيـــرًا فى "جغبوب"، كما كان أيضًا شاعرًا لا يُبارى، وبعد وفاة السنوســـى الكبير، أخذه سِـــيدى المهدى وجعله وكيله الوحيد فى"جغبوب" عندما رحل إلى "الكفـــرة"، وائتمنه على كل ممتلكاتـــه وإدارتها، ولكـــن الله سبحانه وتعالى - أراد أن يجعل منه عبرة للإخوان الآخرين ومثالاً لمن يخون ثقة الأسياد، فقد انساق خلف العالم وغواياته، فبدد الكثيـــر من ممتلكات سِيدى المهدى، وباع الكثير من عبيده ووضع ثمنهم فـــى

جيبه الخاص، وكان لابد من أن يُعاقب. فقد كتب خطابًا إلى الحاكم الكبير فى مصر يخبره فيه أن سِيْدى المهدى يوجد بعيدًا فى واحة "الكفرة"، ولا يوجد أحد فى "جغبوب" يدافع عنها، وأن الوقت ملائم لاحتلال المكان، لماذا فعل مثل هذا الأمر غير المتصور، طالما أنه لم يكن هناك أحد يطمع فى احتلال "جغبوب "؟ لا أحد يعلم، إلا أنه ما من شك فى أن بوسيف ظن أنه قد يجنى شيئًا من هذا الأمر.

وفى هذا الوقت كان يقيم فى "جغبوب " سِيْدى محمد العبيد السنوسى ابن أخى سِيْدى المهدى، وسمع أن بوسيف كتب خطابًا ما وسوف يرسله إلى مصر، وأنه رتَّب مع رسول لأن يأخذه عبر الحدود عندما يحل الظلام، وفى التو أرسل محمد العبيد رجلين من الإخوان ليكمنا للرسول ويحضرا الرسالة التى معه، وبعد يومين من ذلك أعيد الرسول، وأطلع محمد العبيد على الرسالة، لكنه لم يقل شيئًا لبوسيف، لكنه ببساطة أمر بإعداد قافلة للتوجه إلى "الكفرة"، وطلب من بوسيف أن يرافقه فى هذه الرحلة، وحاول الأخير الاعتذار بدعوى كبر سنه واعتلال صحته، ولكن محمد العبيد أصر على أن يرافقه؛ لذا لم يكن لديه خيار سوى الذهاب، وخرجا معًا فى رحلة صامتة عبر الصحراء، وعندما وصلت القافلة إلى "الكفرة"، أطلع سيدى محمد العبيد سِيْدى المهدى على الخطاب.

وفى يوم الجمعة الذى تلا وصولهم، وبعد صلاة الظهر فى مسجد التاج "بالكفرة"، جمع سيدى المهدى الإخوان كلهم بمن فيهم بوسيف.

"سِيْدى بوسيف أنت تعرف ما فعلته"، وفى هذه الأثناء خيم الصمت على الجميع؛ فكل فرد فى المسجد شعر بالاستثارة، وأن شيئًا

ما سوف يحدث، " لكننا لن نعاقبك، بل سوف تحيا، وتتلقى المال والطعام طبقًا لتقاليدنا، والله وحده هو الذى سوف يعاقب من يخون ثقتنا، ولكن عليك أن تقرأ بصوت عال لهذا الجمع من الإخوان الخطاب الذى كتبته بيديك".

ولم يكن أمام بوسيف خيار آخر سوى قراءة الخطاب، كان الإخوان صامتين على الرغم من الدهشة من أمر هذا الشخص الذى كان يُعتقد أنه أكثر الرجال الذين يثق بهم سيدى المهدى.

وقال سيدى المهدى ليصرفه " من الآن سوف تُعفى من مشاكل الاهتمام بشئوننا، وعاد بوسيف بعد ذلك إلى منزله مريضًا، وبعد بضعة أيام من ذلك وافته المنية، كما توفى ابناه فى الشهرين التاليين، أما ابنتاه فقد صارتا زوجتين لفردين من عائلة السنوسى، بينما آلت كل ممتلكاته ومكتبته – التى يقال إنها كانت أكبر مكتبة فى نطاق السنوسية – إلى عائلة السنوسى، والرجل الوحيد الذى تبقى من تلك العائلة هو سيِدى آدم أخوه، الذى ورث المنزل الفارغ فى "جغبوب" بالإضافة إلى العار، وبموت آدم فإن الأسرة بالكامل سوف تنقرض.

الفصل السابع

الغذاء والدواء

«خلال توقفنا فى الواحات كنا نحظى بصور عديدة من الحفاوة التى تدل على كرم الضيافة الذى يتحلى به قادة السنوسية فى "جغبوب"».

وهناك أنماط مختلفة من الضيافة بين البدو تتوقف على مكانة كل من المضيف والضيف بالإضافة إلى مناسبة الدعوة؛ فعندما يصل مسافر إلى واحة أو بلدة ما فى الصحراء فإنه يصطحب معه قافلته المزودة بكل احتياجاته المعيشية، وهو لا ينزل فى فندق أو يذهب إلى دار صديق للسكنى، بل يعتمد على أدواته، سواء نصب خيامه وأقام بها مخيمًا، أو شغل إحدى الدور التى توضع تحت تصرفه بواسطة أحد سكان المنطقة، كما حدث لى فى "جغبوب" و"جالو" و"الكفرة"، ثم بعد ذلك تأتى الضيافة والتكريم من أصحاب المقام الرفيع فى المجتمع؛ فقد يوجهون الدعوة للفرد لتناول طعام الغداء أو العشاء فى دورهم، أو يرسلون الطعام للضيف فى داره أومخيمه، والنمط الأول من الضيافة سوف أصفه عندما نصل إلى "جالو"؛ حيث احتفى بى هناك نحو اثنى عشر أو خمسة عشر شخصًا من أصحاب المكانة الرفيعة على التوالى، بينما النمط الثانى هو ما لقيته فى "جغبوب"، وهذان النمطان من الضيافة قد يستمران للفرد من ثلاثة إلى سبعة أيام، بحسب منزلة كل من المضيف والضيف.

فبعد عدة أيام من وصولى إلى "جغبوب" زارنى كل من سِيدى إبراهيم، وسِيدى محيى الدين أصغر أبناء السيد أحمد الوصى الرسمى على السيد إدريس، والذى كان فى ذلك الوقت فى "أنجارا". كان الصبيان فى الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمريهما، وقد حضرا للاحتفاء بى فى دارى البدوى الخاص بقبيلة "باراسا"، يرافقهما ممثل رسمى لمضيفى بالإضافة إلى عبدين محملين بالطعام، وقد وضعا أمامى وليمة لا يقل عدد أطباقها عن عشرين، ودعيت لتناول الطعام، بينما جلس ممثل مضيفى والصبيان فى وقار، دون أن يلمسوا كسرة خبز واحدة، وتذوقت الطعام الواحد تلو الآخر، والذى أظن أنه لا يوجد فرد على وجه الأرض يستطيع تناوله كله ويظل على قيد الحياة، كانت وظيفته كنائب عن مضيفى أن يرى إن كان ينقصنى شىء ليصبح الطعام مرضيًا ومقبولاً، وليرفه عنى بالحديث بينما أتناول الطعام، وهو من قبيلة "باراسا" الذين يعدون من الطبقة الأرستقراطية فى الصحراء، وهم طوال القامة، ممشوقو القوام، وسيمون، فخورون بأنفسهم، يتسمون بشجاعة الأسود وروحها؛ فإذا ما كان فرد الباراسا بمفرده وسط قبيلة أخرى وتعرض للإهانة فإنه لن يتردد فى مقابلة هذه الإهانة أو المعاملة الجافة بتحد فورى، وأن يحارب الجميع بيديه العاريتين إذا ما وصل الأمر إلى هذا الحد.

وتحت حصار عينيه الفطنة وانتظار العبدين اللذين رافقاه، تناولت طعامى.

ولست متأكدًا من أننى أستطيع تذكر كل الأصناف التى وضعت أمامى، إلا أنها كانت تشتمل على: مرق لحم دسم أضيف إليه الزبد

والأرز، طبق ضخم من اللحم المسلوق، وعاء كبير من الأرز عليه قطع صغيرة من اللحم، بيض سُلِق لفترة طويلة ثم قُشِر وُحمِّر بالبيض والبصل والأعشاب، كرشة، قطع لحم مطهوة في صلصة الطماطم، كتل لحم مفروم يكسوها البيض ومقلية في السمن، سجق، خضروات (كوسة، بامية، ملوخية)، كوسة مطهوة بالأرز وقطع اللحم، كسكسى "طبق عربى مميز مصنوع من الدقيق المطهو على البخار"، سلطة، نوع من المهلبية المصنوعة من دقيق الذرة واللبن، فطائر بدوية بالعسل، أرز بلبن، نوع من المعجنات المصنوعة من الدقيق الممزوج بالزبيب واللوز، والأخير يعد طبقًا مصريًّا أكثر من كونه صنفًا من أصناف الصحراء؛ وقد أعده خصيصًا لى العبد الذى طها الطعام لمعرفته أننى مصرى، وقد بذل ما فى وسعه ليسرنى، وقد بلغ ذروته فى هذا الصنف المصرى الشهى، والذى نسميه فى الوطن "سد الحنك" أى الذى يملأ الفم، وهو يملأ روح من يذوقونه بالبهجة أيضًا.

واللحم هو العنصر المهيمن على كل الأطعمة فى المطبخ البدوى، ولحم الضأن والحملان بصفة عامة؛ فالضيافة الحقيقية بلا لحم تعد أمرًا يستحيل تخيله لدى قاطنى الصحراء؛ فاللحم هو حجر الزاوية ليس فقط فى الضيافة البدوية بلِ أيضًا فى الحياة البدوية، فيما عدا عندما يكون المرء على سفر ويتعذر الحصول عليه، ويجب أن يقدم اللحم للضيف، وأن يكون لحمًا أُعد خصيصًا من أجله؛ فعندما يوجه البدوى الدعوة لأحدهم لتناول الطعام معه، فإنه يذبح خروفًا خصيصًا من أجل زائره، وطبقًا للعرف فإنه إما أن يذبح الحيوان ويعد الطعام قبل أن يصل هذا الشخص انطلاقًا من أنه لا مجال للشك

فى أن هذه التجهيزات قد أعدت خصيصًا للضيف، وإما أن يتابع مجاملته إلى النقطة التى يطلب فيها من الضيف الذى سوف يشاركه الطعام - عند وصوله - أن يعيره سكينًا لكى يذبح بها الخروف؛ لأن الضيافة تتطلب أن يقتنع الضيف أن كل هذا التكريم قد أُعدَّ من أجله.

والتنوع الكبير للأصناف فى قائمة الطعام البدوية يعد من الأمور الجوهرية عندما تتم ضيافة صديق أو أحد الغرباء رسميًّا. وكلما زاد تنوع الأطباق المقدمة كانت الضيافة أفضل، وكلما علت مكانة الأفراد الموجهة الدعوة إليهم لحضور الوليمة المعدة كان التكريم أعلى.

ويتركز الترفيه البدوى نفسه على الطعام؛ لأنه فى الصحراء لا يوجد شىء على طريق البهجة فيما عدا تناول الطعام؛ فالأكل فى البيئة البدائية المحيطة بالواحة هو القصة كاملة.

* * *

خلال الشهر الذى أمضيته فى "جغبوب" أثارت انتباهى حادثتان بينتا كيف يتشابه الشرق والغرب فى سلوكهما رغم الاختلاف فيما بينهما. الحادثة الأولى كانت كوميدية بينما الأخرى ضمت المأساة والمرح جنبًا إلى جنب.

كنت قد أعطيت تعليماتى بأنه يجب ألا يرد أى فرد يأتى إلى منزلى طالبًا الدواء، وقد لجأ إلىَّ سِيْدى زويلا، وهو أحد إخوان السنوسية، لأعينه على السعال، فأعطيته زجاجة شراب مضاد للسعال، وبعد يومين ظهر مرة أخرى قائلاً إن الجرعات القليلة التى أخذها فى المرة الأولى جعلته أفضل بكثير مما كان عليه حتى إنه

أنهى الزجاجة سريعًا، وسأل إن كان من الممكن أن يحصل على زجاجة أخرى، وكان عبد الله حاضرًا هذا اللقاء، فوجدته بعد رحيل الرجل يتذمر بتعليق ساخر "نعم، وجده حلوًا، ولذيذ المذاق، فأخذه كشراب وليس كدواء". ومن المحتمل أن يكون تعقيبه صحيحًا؛ ففي أثناء السنوات التي أمضيتها في " إنجلترا " سمعت أن كثيرًا من الأطفال كان سعالهم يستمر بقوة طالما كان الدواء حلو المذاق ولذيذًا.

وكان أكثر ما يؤرقني هو اعتياد رجالي التفاخر بالأشياء التي يمكن فعلها بما معنا من مؤن؛ فقد جاء إليَّ البشكاري طالبًا مني شيئًا يعالج به إحدى إمائه من التوهان، بعد أن قام أحمد بجر رجله نحوي بدعوى أن معي دواء لكل شيء، ولم أستطع وقتها سوى أن أجيبه بأنه من واقع خبرتي في مناطق مختلفة من العالم فإن علاج خادم من النسيان أشبه بصعوبة منع المياه من التسرب في الرمال.

أما الحادثة الثانية فقد ربطت وقائعها بين رجلين مختلفين اختلاف الليل والنهار؛ ففي أحد الأيام حضر إلى منزلي عبد سيدي حسين " الوكيل"، وقد أرسله سيده ليستشيرني في أمر لم يجرؤ على مكاشفتي به شخصيًّا؛ فتقاليد البدو تحرم على الرجل التحدث مع آخر عن زوجاته أو حتى عن أية امرأة أخرى غير معروفة لكليهما، ولكن العبد يستطيع أن يقول على لسانه ما قد يحرم عليه وقاره أن يتحدث فيه شخصيًّا، كانت رسالة العبد أن زوجة الوكيل لا تلد أطفالاً؛ وهو الأمر الذي كان يخيب أمل الزوج بشدة، وبلا ريب أن سيده ظن أن معي علاجًا في صندوق دوائي المليء بعجائب علوم الغرب، يصلح لعلاج حالة تلك المرأة المسكينة التي لا تلد.

استرجعت ذاكرتى للتو ذكرى أيامى الأخيرة فى أوكسفورد؛ فبينما كنت أستعد لرحلة العودة للوطن، جاءنى خادم الكلية العجوز وكان زوجًا صالحًا، لكنه كان خجولاً للغاية، وبعد أن بذل جهدًا جهيدًا فى استجماع شجاعته عرض علىَّ طلبه قائلاً " إذا كان من الممكن أن تأذن لى يا سَيْدى أن أطلب منك معروفًا.. زوجتى وأنا ليس لدينا أطفال، وعجز الأطباء عن مساعدتنا، ولم يعد لديهم شىء ليقترحوه علينا، والآن يا سَيْدى تستعد للعودة إلى وطنك.. وقد سمعت أن لديكم هناك تعويذة رائعة تستطيع فعل كل الأشياء.. ورغم أننى لست من الأفراد الذين يؤمنون بالسحر.. لكن هذه حالة خاصة جدًا.. فهل تظن أنه بإمكانك أن تجد لى هذه التعويذة وترسلها إلىَّ؟.. هذا إذا لم يكن طلبى فيه الكثير، يا سَيْدى؟ "

وإزاء تلهفه، والشجاعة التى بذلها ليحطم أسوار خجله ليفاتحنى فى هذا الأمر، لم أستطع سوى أن أجيبه بوقار وإن لم يخلُ من تعاطف بأننى سوف أرى ما أستطيعه فى هذا الأمر، ولكن الحاجة لم تقض فقد توفى الرجل - مذكورًا بالخير من كل رجال باليول قديمهم وحديثهم - قبل أن أعود مرة أخرى إلى أوكسفورد.

أما فى حالة سِيْدى حسين فلم يكن من الممكن تجاهل هذا الأمر؛ فالعبد كان ينتظر الرد، ولا شك أن سَيده كان ينتظره، فكرت على عجل، وأعطيت العبد نصف زجاجة مليئة بأقراص الحبوب المجففة الممزوجة باللبن مع تعليمات صارمة بأنه على السيدة أن تأخذ ثلاثة أقراص منها فى اليوم الواحد حتى نفاد الكمية.

وبعد رحيل العبد تأملت ذلك التوازى المذهل بين هاتين الحالتين؛ فهناك فى أوكسفورد بعد أن استنفد الغرب كل ما يقدمه العلم فى

مواجهة هذه الرغبة الكونية فى الإنجاب حاول أن يتجه صوب المصادر الروحية الموجود فى الشرق، بينما هنا فى "جغبوب" - الشرق - بعدما وجد الشرق أن سعيه الروحى غير مُجد استدار صوب علم الغرب باحثًا عن العون؛ إذًا - شرقًا وغربًا - كلنا متشابهون فى إيماننا بقوة المعجزات الكامنة فى المجهول!

ورغم كل هذا فإن الحياة الهادئة والسارة، وحفاوة الضيافة، لم تسفر عن العثور على إبل، رغم أننى أرسلت رسلاً إلى المناطق المحيطة لطلب هذه الدواب، جاعلاً عرضى المالى لاستئجارها أعلى وأعلى مع مرور الوقت، لكننى لم أستطع الحصول على إجابة مرضية. ناشدت سيِدى حسين أن يساعدنى فى هذا الشأن، إلا أنه أعلن صراحة أنه لا حيلة له، أرسلت رسولاً ليعود إلى " سيوة " ببرقية إلى السيد إدريس فى " مصر " أخبره فيها بمأزقى، وأطلب مساعدته، وأسرع مما كنت أتوقع جاء الرد مباشرةً إلى سيدى حسين متضمنًا أن يمنحنى كل المساعدة التى فى استطاعته، ورغم هذا بدا الوكيل عاجزًا عن مساعدتى.

وفى النهاية عندما بدا الأمل يتلاشى، وصلت إلى الواحة قافلة من قوافل الزوىّ قادمة من "جالو" فى طريقها إلى "سيوة" من أجل الحصول على التمر. وكنت أريد هذه الإبل، ولكن مالكيها بالطبع لم يكن لديهم أية رغبة فى العودة من طريقهم دون الحصول على التمر الذى حضروا من أجله، ومع ذلك فقد وجدت طريقة لإقناعهم؛ فقد اتصلت بهم عن طريق سيِدى حسين بما له من نفوذ، كما أن تواتر الأخبار عن صدور أمر من الحكومة المصرية بتحريم دخول أفراد

قبيلة زوىّ الحدود المصرية حتى يسووا الخلاف بينهم وبين أفراد قبيلة (أولاد على)، الذين يعيشون فى مصر، وعلى عداء معهم، وطالما أنهم لن يستطيعوا الذهاب إلى "سيوة" التى تقع داخل الحدود المصرية، دون الخوف من العقاب؛ لذا كان لزامًا عليهم المكوث فى "جغبوب" دون أى شىء يفعلونه سوى العودة من الطريق الذى جاءوا منه، والذى كان على وجه الدقة هو الطريق الذى أبغى أن يذهبوا إليه، ومن ثم أصبحت التركيبة التى أثرت فيهم هى أمر الحكومة المصرية، ورسالة السيد إدريس والحث الذى قام به سيدى حسين، والوعد بمبلغ باهظ نظير استئجار إبلهم، والذين نجحوا فى انتزاعه منى نظرًا لحاجتى الشديدة لإبلهم، كل هذا عمل فى النهاية على موافقتهم على اصطحابى إلى "جالو".

وأخيرًا، وصلت إلى نهاية الأيام الهادئة من التأمل والتفكير تحت ظلال القبة البيضاء، والأيام القلقة من النضال للبحث عن معنى لإكمال رحلتى. وفى ٢٢ فبراير، أى بعد نحو ثلاثة وأربعين يومًا من دخولى "جغبوب" أدرت وجهى نحو الغرب وخرجت صوب "جالو".

الفصل الثامن

الطريق إلى جالو والعواصف الرملية(٢٥)

«غادرتُ "جغبوب" وفقًا لأفضل التقاليد؛ فقد كان أحد أيام العواصف الرملية، والبدو يقولون إن من حسن الحظ أن تبدأ رحلتك فى عاصفة رملية، ورغم أننى لست واثقًا من أن هذا الأمر يعد من المميزات على أى نحو، فإنه أشبه بقول الإيطاليين "من حسن الحظ أن ترحل والشمس ساطعة"، أو بقول الإسكتلنديين "عندما تمطر"! ورغم أن العواصف الرملية شىء مألوف فى الصحراء، فإنه من واقع الخبرة لا يوجد فيها شىء مألوف على الإطلاق».

فالنهار يبزغ والسماء صافية، ولا توجد أية بارقة لريح أو عاصفة، والصحراء تبتسم عند رحيلنا، والقافلة تتقدم بابتهاج. وقبل أن تمضى فترة طويلة، تهبُّ نسمة منعشة من أحد الاتجاهات غير المعلومة، ثم ترحل هامسة فوق الرمال، وبالكاد تُدرَك قوتها، ورغم هذا يظل هناك شىء غير سار فى هبوبها، ثم ينظر المرء لأسفل عند قدميه، فيجد أن سطح الصحراء قد تغير على نحو غريب، كما لو أنه قد وضع تحته أنابيب بخار ذات آلاف الفوهات التى تنبعث منها

(٢٥) فى هذا الجزء من الرحلة يعبر المؤلف الحدود المصرية الليبية، ويتوجه إلى واحة "جالو" التى تقع داخل الحدود الليبية. "المترجمان"

نفثات ضئيلة من البخار، تجبر الرمال على القفز في تدفقات دوامية صغيرة، وبوصة تلو الأخرى يزداد الاضطراب كلما زادت الرياح من قوتها، حتى يبدو سطح الصحراء بأثره كأنه نهض امتثالاً لقوة أسفله ترفعه لأعلى؛ فالحصى الكبير يرتطم بالسيقان والركب والأفخاذ، بينما رذاذ حبات الرمال المتطايرة يتسلق الجسم حتى يرتطم بالوجه ويتجاوز الرأس. تظلم السماء، ويختفي كل شيء عن الرؤيا ماعدا أقرب الإبل إليك، يمتلئ الكون بالألم، والرجم، والوخز، واللدغ، كأنها حشود من العذاب. وخير للمسافر وقتها أن تهب الرياح من خلفه؛ فعذاب الرمال العاتية في مواجهة وجهه كان مؤلمًا للغاية. ونادرًا ما يستطيع المرء أن يبقى عينيه مفتوحتين رغم أنه لا يجرؤ على غلقهما؛ لأنه أسوأ من وخز ذرات الرمال، هو أن يضل المرء طريقه.

من حسن حظنا أن الرياح كانت تهب في شكل نوبات عاصفة، متباعدة في مجموعات تتكون من ثلاث أو أربع، مع بضع ثوانٍ من فترات الهدوء المباركة بعد كل مجموعة.

في أثناء هجوم العاصفة، يدير المرء وجهه بعيدًا، بعد أن يلف أحد أطراف كوفيته أمامه كستار، وبالكاد يحبس أنفاسه. وعندما يرجع الهدوء فإنه يعيد الكُوفيَّة لمِوضعها، ويلقى نظرة سريعة حوله ليرى ما إذا كان قد حافظ على اتجاهه، ثم يستعد بسرعة كبيرة للهجوم التالي.

إن الأمر أشبه بوحش ضخم ذي حجم خرافي وقوة غير أرضية، ينفخ هذه العواصف المؤلمة من الرمال على رءوس المسافرين.

وصوتها يشبه الصوت الناجم عن تحريك مارد جبار لأصابعه القاسية في إيقاع منتظم فوق حرير مشدود بإحكام.

عندما تهب العاصفة، فلا يوجد شيء تفعله سوى أن تقاومها بعناد. بينما تجمع الرمال المندفعة حول أي جسم ثابت، سواء كان عمودًا أو جملاً أو رجلاً، وتتراكم بعضها فوق بعض حتى لا تتبقى سوى كومة ناعمة مستديرة. وإذا كان العذاب هو أن تتقدم فالموت ذاته هو أن تتوقف.

ومن المرجح أن تصبح العاصفة الرملية في أوج قوتها بعد خمس أو ست ساعات، وفي أثناء تواصلها، لا تستطيع القافلة سوى التقدم، في يقظة بالغة، حتى لا تخطئ الاتجاه. وعندما تصبح العاصفة في عنفوانها نادرًا ما يُحتاج لدفع الإبل للتحرك؛ فغريزتها تخبرها أن الموت في التوقف – فهي غريزيًّا حكيمة – وهو ما يظهره حقيقة أنه بمجرد أن تمطر السماء، فإنها تشعر أنه لم يعد هناك خطر يحدق بها، فتقف على الفور في موضعها وربما تبرك.

تدفع العاصفة الرمال إلى كل شيء يمتلكه المرء؛ فهي تملأ الملابس والطعام والحقائب والمعدات وكل شيء. كما أنها تفتش عن كل نقطة ضعيفة في درع المرء، حتى يشعر المرء بها، يتنفسها، يأكلها، يشربها... يكرهها، بل إن الذرات-الدقيقة تخترق مسام الجلد، وتنفذ خلالها لتسبب آلامًا مزعجة.

هناك قواعد ثابتة تتعلق بسلوك العواصف الرملية، يعرفها كل بدوي، وهو مستعد تمامًا لأن يشي بها للغريب عن الصحراء؛ فالرياح التي تسبب العاصفة سوف تنشط مع بداية اليوم وتهدأ مع ظهور

الشمس، ولن تكون هناك عواصف رملية فى الليالى المقمرة، كما أنها لا تتواصل مطلقًا من بعد الظهر إلى المساء. وهى قواعـد ممتـازة، لكن فى أثناء رحلتنا إلى "جالو" تحطمت كلهـا؛ فقـد كانـت هنـاك عواصف والقمر ساطع، وعواصف أخـرى عنـدما كانـت الليـالى مظلمة، وكانت هناك عواصف تبدأ قبل الفجر، وعواصف لا تتوقـف إلا بعد فترة طويلة من غروب الشمس، كانت لدينا عواصف لا تصل فقط الظهر والمساء، بل تمحو أيضًا الخطوط الفاصلة بينهما، كانـت لدينـا عواصف صغيرة وعواصف كبيـرة، بل أسوأ ما رأيته حتـى الآن: عواصف قصيرة وعواصف طويلة، عواصـف فـى النهـار وعواصف فى الليل. ولكن حتى تحت هذا الوابل اللامتناهى، لم أفقـد أبدًا الافتتان بسحر الصحراء؛ ففى بعض الأمسيات بعد أن نكون قـد تصارعنا – لمدة ساعات – بعناد مع أسـراب الرمـال المتطـايرة، تتوقف الرياح تمامًا كما لو كان هناك سيد أشار إليها بإصبعه. بعدئـذ ولمدة ساعة أو ما يقرب منها يهبط الغبار الدقيق ببطء مثـل سـقوط الضباب. وبعدئذ قد يبزغ القمر وتحت سحر فيض ضوئه الشـاحب، ترتدى الصحراء شخصية جديدة، هل كانت هنـاك عاصـفة؟ مـن يستطيع التذكر؟ هل تستطيع هذه الامتدادات المسالمة من الجمـال أن تكون قاسية؟ من يستطيع تصديق ذلك؟

لم تكن الرحلة إلى" جالو" رحلة سهلة؛ فالعواصف الرملية كانت دائمة الإزعاج، وخطرة فى بعض الأحيان. وكان الجزء الأخير مـن الطريق يمتد عبر نطاق من الكثبان الرملية، وكان علـى القافلـة أن تسير وسطها وتنعطف حولها. ولكى يحافظ المرء على تقدمه المباشر

صوب النقطة الصحيحة وفق البوصلة، على الرغم من هـذا التلـوى والتثنى، فإن الأمر كان يتطلب مهارة ويقظة طوال الوقت.

ورغم قسوة الرمال المهاجمة، فقد كانت هناك ساعات من البهجة فى هذه الرحلة لا يستطيع المرء نسيانها؛ فـذكرى الليـالى الجميلـة عندما كنا نجتمع سويًا حول نيران الحطب، من أجل شرب الشاى بعد العشاء، وتدور القصص بيننا، ويبدأ مُجيب العجوزـ مع ضوء النـار المتراقصة على شعر لحيته الرمادية الشعثاء – فى رواية أجزاء مـن تاريخ "الزوىّ"، وقت أن كان جده معتادًا على الذهاب إلى "الـواداى" لمقاتلة قبائل السود، والعودة بالإبل والعبيد؛ وصالح برواياتـه عـن الأرباح الطائلة التى حققها ابن عمه فى رحلته الأخيرة إلى "الواداى"، عندما لم يكن عليه أن يقاتل أحدًا، بل عاد فقط بجلد، وريـش نعـام، وعاج، وباعها فى "برقة"، وهى الاسم العربى "لسيريناكا".

ثم أستدير إلى علىّ، وأطلب منه أن ينشد إحدى أغانى الحب؛ فقد كان يعد من الشعراء، فيتطلع علىّ إلى عمه من أجل الإذن لـه بـأن يمتثل لرغبتى، فيجد العجوز مشغولاً بمسبحته، ومتظاهرًا بأنه غافـل عما يحدث، فلا يليق بكرامة البدوى ذى الشعر الرمـادى أن يجلـس ويصغى لأغانى الحب من جيل أصغر منه، ولكن احترامه لى منعـه من أن يغادر الجمع.

وفى النهاية تمتم وهو يعبث بلحيته " غنِّ للبيه، مادام يحب سماع أغانينا البدوية"، ارتفع صوت علىّ العذب فى هواء المسـاء، بينمـا انسابت حبات مسبحة مجيب العجوز بين أصابعه بتأنٍ منـتظم يميـز الرجل الذى لا يبالى بشىء سوى نسكه.

وأنشد على:

أريد أن أغنى

ويلتف كل الرجال ليسمعونى

إنها "خضرة"

التى تنتزع الأغانى من روحى

وجناتها حمراء مثل الدماء المسفوكة

نحيفة وملفوفة مثل العود

ليست طفلة وليست عجوزًا

لن تعرفها

لكننى لو قابلتها فى الطريق

فسوف أتباهى بها

كما أتباهى بنصل رمحى

وبينما كان صوته يتلاشى، بدا كأنه خيالى أو أن حبات المسبحة بين أصابع مجيب تتحرك أسرع قليلاً؟! وبعد فترة من التوقف عاد علىّ للغناء مرة ثانية:

أنت نرجسة رشيقة فى بستان الكبرياء

من فمك يتدفق العسل

فوق أسنان من العاج

خصرك النحيل

مثل الأسد وهو يعدو خلف الفريسة.

أتكونين لى؟

أم تفكرين فى غيرى؟

قوامك ملفوف مثل سوطٍ

النوم على صدرك

هو الجنة ذاتها،

الحب لا يمكن إخفاؤه

ولكن القدر فى يد الله

كان هناك صمت فى المخيم باستثناء طقطقة النيران التى بدأت تخبو واصطكاك حبات المسبحة، ولكن إيقاع الحبات تغير مغزاه الآن؛ فمع اقتراب نهاية أغنية علىّ توقفت أصابع مجيب تمامًا لبرهة ثم أسرعت بعد ذلك بعصبية كما لو أنها تنكر توقفها. كان العجوز عاشقًا كبيرًا فى زمنه، وأغنية الصبى أهاجت دماءه بالذكريات، وربما كان من حسن حظ الآخرين الذين يلتفون حول هذه النار أنه لم يكن معهم مسبحة تصطك حباتها وتفضحهم.

بعد بئر "بوسلامة" التى تبعد مسيرة يوم من "جغبوب"، سرنا عبر إقليم كانت توجد به بقايا غابة متحجرة، وفى الطريق مررنا بكتلة حجرية ضخمة منتصبة مثل إشارات التوجيه على طول الطريق، والتى كانت قبل عصور أشجارًا يانعة، أما الآن فقد حولتها قوى الطبيعة من مملكة النبات إلى مملكة المعادن، وكانت تتناثر حولها بعض القطع الأصغر من الخشب المتحجر، ولكن معظمها كان يختفى تحت الرمال، بينما ظلت قطع الأشجار الأكبر مرئية بسبب تقاليد الصحراء التى تفرض على أى فرد يمر بمثل هذه العلامة الملقاة أن يعيدها منتصبة مرة أخرى، كما أنه من التقاليد الجيدة

لحديثى السفر بالقافلة أن يشيدوا بعض الأكوام الصغيرة من الأحجار فى الفواصل كإشارة إلى من سيمرون بعد ذلك بأن الطريق يمتد من هنا. وفى بعض الأحيان قد يمر المرء بشجرة أو شجيرة عُلِّقت عليها قصاصات أو قطع من القماش، والمرء هنا ملزم بأن يضيف إليها خيطًا أو بقايا من ملابسه. فهذا التراكم يؤخذ كرموز مؤكدة على أن الشجرة علم لمن سوف يأتون بعد ذلك، كما أنها تمنح التشجيع لمن يمرون بها من خلال فكرة أن آخرين قد مروا من هذا الطريق من قبل. ففى هذا القفر المميت ومع رتابة الصحراء يعد أى دليل على مرور أحد فى هذه المنطقة حادثة سعيدة. فعلامة روث الإبل، أو بقايا عظامها المصقولة،(٢٦) أو حتى الهياكل العظمية للمسافرين قليلى الحظ، كلها أمور تُسَرُّ العين لرؤيتها؛ لأنها على الأقل تبين أن قافلة ما قد مرت من هذا الطريق.

بعد أن غادرنا "جغبوب" بفترة وجيزة مررنا "بعلم" من نوع آخر، وهو يتكون من صف من الروابى الرملية الصغيرة التى تشبه روابى النمل المتقاطعة على اتجاه الطريق. وتسمى "علم بوزافار"، وهى رمز وإشارة لأحد تقاليد البدو السارة. ففى أى رحلة على القادم الجديد لأى طريق أن يذبح خروفًا لأفراد القافلة الذين مروا قبل ذلك من هذا الطريق، وتسمى هذه العادة "بوزافار". وإذا لم يتنبه المبتدئون

---

(٢٦) تعد هذه الظاهرة أيضًا من صور فعل الرياح فى الصحراء؛ إذ تقوم بنحت الأجسام الموجودة فى الصحراء وتغير أشكالها، ويساعدها فى ذلك ما تحمله من رمال، ويمكن ملاحظة ذلك التأثير بوضوح فى أعمدة التليفونات الخشبية التى توجد فى الصحراء، التى يتآكل سطحها خاصة الأجزاء السفلى منها القريبة من سطح الأرض." المترجمان "

من غير إبطاء لمسئوليتهم فإن المحنكون يُلمِّحون لهم، حيث يتقدم فرد أو اثنان منهم القافلة، ويُشيِّد صفًا من أكوام الرمال يتقاطع مع الطريق. وعندما تصل القافلة إلى هذه العلم المحدد يصيحون بشكل إيحائى "بوزافار، بوزافار"، ليؤكدوا التلميح، فيُذبح الخروف، وتُقام مراسم الوليمة.

وفى قافلتنا كان هناك العديد ممن لم يطأوا هذا الطريق من قبل - ومن ضمنهم أنا بالطبع - لذا اشتريت خروفًا قبل أن نغادر "جغبوب" حتى نستطيع نحن حديثو العهد بهذا الطريق أن نؤدى مراسم "بوزافار" إلى أولئك المتمرسين على هذا الطريق؛ لذا فلم يكن علم بوزافار الذى مررنا به من صنعنا بل خلَّفته إحدى القوافل الأخرى.

كنا سعداء الحظ أن نجد عشبًا لرعى إبلنا كل يوم تقريبًا حتى وصلنا إلى "جالو"، والحقيقة أنه فى بعض الأحيان كان علينا أن نحيد عن طريقنا لنصل إلى الرقع الخضراء التى توجد بين الكثبان الرملية، لكننا كنا نعثر عليها دائمًا.

وهناك ثلاثة أنواع من النباتات تنمو على حدة، وفى بقع نادرة فى هذا الجزء من الصحراء: "**البلبال**" وهى عبارة عن شجيرة رمادية مائلة الخضرة، لا تعد أوراقها طعامًا جيدًا للإبل، وهى تنمو فقط بالقرب من آبار المياه، ولا تلمسها الإبل فى العادة إلا إذا كانت جائعة للغاية، وعندها فإن الحذر المستمر أمر ضرورى حتى يحمى المرء نفسه من إزعاج أن يصبح لديه جمل مريض بدلاً من جمل جائع.

أما "**الدمران**"، فهى شجيرة تشبه النوع الأول، وإن كانت أوراقها ذات لون أدكن وسيقانها بنية اللون، وهى تصبح وقودًا جيدًا عندما تجف، وتعد طعامًا ممتازًا للإبل حيث تأكلها بنهم شديد.

بينما النوع الثالث من النباتات هو "**النيشا**"، حيث ينمو على شكل باقات من الأوراق الرفيعة التى ترتفع لمنسوب القدم، وهو أيضًا صالح للرعى الجيد، رغم أن وجوده يقتصر على أشهر الشتاء، وعلى كل حال فعندما يسقط المطر الضئيل فى هذه الصحراء، تصبح كل هذه النباتات متاحة؛ لذا لا يفكر أى بدوى فى القيام برحلة بين "جالو" و"جغبوب" فى الصيف، دون أن يصطحب معه مؤنًا من العلف من أجل إبله.

فى اليوم العاشر من مغادرتنا "جغبوب"، وصلنا إلى بئر "هزيلا"، أول مصدر للماء بعد "بوسلامة"، الذى كان يميزه وجود بعض الأشجار والشجيرات الصغيرة الخضراء، وبعد أن جرفنا بأيدينا الرمال المتراكمة فوقه بفعل الرياح، بدا الماء جيدًا، ولكن مذاقه بعد ذلك لم يكن مستساغًا.

وبعد يومين من ذلك، وجدنا أنفسنا عند أطراف واحة "جالو"، وقبل أن نستطيع الدخول، أسرع رسول للقائنا، ومعه خطاب من سيدى محمد الزروالى – من الإخوان، الذى كلفه السيد إدريس بمرافقتنا إلى "الكفرة" – يطلب منا أن نخيم فى الخارج حتى يستطيعوا الاستعداد لاستقبالنا على نحو لائق، وكان السيد إدريس قبل أن يغادر "جالو" منذ شهرين، قد أخبرهم بأننى على الطريق، ووجه بأننى يجب أن ألقى كل حفاوة ممكنة، وكانوا قد توقعوا وصولنا قبل ذلك بكثير، وعندما لم أحضر ظنوا أننى قد عدلت عن خططى.

تقهقرنا مسافة قليلة من البلدة وخيمنا هناك، وبعد بضع ساعات من ذلك جاءت مجموعة رائعة تتألف من عشرين أو أكثر من البدو اصطفوا فى صف طويل أمام قرية " ليبا" وهى إحدى قريتين تتألف منهما " جالو". وكنا نرتدى أنظف ملابسنا وأكثرها رسمية، وزودت رجالى بالذخيرة من أجل تحية المجاملة. تقدمنا للأمام، واقتربت من سيدى سنوسى قادر بوح القائم مقام أو حاكم المنطقة، وصافحته هو وأعضاء مجلس "جالو" والمواطنين البارزين فى الواحة، وألقى القائم مقام خطبة رحب فيها بنا، ورددت عليها، ثم أطلق رجالى بنادقهم كتحية، ومررنا بالبلدة.

ذهبت إلى الدار التى وضعت تحت تصرفى، وتلقيت زيارة رسمية من مجلس " جالو"، ومن سيدى الفضل عم السيد إدريس.

وبعد العشاء مع سنوسى قادر بوح، أمضيت المساء فى مناقشة خطط الرحلة مع سيدى زروالى.

الفصل التاسع

فى واحة جالو

«"جالو" واحدة من أهم واحات "برقة"، وهى تقع على بعد ٢٤٠ كيلومترًا من ساحل البحر الأبيض المتوسط، ونحو ٦٠٠ كيلومتر عن "الكفرة" التى تقع إلى الجنوب منها مباشرة. ولا تعد الواحة أكبر منتج للتمر فى الإقليم كله فحسب، بل إنها أيضًا تمثل معبرًا تجاريًّا لمنتجات "الواداى" و"دارفور" التى ترد عبر "الكفرة"؛ فكل شىء يرد من العالم الخارجى إلى "الكفرة" لابد من أن يمر عبر "جالو"».

وكما قال البشارى الزعيم البارز فى قبيلة المجابرة (إن الصحراء بحر و"جالو" هى ميناؤه).

وقد كانت فى أوج أهميتها منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا مضت، عندما اتخذ المهدى من "الكفرة" عاصمة للسنوسية؛ ففى هذه الأيام كانت القوافل التى تتكون من مائتين أو ثلاثمائة جمل وناقة تروح وتغدو بين "جالو" والجنوب كل أسبوع، ولكن عندما كنت هناك كانت الحركة قد تقلصت لما هو أقل من عُشر ذلك الرقم، وإن كانت تنتعش بعض الشىء فى الصيف نتيجة للطلب على محصول التمر.

وهناك قريتان فى "جالو" يفصل بينهما ميل واحد هما "العرق" و"اللبة"، وبين هاتين القريتين وحولهما تتناثر أشجار النخيل التى يقترب عددها من مائة ألف نخلة.

وعلى بعد اثنى عشر ميلاً إلى الغرب تقع " أوجلة"، وهى واحة قديمة ذكرها هيرودوت بأنها تشتهر بتمرها، ويوجد فى "أوجلة" ضريح عبد الله الصحابى، الذى يُقال إنه كان كاتب الرسول ﷺ، وهذا الأمر من الصعب البت فيه؛ لأنه على الأقل لم يكن لرسول الله ﷺ كاتبًا يُدعى عبد الله الصحابى، وبالطبع لم يأتِ عبد الله إلى شمال أفريقيا، وضريح الرجل الذى يحمل هذا الاسم، والذى يوجد فى "أوجلة"؛ تستند قصته إلى أدلة واهية. فالقصة تحكى أن السنوسى الكبير وجد جسد الصحابى مدفونًا فى بقعة نائية، وفى التو ظهرت له روح صاحب الجسد فى رؤية، وحدثته قائله " نقِّب عن جسدى، وضعه فوق جمل، وسر، وحيثما يتوقف الجمل سوف تُشيَّد ضريحى". أطاع السنوسى الكبير الأمر، وسار حتى وصل إلى "أوجلة"، وهناك توقف الجمل تمامًا وأبَى أن يتحرك، وفى هذا الموضع شُيِّد الضريح.

ويُؤمن مؤسس الطريقة السنوسية، وكل أفراد أسرة السنوسى، وحتى أتباعه من الإخوان البارزين، بامتلاكهم قدرة خفية، وبصيرة نافذة، وينسب للسيد المهدى على وجه الخصوص أنه يملك قوة خفية قوية يسميها البدو" كرامات"، وقد روى لى أحد الإخوان فى "جغبوب" عن السيد المهدى القصة التالية: إن أحد البدو الأميين جاء إليه عازمًا الدراسة على يديه فى "جغبوب"، وفجأة تنبه الرجل إلى أنه موسم حرث الأرض وبذر البذور، وأنه ليس لديه أحد يرعى أرضه ويزرعها؛ لذا رأى أنه من الأفضل أن يرحل إلى ما بعد موسم الحصاد، ثم بعد ذلك يعود لدراسته، وذهب إلى السيد المهدى ليودعه، وعندما دخل الحجرة – كما تقضى التقاليد – جلس منتظرًا الإذن له

بالحديث. ولبضع دقائق بدا السيد المهدى كما لو كان يتجاهله، وفجأة شعر الرجل بالنعاس وغفا لدقيقة أو دقيقتين، ثم أيقظه صوت السيد المهدى الحنون وهو يقول له " الآن استرحت، وعلمت أن هذا الأمر رُتِّب من من أجلك". وفى هَذا الوقت القصير، رأى الرجل فى الحلم أن أخاه يحرث أرضه، ويبذر الشعير فيها، وأضاف المهدى قائلاً " الآن سوف تكون ضيفنا، استذكر، وأدعو أن يرشدك الله إلى الطريق القويم، كل شىء سوف يعد كما رأيته، وليس لديك سبب للقلق، فالله - سبحانه وتعالى - رحيم، وهو يرعانا جميعًا". ظل الرجل فى "جغبوب"، وبعد فترة رجع إلى دياره فى موعد الحصاد، وعند عودته إلى "جغبوب" أخبر أحد الإخوان أن محصوله لم يزرع على النحو الذى رآه فى الحلم فحسب، بل إن مشهد المكان ووقت الحلم أكدتهما الوقائع.

حادثة أخرى رواها لى قائم مقام "جالو"؛ فقد كان مسافرًا مع جماعة من "بنغازى" لزيارة السيد المهدى فى "جغبوب"، وضلوا طريقهم للبئر، وأصبحوا فى موقف عسير للغاية، وفى المساء التفت إليه أحد الرجال - وكان أقل المتحمسين للرحلة - قائلاً " الآن أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل الرائع السيد المهدى، هلاَّ طلبت منه أن يرسل لنا بعض الماء، إذا كان وليًّا كما تدَّعى؟!"، وفى الليلة ذاتها رأى السيد المهدى القصة - وهو فى "جغبوب" - كما حدثت تمامًا، فأمر اثنين من عبيده أن يأخذا خمس إبل محملة بالماء والطعام، ويرحلا إلى الخلاء وأشار إلى الاتجاه الذى يجب عليهما أن يسلكاه، وأضاف أنه يجب عليهما ألا يتوقفا خلال الطريق حتى يقابلا قافلة، فأطاعا الأمر وسارا حتى عثرا على القافلة فى حالة سيئة وأنقذاها.

وهناك بعض الإخوان كبار السن الذين لا يزالون على قيد الحياة - بل إن بعضهم من عائلة السنوسى ذاتها - يتجنبون غضبه؛ لأنهم يخشون قوته الخفية. وأحد هؤلاء ممن يعيشون فى "الكفرة" روى لى القصة التالية:

ففى أحد الأيام أحضر بدوى بعض الأغنام لتشرب من بئر قريبة، وشرد بعضها إلى قطعة أرض ملحقة بالزاوية وأكلوا الشعير المزروع بها، فحذر أحد الإخوان البدوى لكى يمنع أغنامه من فعل هذا الأمر، وتظاهر الرجل بالاهتمام، لكنه كان عازمًا بالفعل ألا يقتصر الأمر على هذه الأغنام فقط بل أن يُحضر القطيع كله ليرعى على المحصول، وعندما خرج رجل السنوسية مرة ثانية ورأى القطيع بأكمله يرعى على شعيره، صاح قائلاً " ربنا يلعن الأغنام التى تأكل محصول الزوايا"،(٢٧) وتذهب القصة إلى أنه لم تخرج شاه واحدة على قيد الحياة من حديقة الزاوية.

لهذا يخشى البدو عائلة السنوسى ليس فقط بسبب سلطتهم الدنيوية، بل أيضًا للسطوة الروحية التى تُنسب إليهم؛ فالبدوى الذى يُلعن من أحد أفراد عائلة السنوسى يحيا طوال الوقت خائفًا من أن شيئًا فظيعًا سوف يحدث له، بل إن أصدقاءه وأقاربه يحاولون تجنبه مخافة أن تتسبب اللعنة التى أصابته فى أذى لهم.

وهناك حالة شهيرة لأحد الشيوخ الأجلاء من رجال السيد المهدى يرقد الآن فى "الكفرة" نصف مشلول، وقد ذهبتُ لرؤيته عندما وصلت

(٢٧) تحرم السنوسية على البدو رعى حيواناتهم داخل الحرم المحيط بالزوايا. "المترجمان"

إلى الواحة، وكان سعيدًا للغاية بزيارتى على الرغم من أنه لم يكـن بقوى على تحريك جسـده. وفى زيارتى الثانية أصبح أكثر حميميـة وبين الشك واليقين - سأل عما إذا كـان معـى أى دواء لعلته، ترددت؛ إذ كنت أخشى أن يفقد الرجل الأمل تمامًا، وقد رأى ذلك فى عينى، ودون حتى أن يمنحنى فرصة أن أجيب عليه قال: " لا، هـذا مكتوب، لقد كان خطئى منذ البداية، فقد أرادنـى السـيد المهـدى أن أرحل إلى الشمال، ولم أقوَ على عدم طاعته، لكننى حاولـت تجنـب الرحلة وذهبت لما يقرب من "الحوارى"، وهناك كتبـت لـه مـدعيًا المرض، وجاء الرد مع رسول بأننى إذا كنت مريضًا، فبكـل تأكيـد يجب علىَّ أن أتخلف عن الرحلة، وفى اليوم التالى أصـبتُ بالشـلل، وأعادونى إلى "الكفرة" محمولاً، وأنا هنا منذ ذلك الوقت، وكان ذلـك منذ خمسة وعشرين عامًا.

كما أخبرنى قائم مقام "جالو" بقصة أخرى عندما كنا نناقش أمـر المعجزات؛ فقال إنه فى إحدى المرات كانت هناك عاصـفة رمليـة عاتية، طمرت تقريبًا المقام الموجود فى " أوجلة"؛ لذا أحضروا العبيد ليقوموا باستخراجه مرة ثانية، وفى أثناء الحفر دخل القائم مقام إلـى الحجرة التى يوجد بها الضريح، ولاحظ انبعاث رائحة بخور قويـة، فنادى أحد العبيد وسأله عما إذا كان قد أشعل بخورًا فأنكر الرجـل، وحتى الآن - فى بعض المناسبات - يستطيع زائر المقام شم رائحـة هذا البخور على الرغم من أن أحدًا لم يشعله.

* * *

وتعد "جالو" مركز قبيلة المجابرة البدوية، وهم أمراء التجارة فى الصحراء الليبية. كما يوجد بعض الزوىّ هناك، ولكن "المجابرة" يمثلون النسبة العظمى من نحو ألفين من سكان القريتين الموجودتين بها. ويمتلك المجابرة غريزة تجارية رائعة، ويفتخرون بأن أباهم قد توفى فوق سرج جمله، كما يتفاخر ابن الجندى بأن أباه قد توفى فى ساحة المعركة، وعندما كنت فى "جالو"، قامت السلطات الإيطالية – والتى لم تكن وقتها على علاقة طيبة بالسيد إدريس – بحظر إرسال البضائع من "بنغازى" والموانئ الأخرى فى برقة إلى الداخل؛ لذا قفزت أسعار السلع فى المناطق الداخلية مثل "جدابيا" لدرجة كبيرة، وفى هذه الأثناء وصل إلى "جالو" تجار المجابرة بقافلة بها بضائع من مصر، وسمعوا عن هذا الموقف غير المألوف فى الشمال، ودون لحظة تردد واحدة غيروا من خططهم، واتجهوا صوب الشمال بدلاً من الجنوب وباعوا بضائعهم فى " جدابيا " بأثمانٍ مرتفعة، ثم عادوا بسرعة – إذا كانت سرعة الإبل لاتقل عن ثلاثة أميال فى الساعة فهكذا يمكن وصف سرعتهم – إلى مصر أو الجنوب سعيًا وراء حمولة قافلة أخرى. ووصلوا مرة أخرى إلى "جالو" ببضائعهم واستعلموا بدقة حول الظروف المقارنة للأسواق فى "جدابيا" و"الكفرة"، ووجهوا رحلتهم المقبلة وفق ذلك، مقدرين بُعد الأماكن فى الصحراء – تبعد "جالو" عن "جدابيا" مسيرة خمسة أيام، بينما من "الكفرة" إلى "جالو" ما بين اثنى عشر يومًا وثمانية عشر يومًا - وفى شكل الحلزون سارت القافلة.

وتنتقل الأخبار عبر الصحراء بسرعة مدهشة، أو على الأقل تبدو كذلك، وأحسب أن التفسير الحقيقى لهذا الأمر هو أن كل الأشياء

على صلة ببعضها البعض، وحيث ينتقل كل شيء فوق ظهور الإبل، وهكذا تنتقل الأخبار.

وبينما يعد المجابرة أعظم تجار الصحراء الليبية، فإن الزوىّ يطالبون أيضًا بحق التميز، والتنافس بين القبيلتين كامن دائمًا تحت السطح، ويظهر للعلن بين الفينة والأخرى.

وتحسد كل قبائل "برقة" الزوىّ؛ لأن الرجل الثانى بعد السيد إدريس فى الأهمية بين قبائل السنوسية هو على باشا العبدية من الزوىّ، ويعد على العبدية جنديًا رائعًا، ومؤازرًا قويًا للسيد إدريس، ويحظى الرجل بالكثير من ثقة قادة السنوسية.

وفى إحدى الليالى بعد العشاء فى "جالو" برزت بعض أشكال التعبير عن هذه المنافسة، والتى ألمح إليها سيدى صالح - الذى لا ينتمى إلى أى قبيلة فى "برقة"؛ فقد كان من الأشراف الذين يعود نسبهم إلى الرسول ﷺ - ففى مناقشة له مع مُجيب وزروالى وهما من الزوىّ، انطلق مُجيب فى الحديث عن تاريخ الزوىّ ومآثرهم، وأصغى سيدى صالح إلى مديح أحد الزوىّ لقبيلته وهز رأسه، وأشار بقوله "إن تاريخهم قد يكون مجيدًا كما أخبرك سيدى مُجيب، إلا أنهم لا يخشون الله سبحانه وتعالى".

وعند هذا انفجر مُجيب صائحًا: " والله يا سيدى صالح إنهم قد لا يخشون الله، ولكن هل يخشون إنسانًا؟ فويل لمن يجرؤ على التحرش بقوافلهم أو يهاجم خيامهم"، ثم التفت سريعًا نحوى واستمر قائلاً إن بركة المهدى تحيطنا؛ لأنه جاء إلى مركزنا فى "الكفرة" ومنها اختفى.

والسنوسية لا يقولون مطلقًا إن المهدى قد مات، بل يرددون دائمًا أنه غاب وسوف يعود، أو يستخدمون تعبيرات أخرى مشابهة.

وفى الواقع هناك رواية تتداول بينهم أنه لم يمت، لكنه يتجول فوق الأرض إلى الوقت الذى يعود فيه من جديد إلى شعبه من أبناء الصحراء.[٢٨]

وبالنسبة للزويّ فإن المهدى هو أكثر قادة السنوسية قربًا إلى قلوبهم؛ لأنه هو الذى نقل مركز نشاط الإخوة إلى "الكفرة" مركز قيادتهم،[٢٩] وقبة المسجد الذى شيَّده بها هى مفخرة "الكفرة".

ومن واقع خبرتى فإن الزويّ سرعان، يبدون عداءهم للغرباء، ويجعلونه واضحًا؛ فعلى الرغم من أننى مسلم، وابن لأحد رجال الدين، وموضع ثقة السيد إدريس، فإنهم لم يرحبوا بوجودى فى "الكفرة"، بل إن بعضهم عبَّر عن أمله ألا يرانى مرة أخرى بعد أن أغادر "الكفرة".

وعلى الرغم من عدائهم المضمر لى، فأنا لم أكن أتوقع أن أجد رجالاً للسفر فى الصحراء أفضل من الزويّ، الذين شكلوا جزءًا من قافلتى؛ فزروالى على وجه الخصوص، الذى يعد نموذجًا لبدو الزويّ، كان بالفعل أصدق صحبة وأفضل من يُعول على مرافقته.

فقد منحه بدو "برقة" الدماء العربية التى مرت بشمال أفريقيا فى

---

(٢٨) هذه عقيدة شيعية تُسمى "المهدية"، وهى تعنى أن الإمام يغيب فترة من الزمن ثم يرجع بعد غيبته وتستره عن الناس، فيأتى ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جورًا، وهو عندهم المهدى المنتظر. وقد استشهد الإمام محمد المهدى السنوسى يوم الأحد ٢٤ صفر عام ١٣٢٠ هـ، الموافق ٢ يونية ١٩٠٢ م، بينما كان يحاول تحرير (علالى) من الاحتلال الفرنسى. "المترجمان"

(٢٩) كان من أحد أسباب نقل الإمام محمد المهدى مركز قيادته إلى "الكفرة" التى تقع إلى الجنوب الحملة الإعلامية والتهديد الفرنسى للحركة السنوسية."المترجمان"

طريقها إلى " إسبانيا"، ورغم اختلاطه بالقبائل المحلية الأخرى في شمال أفريقيا، فإنه كان لا يزال يحافظ على التقاليد العربية القديمة.

* * *

وفى حالة حدوث حادثة قتل بين البدو، فإن لهم قانونًا خاصًّا فيما بينهم، وكقاعدة عامة يتدخل إخوان السنوسية كوسطاء سلام فيما بينهم؛ فيصطحبون القاتل وأحد أفراد قبيلته الكبار ويذهبون إلى مخيم القتيل وينصبون خيمة بالقرب منه، ثم يُفاتح أحد الإخوان أسرة القتيل قائلا "إن من قتل رجلكم هنا" ويمسكه بيده، مضيفًا "هذا هو من قتل ابنكم، سوف أسلمه لكم لتفعلوا به ما تشاءون"، وعادة ما تكون الإجابة "ربنا يسامحه، وعدله ورحمته تنزل عليه"، وبناء على هذا يبدأ الإخوان فى الترتيب للحصول على الدية، التى تكون غالبًا ثلاثة الاف دولار بالإضافة إلى عبد، أو قيمته السوقية وهى معلومة فيما بينهم. والقبيلة المصابة قد تختار بين قبول المال أو الحصول على ما يعادله من إبل أو غنم أو أية سلعة أخرى. كما قد يدفع المال على أقساط تتراوح بين سنة وثلاث سنوات، ويُنص على ذلك فى الاتفاق. وفى حالات نادرة جدًّا من أبرزها حالة العداء المتأصل فإن أسرة المتوفى ترفض قبول الدية، وهو ما يعنى أنها تعتزم قتل القاتل أو أحد أقربائه أو أحد زعماء قبيلته.

ويختلط فتيان البدو وفتياتها بحرية، ولكن فى الأسرة ذات المكانة الرفيعة تظل النساء فى الخباء. ومن الشائع أن يعرف الفتى محبوبته ويتوجه إلى خيامها، وينشد لها – فى الغالب الأعم – أبياتًا من نظمه، فإذا راق لها، فإنها تخرج وترد على شعره، وليس بالضرورة أن

تكون الكلمات من نظمها، وعندئذ يذهب الفتى ليطلب الفتاة من أهلها، وإذا تم الاتفاق يدفع المهر. ووفقًا للمراسم المتبعة يتوجه الفتى مع أصدقائه إلى دار الفتاة ليصطحبها إلى خيامه وسط عرض للفروسية والكثير من إطلاق البنادق.

وهناك العديد من القصص المعروفة عن فرار فتيات من ديارهن بهدف الزواج من غير موافقة آبائهم، وينتهي الأمر عادة بضغائن بين القبائل؛ لأن البدو ينظرون إلى هذا الرجل كما لو أنه سرق الفتاة منهم.

ويتم الزواج وفقًا للشريعة الإسلامية، وهناك عقد للزواج، يبرمه فى كثير من الحالات الإخوان. ويتم الزواج فى سن مبكرة جدًّا، حسب سن البلوغ، الذى يتراوح بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة للفتاة، وبين السابعة عشرة والعشرين للفتى، كما يستطيع البدو الأغنياء أن يتزوجوا أكثر من زوجة واحدة، ولكن فى هذه الحالة تظل الزوجة الأولى هى سيدة الدار، ولها الأفضلية - حتى على الزوجة المفضلة للرجل - فى كل ما يتعلق بإدارة المنزل.

وقد سمعتُ كثيرًا عن حالات فتيان فقدوا عقولهم بعد أن سقطوا فى حب فتيات لم يستطيعوا الزواج منهن؛ ففى إحدى المرات جاءنى أحد فتيان البدو يطلب دواءً، كان يبدو ضعيفًا ونحيفًا للغاية، ذا ملامح دقيقة، تحدث قليلاً، ثم قال " لقد حضرت لأسألك عن دواء يمنحنى الصحة"، ولما سألته عن علته، هز رأسه وأجاب "ربنا العالم"، كان هناك شىء غريب فى هذا الفتى، شىء محير، ولكن كما هو معتاد فى مثل هذه الحالات، لم أكن أجد أمامى سوى بضعة أقراص من

الحبوب الممزوجة باللبن، تلف بعناية داخل إحـــدى الأوراق، وتعطى لـــه، مع تعليمات صارمة ألا يأخذ منها أكثر من ثلاثة كل يوم، وبعد أن رحل الفتى، حضر رجل عجوز لخيمتى، وجلس القرفصاء علـــى الأرض ثم بدأ فى الحديث "ربنا يعطيك الصحة، ويجعل الشفا دائمًـــا على يديك، حضر ابنى إليك الآن، وأعطيته دواء، وحضرت لأخبرك بعلته، فهو ضعيف ومبتلى بالصداع دائمًا، وعندما يحل الليـــل ينـــأى بنفسه عن كل فرد وينشد العزلة، وغالبًا ما يخرج ليمضى الليل فـــى الخلاء".

أخبرتُ العجوز أن الدواء الذى أعطيته للفتى هو الوحيـــد معـــى الذى قد يمنحه بعض الراحة"، فأجاب الرجل فى صوت حزين " ربنا هو الشافى، نحن نعلم دواءه، لكنه مكتوب ألا يناله؛ فالفتى متيم بفتـــاة رفض أبوها أن يزوجها إياه". فسألته "إذا كنت تعلم أن هذا هو ســـبب علة ابنك، فلماذا لا تعمل على تزويجه الفتاة؟" فأجـــاب الأب " فـــات الأوان، فقد تزوجت الفتاة بالفعل، وربنا العالم... فربما تكـــون علـــى مسافة سفر أيام من هنا، لكنها تعانى من الداء ذاته"، وعندئذ نهـــض الرجل ورحل عن خيمتى مستسلمًا، فى صورة تدعو إلى الشفقة.

* * *

فى "جالو" – كما فى "جغبوب" – لم تكن هناك إبـــل تنتظرنـــى عندما وصلت، ولكن لم يكن ذلك للسبب نفسه، أو لأمر يدعو للقلـــق. فاستئجار الإبل اللازمة قد تم ترتيبه بالفعـــل، وكـــان مالكهـــا عمـــر بوحليجا مستعدًا ليبدأ بمجرد أن تعود الحيوانات من الرعى.

لا يوجد بدوى يقبل أن يخرج فى رحلة طويلة قبل أن تسمن إبله وتنال كفايتها من الطعام خاصة من العلف الأخضر. فالمسار الطويل الخالى من نطاقات الرعى على الطريق - مثل الطريق إلى "الكفـــرة" - يعنى إطعام الإبل على التمر الجاف على وجه الخصوص. والتمر - كما يقول الجمَّالون - "حامى على الكبـــد"؛ لـــذلك فهـــم يعـــدون حيواناتهم لهذه المحنة بوجبة من الطعام الأخضـــر قبـــل أن يبـــدأوا الرحلة.

وقد أُخذت إبل بوحليجا إلى منطقة رعى مجاورة من أجل هـــذا النمط من الإعداد، وفى اليوم المحدد لعودتها لم تظهر، وفـــى اليـــوم التالى سألت عنها فلم أجد ردًا ، وفى اليـــوم الـــذى يليـــه أصـــبحت مشغولاً، ثم فى اليوم الذى بعـــده أصـــبحت قلقًـــا خشـــية أن تكـــون الحيوانات قد فرت وهى تُجلب من الرعى، إلا أنها لم تفعل ذلك؛ فقد ظهرت فى اليوم الرابع، وعندما جاءت كانت فى حالة ممتازة أنستنى قلقى السابق.

استأجرت خمسة وثلاثين جملاً وناقة، دفعت فيها ثمنًا باهظًا؛ فقد كنت أستطيع شراءها جميعًا بمبلغ يتراوح بين اثنى عشـــر وثمانيـــة عشر جنيهًا مصريًّا، بينما طلب بوحليجا ثلاثة عشر جنيهًا ونصـــف الجنيه فى مقابل استئجارها لرحلة تتراوح من شهرين إلى ثلاثة أشهر إلى "أبيش" فى "الواداى". ولكن الأمر هكذا كان أفضـــل لـــى، فـــإذا امتلكت الإبل فإن مسئولية رعايتها سوف تصبح كلها مـــن نصـــيبى ومن نصيب رجالى الذين لا يوجد دافع لديهم للعناية بها أكثـــر مـــن الدافع العام المتمثل فى الولاء لمالك القافلة، أو وظيفة العناية بالإبـــل

فى أفضل حال، بينما عندما ذهب رجال بوخليجا مع إبله، كانوا حريصين على أن تلقى أفضل رعاية. فطوال الرحلة إلى "الكفرة" ظلت عينه الخبيرة على كل واحدة منها، فإذا ما وهن جمل أو بدا مريضًا، كان ينقل حمولته ليواجه هذا الطارئ، وفعل كل ما فى وسعه ليجعلها فى أفضل حال حتى نهاية الرحلة، وكانت عنايته بها تساوى عندى كل هذه التكلفة.

وبالإضافة إلى الإبل كنت أحتاج إلى مزيدٍ من الرجال، وكان لايزال معى الأربعة الذين استأجرتهم من " القاهرة"، و"السلوم"، و"سيوة" وهم: عبدالله، وأحمد، وحماد، وإسماعيل، وأضفت إليهم خمسة آخرين هم: زروالى، وسنوسى بو حسان الدليل، وسعد الذى جاء من عجيلا، وحميد، وفراج (أحد العبيد)، وكان مع بوحليجا ابنه، واثنان من الجمَّالين. وقد استكملت القائمة فى النهاية بخمسة أفراد من التبو[٣٠] الرُحل، وهم سود من تيبيستى، وهو إقليم يقع إلى الشمال الغربى من "الواداى". وكان عبد الله وزروالى بمثابة قائدى القافلة؛

---

(٣٠) التبو (Toubous - Tibous - Tebus): بدو رحل يعيشون على رعي الأغنام والإبل ويتبعون الكلأ والماء أينما وجدا، وكانوا يمارسون التجارة أيضًا عبر الصحراء؛ حيث يجلبون البضائع من "فزان" لبيعها في جنوب "تشاد" والعكس. وتاريخ التبو يكتنفه الكثير من الغموض؛ لذلك عانى المؤرخون كثيرًا من قلة المعلومات عن هذه القبائل. ومعظم الذين كتبوا عن التبو هم من الرحالة الغربيين الذين جابوا الصحراء الليبية منذ القدم وقلة قليلة من العرب. أما بالنسبة للتبو فإنهم لم يكتبوا شيئًا، ولم يتركوا آثارًا واضحة يمكن الاستدلال بها على تاريخهم. وينقسم التبو إلى قسمين:
التيدا: ويتركز معظمهم فى جنوب "ليبيا" وبالتحديد في "القطرون" و"تجرهى" و"مرزق" و"أوبارى" و"الكفرة" و"ربيانة"، وكذلك شمال تشاد ولهم لغة خاصة بهم تسمى "التيداغا"، وهى خليط من العربية والأمهرية والهوسة.
الدازا: وهؤلاء يسكنون في شمال تشاد، وبالتحديد في"بوركو" و"إنيدى" ووسط وغرب "تشاد"، ومنطقة "بحرغزال". "المترجمان"

فالأول كان مسئول عن الأمتعة والمؤن، بينما كان الثانى مسئولاً عن الإبل والرجال، وكانا بالفعل أفضل رفيقين يستطيع المرء أن يحظى بهما عند السفر فى الصحراء.

احتجنا أيضًا إلى ملابس أخرى، وبعض أنواع الطعام، والأحذية، خاصة الأخيرة؛ فالخف البدوى الذى بلا كعب، وهو الشيء الوحيد الذى يمكن انتعاله فى الصحراء، كان يبلى سريعًا، ومن الشائع أن يتم إصلاحه فى أثناء الطريق. وكان من الضرورى أن يتم التأكد من أن كلاً منا ليس معه حذاء احتياطى فقط بل معه أيضًا الجلد الذى سوف يحتاج إليه بكل تأكيد لكى يرقعه إلى أن يصل إلى "الكفرة".

وفى "جالو" عثرت على صانع أحذية شهير، تُدعى حميدة، وكنت قد قابلته فى "الكفرة" قبل عامين وصنع لى حذاء، وفى هذه المرة كان معى الحذاء ذاته الذى سبق أن صنعه لى، وكان فى حاجة ماسة لرقعه، وكانت سعادته بالغة عندما أخذته له ليصلحه.

كان ذا مظهر جليل تظن معه بسهولة أنه قاضٍ، أو على الأقل أحد أعضاء مجلس الواحة، وكان يحضر إلى دارى يومًا تلو الآخر ليعمل فى صنع خمسة أزواج من الأحذية، وكذلك فى صنع أحذية لرجالى، بالإضافة إلى إصلاح سروجنا وتجهيزاتنا الجلدية الأخرى. وكان من الممتع أن أمنحه وجبة طعام ثم أدعوه بعد ذلك بمودة إلى كوب شاى. وفى أحد الأيام كان يسعل عندما جاء الشاى، وأبديت تعاطفى لاعتلال صحته، فنظر إلىَّ عبر كوب شايه وأجاب فى صوت هادئ " ولكن شاى سيدى البيه دائمًا يوقف سعالى، وليس أى شاى آخر، ولكن دائمًا شايك فقط". لم أتجاهل التلميح الذى ألقاه

بلباقة، وقبل أن نرحل عن "جالو" تلقى حميدة هدية منى عبارة عن علبة صغيرة من ذلك الشاى العجيب.

إلى جانب أحذيتى والجلود، اشتريت قماشاً من أجل ملابس الرجال، وزبد، وزيت، وشعير، وحطب، وثمانى قرب، وعلى الرغم من أن على كاجا عبد السيد إدريس المفضل وأمينه - الوكيل - فى "جالو"، أخبرنى أن سيده أمره بأن يضع تحت تصرفى كل مخزونه من المؤن من الأنواع كافة، إلا أننى شكرته ولم أسمح لنفسى بقبول عرضه، فقد وصلت للتو من مصر وأنا كامل التجهيز، وأعلم كم يعنى هذا المخزون لمن يعيشون فى هذه الرقعة المنعزلة.

بالإضافة إلى هذه التجهيزات، أنفقت الأيام العشرة التى أمضيتها فى "جالو" فى تبادل الضيافة وفى الأعمال العلمية. وكانت الضيافة على أعلى مستوى من مستويات الضيافة البدوية؛ ففى اليوم الأول تناولت عشائى مع سنوسى قادر بوح القائم مقام أو حاكم "جالو"، وفى اليوم الثانى تناولت طعام الغداء فى دار البشارى أكثر زعماء تجار المجابرة أهمية، وكان ينتظرنى مضيفي وابنه، وفى اليوم الثالث أرسل لى الغداء أعضاء المجلس، وشاركنى الطعام زروالى "القاضى"، وعلى كاجا، ومُجيب، وبعد الطعام تحدثت مع القاضى عن تاريخ السنوسية، وأرونى خطابات من السنوسى الكبير، ومن المهدى ابنه، بينما عشاء هذا اليوم جاء من عند الحاج فرحات، تاجر آخر من تجار المجابرة، وشاركنى فى تناوله كل من القائم مقام، وزروالى، وعلى كاجا، ومُجيب، عبد الله، وبينما كنا نأكل ناقشنا عادة "بوزافار"، التى أجمع الكل على أنها لا يصح أن تكون وجبة طعام، بل يجب ذبح خروف وتناول لحمه.

وفى اليوم الرابع تغديت فى دار الحاج على بلال من المجـــابرة، وقد دونت فى يومياتى أنه قد حضر هذا الغداء الأفــراد المعتــادون، وأن الغداء كان جيدًا للغاية، كما أرسل لى العشاء الحاج سيد، وهــو أيضًا أحد تجار المجابرة، وشاركنى فيــه كـل مــن القــائم مقــام، وزروالى، والقاضى، وفى اليوم التالى تغديت فى دار الحاج غريبال، وفى هذا المساء حدثت أكثر تجاربى إثارة فى مجال الضــيافة؛ فقــد كان يعيش فى "جالو" بضع سيدات من عائلة السنوسى - ومن بينهن زوجة السيد إدريس وأخته - وبعد فترة قصيرة من وصــولى إلـــى "جالو" أرسلن لى دعوة للعشاء، وكانت تلك حادثة غير مألوفة؛ فنساء البدو من الطبقة العليا لا يوجهن الدعوة للرجال على النحو الذى تفعله النساء فى الغرب واللاتى يمكنهن فعل ذلك بلا غضاضــة، وكنــت مدركًا بالطبع أننى لن أتناول عشائى بالفعل مع مضيفاتى بل مع مــن سينوب عنهن، ورغم هذا كنت مقدرًا بحق لذلك التكريم الذى لم يسبق له مثيل.

وفى الموعد المحدد حضر ليرافقنى للعشاء كـل مــن زروالـــى والقائم مقام، وكانت الدار التى تشغلها النساء هى دار الحاكم الســابق إبان الحكم التركى. وبعد أن وصلت إليها وجدت نفسى فـــى حجــرة فسيحة، حيث كانت الأضواء الناعمة المنبعثة مــن مشــكاة نحاســية رائعة الجمال، وأعداد لا تحصى من الشموع تعمل على إثراء عذوبة الضوء والتركيبات اللونية الثرية للســجاجيد التـــى لا تقــدر بــثمن والوسائد الحريرية فى هذا المكان. وتولى سيدى صالح - زوج إحدى سيدات السنوسية - دور المضيف نيابة عنهن. وتحت إشراف ضيافته مُدَّت أمامنا مأدبة رائعة بواسطة نصف دستة مــن العبيــد. وعنــدما

أصبح علينا أن نأكل طلب منى ذلك بلطف وكياسة، ورغم هذا كنت خائفا أكثر مما تتطلبه طبيعة الأمر، وقد انتهت الوليمة بغسيل أيدينا فى أوانٍ أحضرها العبيد، وبأكواب الشاى الثلاثة الرسمية، ورش ماء الورد فوقنا، وإشعال البخور أمامنا، ثم جاء رئيس العبيد وبشكل تبجيلى همس فى أذنى "هل يبغى البيه سماع بعض الموسيقى؟ لدينا جرامافون وبعض التسجيلات لمغنين مشهورين من مصر، على البيه فقط أن يأمر".

وربما خيبت آمال رفقائى - لا أدرى - ولكن طبقًا لقناعتى، رفضت بأدب جم عرض الترفيه هذا؛ فقد كان هناك شيء نادر وثمين فى أجواء هذه الحجرة ناعمة الإضاءة، شعرت أنه قد تنتهكه تلك الأصوات القادمة من خارج الصحراء، وربما يعود جزء منه لجمال المكان، والبعد عن العالم، ولكن على وجه الخصوص لذلك الشعور بأننى ضيف على نساء بدويات نبيلات، وكن يختفين عنى طبقًا لتقاليد مجتمعنا الشرقى، إلا أنهن كن بالمعنى الحقيقى للكلمة حاضرات من خلال ضيافتهن الفاتنة ورعايتهن الكريمة، اللتين جعلتا من هذا المساء ذكرى فريدة لا تُنسى. أخبرت العبد أن ينقل تحياتى واحترامى إلى السيدات ويخبرهن كم تأثرت بشدة بمجاملتهن الكريمة، وبعدها خرجت إلى ليل الصحراء الصافى ونسماته الناعمة التى كانت تثير رائحة البخور من ثنايا جيردى لتذكرنى بقوة بالسلام والسكينة الغامضة التى كانت تعبق الحجرة التى أتيت منها.

وفى اليوم التالى رددت واجب الضيافة لكل أولئك الذين ضايفونى بكرم بالغ. وكانت حجرتى بأرضها الطينية الجافة وحقائب

السفر الملوثة التى تصطف حول جدرانها لا يمكن مقارنتها بالدار الساحرة التى تناولت فيها العشاء فى الليلة السابقة، إلا أن على كاجا أخذ على عاتقه أن يجعلها مقبولة بقدر ما تسمح به الظروف. ومن خلال زوج من الفوانيس النحاسية الجميلة، وبعض البُسط المستعارة من دار السيد إدريس وبعض الكماليات الأخرى استطاع أن يحاكى باحترام قاعة طعام. وكان ضيوفى هم: القائم مقام، وأعضاء المجلس، واثنان من الإخوان، والقاضى، وعلى كاجا، وموسى قائد سلاح المدفعية السنوسية، وزروالى.

ارتديت أفضل ثيابى البدوية، وانتظرتهم حتى ينتهوا من الطعام كما يجب أن يفعل المضيف البدوى، وعندما طلب منى بعض الرجال - من أولئك الذين سبق أن كانوا فى العالم الخارجى - أن أجلس معهم وأتناول الطعام أكدت لهم سوف أفعل ذلك عندما يكونون ضيوفى فى القاهرة.

واجتهد أحمد - الطاهى الخاص بى - فى إعداد العديد من الأطباق الأوروبية المميزة ليشير إلى مدى تفرد ولائمنا، وقد كانت سعادة ضيوفى بالغة بما قدمه.

أنهت وليمتى تبادل الضيافة فيما بيننا، ولمدة يوم أو اثنين كنت حرًّا فى تناول طعام الغداء والعشاء فى عزلة هادئة، إلا أننى كنت أكن امتنانًا بالغًا لمضيفى الكرماء لحسن ضيافتهم وكريم استقبالهم.

كان الجزء المهم من نشاطى فى "جالو" هو قيامى بجمع بعض الملاحظات العلمية؛ فقد راقبت الشمس والنجوم لكى أحدد خطوط الطول ودوائر العرض، وأدون القراءات المألوفة للبارومتر الزئبقى

والترمومتر لتحديد منسوب المنطقة بالنسبة لمستوى سطح البحر. وملاحظاتى حول النقطة الأخيرة – عندما تم الانتهاء من إيجاد العلاقة بين التسجيلات التى تمت للبارومتر فى "سيوة" فى اليوم ذاته – كشفت الحقيقة المثيرة؛ حيث أن منسوب " جالو" أعلى اليوم بنحو ٦٠ مترًا عما سجله رولفس عام ١٨٧٩؛ فقد وجد أن "جالو" تكاد أن تكون على منسوب سطح البحر، بينما وجدت أنها على منسوب ٦٠ مترًا أعلى. وقد رأيت تفسير ذلك ماثلاً أمام عينى؛ فقد تسلقت الرمال المترسبة ببطء جذوع أشجار النخيل وحوائط الدور، مهددة إياها بأن تبتلعها، بل إن بعض السكان قاموا بالفعل بنقل منازلهم، وأعادوا تشييدها على مناسيب أعلى بسبب تراكم الرمال بانتظام، والذى تجرفه العواصف الرملية ويتجمع أينما كانت هناك أشجار أو دور توقف تقدمه، وهو ما رفع منسوب "جالو" لما يقرب من ٢٠٠ قدم فوق منسوب سطح البحر خلال أربعة وأربعين عامًا. فالمنزل الذى كنت أعيش فيه، حيث سجلت قراءة البارومتر، كان على منسوب أعلى من باقى الدور فى "جالو" بما يتراوح بين ١٥ و٢٠ مترًا.

وعند جمع ملاحظاتى العلمية كان علىَّ أن أكون حذرًا؛ لأن البدو يرتابون فى أى شىء ذى مظهر علمى معقد مثل "الثيودليت"؛ فقد كانوا واثقين من أننى أعد خريطة بهدف العودة مرة ثانية لاحتلال أرضهم. ففى أول مرة أمسك بى أحد زعماء البدو والرجل الذى كان سيرشدنا إلى "الكفرة "مع الثيودليت الخاص بى. كان علىَّ أن أشرح لهما بسرعة وبصورة مقنعة بأننى أجمع بيانات بهدف إعداد إمساكية لشهر رمضان القادم.

أما عبد الله الذى لم يكن بدويًا بالطبع، فقد كان ذا فائدة لا تقدر بثمن بالنسبة لعملية التمويه على أنشطتى العلمية؛ ففى الواقع كان متخصصًا فى اختلاق هذه الأكاذيب الصغيرة التى تنعم مسار الحياة وتحافظ على المشاعر الاجتماعية. ففى أحد الأيام كنا نستخدم الثيودليت على مسافة ما من البلدة، وسألنا أحد سكان المنطقة عما نفعل، وقال له عبدالله إننا نلتقط صورة " لجالو".

فسأله البدوى " كيف يمكن ذلك من كل هذه المسافة؟"

وكان لدى عبدالله تفسير جاهز؛ فأكد له بطريقة عفوية "الآلة تجذب الصورة؛ لذا فهى تخرج مباشرة من موضعها وتطير نحوها".

فسأله البدوى مرتابًا " ولكن كيف يستطيع الصندوق جذب الصورة؟ "

فضرب له عبد الله مثلاً " اسأل المغناطيس كيف يجذب الحديد؟!" ونال منه ببلاغته، وأغلق باب المناقشة.

الفصل العاشر

الرحلة

«بحلول يوم الخميس الموافق ١٥ مارس أصبحنا مستعدين للرحيل. استيقظت فى السادسة صباحًا لإعداد أمتعتى، وكما هو معتاد فى أول أيام السفر عندما تكون القافلة لم تألف بعد هذه العملية فإن الأمر يتطلب وقتًا طويلاً، وقد تطلب منا ذلك نحو ثلاث ساعات لننتهى من التحميل».

وكان علينا بعد ذلك أن نتبع عادة البدو فى "التجهيز"، وهو ما يعنى أن نجاور إحدى الآبار قبل أن نبدأ الرحلة، ونقضى عندها بضعة أيام - قد تمتد فى بعض الأحيان إلى أسبوع - فى الإعداد النهائى للسفر قبل أن نهجر حياة العمران، وكانت بئر "بوطفل" التى تبعد نحو ثلاثين كيلومترًا من "جالو" هى النقطة التى سوف نعد عندها "تجهيزنا".

وبينما كانت تتم عملية حزم الأمتعة، حضر لإبداء مراسم المودة أو الوداع كل من القائم مقام والوجهاء والإخوان، وجلسنا سويًّا لنناقش ما سيئول إليه الحال فى الرحلة؛ فقبل عامين قمت بالرحلة نفسها إلى "الكفرة"، فى ظل ظروف أفضل، ورغم هذا فقد ضللنا طريقنا قبل أن نتمكن من الوصول إلى "الكفرة"، رغم أن الجو كان أبرد مما هو عليه الآن؛ لأننا كنا مبكرين عن هذا الوقت بشهرين،

ولم تكن الرياح والعواصف الرملية بمثل هذا التواصل، وكانت القافلة أصغر حجمًا، كما لم تبرز فى هذا الوقت مشكلة توفير الإبل وعلفها، والرجال وطعامهم واحتياجاتهم؛ فقد تكفل بإعداد القافلـــة وتجهيزهـــا بالكامل الإمام الكريم السيد إدريس، وهو الأمر الذى كان قيد الاعتبار فى تهدئة شكوك البدو والحد من عدائهم للغرباء. بينما فى هذه المرة، كان علىَّ أن أتولى بنفسى إعداد الإبل والأفراد، وكان من الطبيعى أن تثير الفضول هذه القافلة الكبيرة جدًّا التى تتضمن كميات من الأمتعـــة الضرورية وغير الطبيعية لرحلة طويلة.

فى هذه الطرق الطويلة الخالية من مصادر المياه غالبًا ما تكون الطبيعة هى العدو الوحيد، وهى تســتطيع أن تكـــون كـــذلك إذا مـــا أرادت.

إلا أنه من حسن الحظ أن أفراد قافلتى تعاونوا معًا علـــى نحـــو جيد؛ فالأفراد الأربعة الذين أحضرتهم من "القاهرة" و"السلوم" و"سيوة" تآلفوا تمامًا مع كل الأفراد الذين قابلناهم، كما أن زروالى - وهو أحد إخوان السنوسية الذى أوفده السيد إدريـــس ليرافقنـــا - كـــان ودودًا بطبعه، وبذل كل ما فى وسعه ليجعل رحلتنا مريحة قـــدر الإمكـــان، وشعرت أنه لا يوجد اهتمام حقيقى بما هو قادم؛ فلا يهـــم مـــاذا قـــد تختاره الطبيعة لتفعله بنا.

عندما تم تحميل الإبل كلها، شرعنا فـــى أداء مراســـم الـــوداع المبجلة، فوقفنا فى شكل قوسين يواجه كل منهما الآخر، شـــغلت أنـــا ورجالى أحد هذين القوسين بينما كان رئيس "جالو" وإخوان السنوسية فى الآخر، وفى وقار وخشوع رفعنا أكفنا بالدعاء آملـــين أن تكـــون

رحلتنا مباركة، وأن يرشدنا الله – سبحانه وتعالى – ويعيدنا إلى ديارنا سالمين غانمين، وقرأنا "الفاتحة" – السورة الأولى من القرآن الكريم – ثم قال أكبر أفراد الإخوان سنًا "آمين"، ثم تصافحنا، وافترقنا. وكأن صياح الرجال وهم يستحثون الإبل يرد صداه زغاريد النساء، وأخيرًا أصبحنا على الطريق.

وبينما كنا نمر " باللبَّة"، ثاني قرى " جالو"، وقعت حادثة بعثت البهجة في طريقنا؛ فقد اعترضت طريقنا فتاة رشيقة القد، تخفي وجهها عنا بحجاب بدوى، وفى صوت واحد صاح الرجال على مقربة منها:

"وشك، وشك، وشك"

فاستدارت الفتاة، وفى وقار نحت جانبًا حجابها، لتكشف عن ملامح فاتنة كأنها نحتت بإزميل، فوق بشرة زيتونية رائقة اللون يكسوها خجل لا يخلو من أمارات الكبرياء الذى يتسم به عذارى البدو، صاح الرجال سرورًا لجمالها ومجاملتها، وحتى تكتمل التقاليد أمرتهم أن يفرغوا بنادقهم عند قدميها، ثم بدأ حامد وسعد في أداء مراسم تحية الفتاة الجميلة؛ فبدأ الأول ثم تلاه الآخر، رقص الرجل بخفة نحوها متخيلاً وجود إيقاع طبل بدوى، بينما كان يمسك بندقيته بكلتا يديه ويرفعها فوق رأسه، وفوهة البندقية موجهة للأمام، وكان يردد إحدى الأغانى البدوية، وعندما اقترب منها تمامًا خرَّ بخفة على إحدى ركبتيه ووضع بندقيته فى وضع رأسى وفوهتها لأسفل ثم أطلقها على مسافة قريبة جدًّا من قدميها.

كانت الطلقة قريبة جدًا وتصويبه كان دقيقًا للغاية؛ حتى إن وهج البرود المتطاير منها سفع خف الفتاة وحرق سطحه، ورغم هـذا لـم تجفل الفتاة من الانفجار، بل وقفت منتصبة فى كبرياء تواجه التكريم الذى قدم لها؛ إذ إن سفع خف الفتاة فى الصحراء يعد علامـة علـى تميزها، وهو أمر تعتز به أية فتاة بدوية. وبعد ذلك قام سعد بمحاكـاة حامد فى أداء المراسم، ثم أطلق رجال القافلة مزيدًا من الطلقات وبعد ذلك تحركنا.

ابتسمت الفتاة لنا، وبقدر التكريم الذى قُدِّم لها بقدر سعادتنا للفأل الحسن أن يقطع طريقنا وجه جميل عند بداية رحلتنا، وخلال سـاعة عدنا للصحراء الشاسعة من جديد.

وبعد ثمانى ساعات من السير المتواصل وصلنا إلى بئر "بوطفل" التى كان علينا أن نتوقف عندها لمدة يوم واحد فقط.

مرت هذه الليلة سريعًا، وذلك من خلال الغناء والحـديث حـول نيران المخيم الذى امتد لما بعد منتصف الليل. وبعد أن هدأ المخـيم، اصطحبت غليونى معى وذهبت لأتمشى، كانت تلك دائمًا إحدى أكثر متع حياتى فى الصحراء: أن أدخن غليونى فى سلام قبـل أن أعـود دائمًا فى سلام؛ فإذا ما كان اليوم جيدًا فإن لذة التدخين يقتـرن بهـا شعور بالرضا، وإذا كان سيئًا فهناك دائمًا أمل فـى اليـوم المقبـل، وإيمان بأن كل شىء سوف يصبح على ما يـرام؛ فطـوال الرحلـة بأثرها لم أذهب يومًا إلى النوم مصطحبًا معى ما يقلقنـى، أو يشـغل بالى، مهما كنت مبتلى بالحوادث أو الظروف.

أنفقنا اليوم التالى فى الإعداد النهائى للرحيل؛ حيث وصل بوحليجا مالك الإبل فى ركب صغير يتكون من ثلاث إبل، وفى أثناء النهار وصل رجل آخر من "جالو" ومعه شيء لنا؛ فقد كنا فى حاجة ماسة إلى حبال، ولكن الثمن الذى طلبه البائعون كان باهظًا للغاية، حتى إن عبد اللــه تشاجر معهم وترك أمر إتمام الصفقة معلقًا حتى الدقيقة الأخيرة، ثم رتّب مع رجل يُدعى سنوسى بوجابر ليُحضر لنا الحبال فى "بوطفل".

وعندما وصل هذا الرجل، حضر إلى خيمتى، ليخبرنى أن لــه أمًا فى "الواداى" وطلب منى أن يرافقنا، وسوف يعمل ليسدد تكاليف رحلته، تفحصت الرجل سريعًا وقررت ما سوف أفعله، اكتشفت بجلاء أنه يملك روح المرح، وتقريبًا إن لم يكن على وجه التحديد فهى تعد من أكثر الأمور قيمة خلال السفر فى الصحراء؛ فالقدرة قد تفشل، بينما الروح المرحة تُمكّن المرء من أن يظل رابط الجأش حتى اللحظة الأخيرة. كنت مستعدًا لأن آخذه، ولكن بدا الأمر غير ممكن؛ لذا قلت لــه " نحن على وشك الرحيل، ولا يوجد وقت لديك حتى تُحضر أغراضك من "جالو" وتعود لنا فى رحلة قد تتطلب يومًا كاملاً".

فوجدته يقول "إنها معى هنا".

سألته وأنا أنظر إليه فى ريبة أين هى؟!

أجاب وهو يشير إلى الرداء الذى يرتديه والعصا التى يمسكها "أهه".

انفجرت فى الضحك لفكرة تجهيزاته لرحلة صحراوية شاقة، وشاركنى المرح، طمأنته أنه يمكنه الانضمام إلينا، ولم أندم مطلقًا على قرارى هذا؛ فقد أثبت أنه أحد أفضل الرجال الذين حظيت بهم.

فى صباح اليوم التالى، سقينا الإبل، وهو الأمر الذى يجب ألا نتعجل فيه؛ فلا شىء أكثر أهمية فى الترحال من حالة إبلك، ولا يقتصر الأمر فقط على أن تكون سمينة، وأن تتناول كفايتها من الطعام عند بداية الرحلة، بل يجب أيضًا أن يسمح لها بالشرب بترو، وأن تتاح لها الراحة بعد الشرب، وعندما أصبحت الإبل جاهزة، تم تحميلها بعناية بالغة؛ لأن الحزم والتحميل الجيد فى البداية يعنيان توفير الكثير من الوقت والمشاكل طوال الرحلة.والسرعة فى التحميل والإنزال تتحقق مع مرور يومٍ تلو الآخر، وفى بعض الأحيان قد تعنى توفير يوم أو يومين قبل نهاية الرحلة.

بحلول الساعة الثانية والنصف بعد الظهر أصبحنا مستعدين للرحيل، وبينما كانت الإبل تتحرك ببطء ارتفع صوت بوحليجا الجهورى بالأذان "**حى على الصلاة**"، طبقًا لعادات البدو عند بداية رحلة طويلة؛ فهو تقليد بدوى مفاده أن أولئك الذين يبدأون رحلتهم مع الأذان سوف ينهونها مع الأذان أيضًا، وهو ما يعنى أن القافلة لن تواجه كارثة على الطريق.

ظلت قافلتنا تزداد تدريجيًّا حتى أصبحت تتكون من واحد وعشرين رجلاً، وتسعة وثلاثين جملاً وناقة، بالإضافة إلى حصان وكلب، وكان بيان رجالها على النحو التالى: أنا ورجالى الأربعة (عبدالله، وأحمد، وحامد، وإسماعيل)، ثم زروالى، وبوحليجا مالك

الإبل، وابنه، وابن أخيه، وعبده، وكان هناك أيضًا داوود عم زروالى الذى كان معه جمل واحد سوف يذهب به إلى واحة "تـــايزربو"(٣١) ليعود منها بزوجته وابنته - بالإضافة إلى سنوسى بوحسان "دليلنـــا"، وسنوسى بوجابر - الفتى صاحب القميص والعصا - وحامــد مــن الزوىّ، وهو صبى آخر كان غناؤه عذبًا، وسعد العجيلـــى، وفـــراج العبد، واثنان من أفراد التبو، ومعهم ثلاثة جمال، وبالإضافة إلى كـــل ماسبق كان هناك ثلاثة أفراد آخرين من التبو معهــم ثلاثـــة جمـــال محملة ببضائع سوف يسلمونها للتجار فى "الكفرة".

جعلنا وجهتنا صوب الجنوب متجهين إلى "الكفرة"، كـــان الجـــو حارًا وعاصفًا، والصحراء تمتد أمامنا مثل فطيرة حارة لا نهاية لها، وكانت الأرض التى نجتازها من نـــوع " السريرة"، وهى عبارة عن أرض منبسطة من الرمال الخشنة التى يتنـــاثر فوقهـــا القليـــل مـــن الحصى.

كان هدفنا الأول بئر"زيغن"، الذى كان يتعين علينا أن نصل إليها بعد ثمانية أو تسعة أيام، وفى الماضى - قبل عهد السنوسية - كـــان من المعتاد أن تقطع الرحلة من "جالو" إلى "زيغن" فـــى ثلاثـــة أيـــام وخمس ليالٍ من السير المتواصل، دون توقف حتى للراحة أو تنـــاول الطعام، ولكن السنوسيين غيَّروا كل هذا؛ فقد استنوا عُرفًـــا يتضـــمن اصطحاب ما يكفى من الماء والطعام لأن يسمح بأن تقطع هذه الرحلة فى ضعف المدة السابقة، وفى المقابل تُتاح فترة كافية مـــن الراحـــة للإبل والرجال كل يوم.

---

(٣١) واحة تبعد عن منخفض الكفرة بنحو ٢٠٠ كيلومتر فى اتجاه الشمال. "المترجمان"

تحركت إبلنا فى البداية على مضض؛ لأنها تركت للتو رعيًا جيدًا، وهى بالأحرى تفضل العودة إليه.

وقد حاول بوحليجا بكل ما فى وسعه إقناع أفراد التبو التجار بأن يتقدموا القافلة بإبلهم، إلا أنهم رفضوا بمهارة؛ فشرف تقدم الصف أمر شاق؛ لأن الإبل مستعدة أن تتبع من يتقدمها، لكنها لا تحب أن تتقدم إلى الأمام اعتمادًا على أنفسها؛ لذا يصبح لزامًا أن يُقاد أول جمل فى القافلة، وغالبًا ما يضرب بالعصا حتى يستحث على التقدم؛ لذا فضل أفراد " التبو" أن يشغلوا ذَيل الموكب حيث لا تحتاج إبلهم لمن يستحثها على السير، إلا أن بوحليجا استطاع بعد ذلك أن يثأر منهم لإصرارهم على اختيار هذا الموقع.

ظل الطقس حارًا وعاصفًا طوال فترة ما بعد الظهيرة، لكن فى المساء قلّت شدة الرياح لتصبح نسمات رقيقة، وارتدت الصحراء كامل سحرها، ووجدت فى يومياتى بعض التداعيات الفكرية والمشاعر التى خامرتنى هذه الليلة حول العودة إلى هذه الصحراء العجوز التى أعشقها، وكنت وقتها أقترب من النقطة التى ضللنا فيها طريقنا منذ عامين.

إنها الصحراء المنبسطة ذاتها، والشعور بالذكريات القديمة. كيف للمرء أن ينسى الصحراء بشمسها الحارقة، ورياحها التى تؤرق هدوء ليلها، وغروب شمسها، وبزوغ قمرها، ثم تلك النسمات الناعمة الصافية، بل كيف له أن ينسى أخطارها المحدقة، والإدراك الكامل لتلك المتع البسيطة التى تحببها الصحراء إلى المرء على الرغم من خشونتها وقسوة عيشها؟!

كوب الشاى

السيجـــارة

الغليون

عبير التبغ المتمايل بفعل النسمات النشطة.

تراقص النيران المشتعلة فوق وجوه أفراد القافلة، سواء العجوز المتجعد، أو الناعم الفتى.

أن ترى الرجال يكدحون، ينجحون، يفشلون، يعانون، فى فضاء آخر من الحياة.

وفوق ذلك كله، أن تكون قريبًا من الله ســبحانه وتعــالى، وأن تشعر بوجوده الدائم.

١٨ مــارس: استيقظنا فى السادسة صباحًا، وتم تحميــل الإبــل بسرعة حيث استغرقت هذه العملية نحو خمس وثلاثين دقيقــة فقــط؛ فالاهتمام الذى أوليناه عند التحميل أول مرة فى "جالو" و"بوطفل" جعل السرعة ممكنة الآن، ورغم هذا فقد بلغت التاسعة صــباحًا قبــل أن نصبح مــتأهبين للرحيل؛ فالبرنامج الصباحى للمخيم ليس من الأمور التى يملك المرء التعجل فيها بأمان؛ فالبدوى لا يحب مطلقًا أن يتعجله أحد أثناء تناول وجبته، أو أن يُحرَم من دقائق الراحة التى تلى ذلــك، والتى تعد أحد الأمور الجوهرية فى منظومة سلامه النفسى، ورضائه الروحى، والقائد الحكيم سوف يدرك أن التحامل على الرجال فى هذا الأمر يجب أن يُؤخذ بحذر.

* * *

وربما يعد هذا الموضع ملائمًا للغاية لأن نعرض للخطوط العريضة لأحد أيام السفر النمطية فى ظل الظروف التى سادت حتى وصولنا إلى "أركينو".

على الرغم من أننا كنا فى شهر مارس، فقد كان الجو لايزال باردًا فى الصباح، والمرء يستيقظ غالبًا بعد الفجر بقليل؛ لأن البرودة القارصة تحول دون أن يستمر فى فراشه أكثر من هذا؛ فحتى أكياس النوم والبطاطين البدوية لا تفلح فى حماية الجسم من قشعريرة البرودة، أختلس النظر للخارج عبر حاشية خيمتى فألمح النجوم لاتزال صامدة فى السماء، وأن أحدهم قد أشعل النار بالفعل، ولعل الحافز الأول للخروج من خيمتى هو أن أتوجه إليها دون تأخير، ألتحف بجيردى وأحكم ربط الكوفية حول أذنى، وأندفع بسرعة صوب اللهب المتطاير؛ إذ لا يوجد شىء حار فى الصحراء فى ساعات الصباح الباردة سوى هذه النار، أقف بجوارها واتطلع حولى، لا تزال أمارات الحياة فى المخيم محدودة حتى الآن. وعلى الرغم من أن كل الرجال قد استيقظوا؛ فهم يحتشدون معًا بحثًا عن الدفء، يلتفون فى جيردهم وفى كل ثوب آخر تستطيع أيديهم أن تقع عليه، وعندما يكون الماء وفيرًا تدور أكواب الشاى الساخنة، وبعد أن يشرب الجميع تُوزع مهام العمل فى المخيم؛ فيتوجه الجمَّالون إلى الإبل ليطعموها بالبلح الجاف، الذى تمضغه الدواب بالكامل بما فيه من نوى، ثم يبدأ التشاور حول الإبل؛ فإذا ما عانت إحداها فى اليوم السابق من ثقل الحمولة، فربما يتقرر نقل هذه الحمولة أو قد يُوصى بحزمها وتحميلها.

بينما يقوم الرجال الآخرون بجمع الخيام الثلاثة التي تشغل رءوس مثلث تقف الإبل في مركزه، أما الأمتعة التي استخدمت كحواجز للرياح الباردة، فتصنف وترتب استعدادًا لتحميلها.

وفي هذه الأثناء أنكب على البارومتر والترمومتر، وأسجل قراءتيهما في موضعهما في يومياتي العلمية، وأرى إن كانت الكاميرات بها أفلام كافية أم لا.

مازال صوت الرجال في المخيم خافتًا بعض الشيء، تحجبه الكوفيات والملابس الإضافية. أخيرًا أعد الإفطار، الذي قد يكون "عصيدة" – طبق البدو القومي، وهو نوع من البودنج، يُطهى من الدقيق والزيت والتوابل – وقد يكون أرزًا، وهما في كلا الحالتين يعدان وجبة بسيطة بكل ما في الكلمة من معنى، إلا أنه مع شهية المرء المفتوحة يهجم عليها بنهم شديد. ففي الصحراء أي نفور من وجبة الطعام الأولى في اليوم قد تشعر المرء أنه بعيد عن الديار.

ينتهي الإفطار دائمًا بثلاثة أكواب حتمية من الشاي، تُشرب على مهل وباسترخاء بالغ، ومهما يفعل أحدهم، فعلى المرء ألا يحرم أي فرد من شرب الشاي أو يتعجله في شربه؛ فالبدوي إذا أعطيته وجبة تشبعه، وسمحت له بعد ذلك أن يرتشف ثلاثة أكواب من الشاي على مهل، سوف تحصل منه على أي عمل تريده، أما إذا بخلت عليه أو تعجلته فسوف تحصل على عمل أسوأ من عدمه.

بعد الإفطار يشعر الكل بالدفء والسرور، ويكونون مستعدين للعمل الشاق. يتم التحميل بسرعة، ويتباين زمن هذه العملية نتيجة للسلوك الغريب لبعيرين أو ثلاثة من صغار الإبل العابثة، وهو أمر

يحدث فى كل قافلة؛ فهذه الإبل الصغيرة تقاوم وضع الأحمال فوق ظهورها، بل إنها قد تلقى كل أحمالها بعد أن ينتهى التحميل تمامًا؛ لذا يكون زروالى وعبد الله يقظين ليتأكدا من أن التحميل قد تم بعناية ودقة بالغة؛ فنصف ساعة زائدة تبذل الآن قد توفر من ساعتين إلى ثلاث ساعات يوميًّا بعد ذلك على الطريق بسبب انزلاق الحمولة أو التوزيع الخطأ للأحمال.

وعندما تصبح القافلة كلها مستعدة، أتبادل بضع كلمات مع الدليل عن اتجاه سيرنا اليوم، فيرسم خطًّا على الرمال ويشير إليه ويقول "من هنا يمتد طريقنا"، فأرصد اتجاه الخط ببوصلتى، وهو الأمر الذى يبدو له - بلا شك - منافيًا للعقل، وإن كان ذلك لا يضيرنى؛ فقد كنت أحب أن أكون قادرًا على التحقق بواسطة بوصلتى من الاتجاه الذى تسلكه القافلة على مدار اليوم، وبصفة عامة أثبت الحذر عدم جدواه؛ فسنوسى بوحسان كان يتوجه إلى مقصده مثل الحمام الزاجل، باستثناء حلول يحل منتصف النهار؛ فقد كان فى ذلك الوقت يحيد قليلاً عن وجهته، ففى أثناء النهار كان يسافر بهدى ظله الذى يختفى عند منتصف النهار، أو كما قال لى "عندما ترتفع الشمس ويصبح الظل بين قدمى عندها تدور رأسى"، وهناك ساعة أخرى فى اليوم تصبح مهمة الدليل عندها صعبة، وهى ساعة الشفق، بين غروب الشمس وظهور النجوم"؛ ففى هذا الوقت تصبح كل الاتجاهات فى الصحراء الشاسعة واحدة، وعندها تصبح البوصلة ذات فائدة كبيرة.

ففى إحدى المرات واعتمادًا على الاتجاه الذى رصدته فى الصباح، فوجئت فى الفترة بين غروب الشمس وبزوغ النجوم أن

الدليل ينحرف بنحو ٩٠ درجة عن وجهتنا الصحيحة، ولكن تلك المرة يجب ألا تُؤخذ مقياسًا، خاصة وأن دقة الدليل الجيد - مثل سنوسى بوحسان - فى معرفة وجهته تعد خارقة للطبيعة.

انتهى حوارنا، وتم تحميل آخر الإبل، وتقدم الدليل القافلة، وتبعته الإبل الواحدة تلو الأخرى.

كما دفَّأ أفراد القافلة أيديهم وأقدامهم للمرة الأخيرة على النار التى أوشكت على الإخماد، ثم دسوا أقدامهم فى الأحذية البدوية، وهرولوا خلف الإبل، وهم يغنون بابتهاج. الشمس أصبحت دافئة الآن، وإن لم تكن هناك رياح قوية تهب من الشمال، فسرعان ما يتخلص المرء مما يلف به أذنيه وعنقه ثم فى النهاية من جيرده، وتُلقى الملابس الإضافية فوق ظهور الإبل، وتبدأ النكات فى التقارع، وكذلك سباقات العدو على الأقدام، وتشعر أن كل فردٍ سعيد بأنه لا يزال على قيد الحياة.

وتدريجيًا يبدأ الرجال فى تقسيم أنفسهم إلى مجموعات تتكون كل منها من اثنين أو ثلاثة أفراد ينفصلون على مسافات متباعدة بطول القافلة، يثرثرون حول شئونهم الخاصة أو أمورهم العامة، أما أنا ففى بعض الأحيان أتقدم القافلة، وفى أحيان أخرى أكون على مسافة من نهايتها كى أتحقق من الاتجاه الذى تسلكه، وأستمتع بالانفراد والعزلة.

ومع اقتراب الظهيرة، تبدأ بعض الأفكار الأقل شاعرية فى الانتقاص من استمتاعى ببهاء الطبيعة؛ إذ يتساءل عقلى أحيانًا عن المطاعم المفضلة التى توجد حيث الحضارة البعيدة؛ فأحيانًا كنت أتخيل نفسى فى مطعم الشواء بشبرد القاهرة، وأنا أطلب جمبرى على

الطريقة الأمريكية مع الأرز بالخلطة على الطريقة الشرقية الذى يشتهر به المطعم، أو أننى فى مطعم "بروينيه" بباريس حيث أطلب مارينيه فير أوسيند ومعه ستيك وسوفليه، أو فى "كوفا" بميلانو أطلب طبقًا لذيذًا من الريزوت ألاميلانيز أو ربما فى " ريتز " بلندن أُطلب ستروبيرى ميلبا، أو فى منزل والدى بالقاهرة أتناول طبق شركسية من الأرز وشراب اللوز، التى تعد قطعة فنية تخصص فيها أحد الخدم كبار السن العزيزين الذين يديرون منزل والدى فى القاهرة، والذى يحتل مكانة خاصة أشبه بمكانة المربية التى خدمت طويلاً لدى إحدى الأسر الإنجليزية. وفجأة أجد أحمد أو عبد الله يتجهان صوبى، ودون كلمة واحدة، أجدهما يضعان فى راحة يدى كيسًا من التمر اللين - تلاشت الأحلام - ورغم كل هذا أتناوله بنهم شديد، كما لو لم يكن هناك طعام ألذ منه فى العالم كله.

لا نتوقف من أجل الغداء، طالما أن الإبل تأكل مرتين فى اليوم فقط، وإذا كنا قد غادرنا للتو إحدى الواحات، فإنه قد يكون هناك خبز طازج، نصف رغيف أو ربما رغيف كامل لكل فردٍ مع حصته من التمر، وبعد ذلك يصبح هذا الخبز الطازج خبزًا جافًا قاسيًا، وربما لا يصبح هناك خبز على الإطلاق، ولكن التمر يوجد دائمًا.

كان لدى جمل جُهز بهودج فوق ظهره؛ لذا كان أى فرد منا يستطيع أن يتمدد ويستريح فى داخله عندما يتعب من السير، وكان أحمد يدعوه "النادى"، حتى إنه فى أحد الأيام بينما كنا فى وقت الغداء، سأل عبد الله عنى وهل أخذت حصتى من التمر والخبز أو لا؟ فأجابه أحمد وهو يغمز بعينه ووجهه تكسوه سمة الوقار "البيه النهاردة بيتغدى فى النادى".

ومن الممكن بالفعل – إذا ما اعتدت على ذلك – أن تغفو فوق ظهر الجمل، وليس هناك ما يدعو للازدراء فى امتطاء الإبل، ولكن بصفة عامة فإن المرء يسير؛ لأن امتطاء الإبل أكثر إيلامًا من السير على الأقدام، وسرعة الإبل تبلغ نحو ميلين ونصف فى الساعة، ومن السهل على المرء أن يجاريها.

وفى بعض الأحيان، قد تومض فى الأفق أمام القافلة مساحة صغيرة من المياه، ربما تستمر على مدار يومٍ كامل من الترحال، وهى لا تقترب مطلقًا، لكنها تظل تغرى بالبرودة وبدعوة سارة للتقدم حتى تدور الشمس دورتها صوب الغرب ويتلاشى السراب، وبالطبع فإن ما يظهر ليس سوى خداع بصر؛ فلا ماء هناك أو شيئًا من هذا القبيل. وهناك نمط آخر من "السراب" يحدث أحيانًا فى الصباح الباكر، وفيه تبدو النطاقات البعيدة عن المرء كما لو كانت تظهر فى الأفق، أو كما يقول البدو "رأسًا على عقب"، وهو يختلف عن النوع الأول؛ فهو ليس وهمًا بالكامل؛ إذ إنه يعد فى الواقع انعكاسًا مقلوبًا لصورة المنطقة التى تبعد نحو ٣٠ أو ٤٠ كيلومترًا من النقطة التى يقف عندها المرء، وعندما ترتفع الشمس فى الأفق يختفى هذا النوع من السراب فجأة مثلما ظهر، وهناك أيضًا نوع من السراب ينجم عن انعكاس الضوء على الصحراء؛ ففى بعض الأحيان – على سبيل المثال – قد تبدو قطعة الحصى الصغيرة التى فى حجم كرة الكروكيت، التى على بعد ميل كما لو أنها فى شكل صخرة كبيرة ضخمة، تقف كعلامة أرضية، بينما تتخذ الهياكل العظمية للإبل أو البشر أشكالاً عجيبة، إلا أن البدو يعرفونها جيدًا.

ومن السخف القول إن السراب قد يغوى البدوى على أن يضل طريقه أو حتى يقوده إلى الهلاك؛ فمن تعوَّد السفر فى الصحراء يعرف السراب عندما يراه، بل إنه من الممكن بالفعل أن تعد ظاهرة انقلاب الرؤيا "رأسًا على عقب" عاملاً إيجابيًّا عند السفر طالما أنها قد توحى بطبيعة الأرض التى تمتد فى المواجهة؛ فالسراب ظاهرة مثيرة، لكنه ليس من مخاطر السفر فى الصحراء.

عند الظهيرة يكون هناك بضع ساعات من الحرارة تقل معها سرعة الإبل، وتصبح القافلة كلها هادئة وناعسة، وعندما يأتى المساء ويصبح الجو باردًا فإن الإبل تزيد من سرعتها مرة أخرى، إلى أن تصل إلى كامل لياقتها قبل الوقت الذى سنخيم فيه، ويغنى الرجال للإبل لكى يزيدوا من جهدها، وفى المقابل تستجيب الإبل بابتهاج لهذا التشجيع.

والأغانى بسيطة وشاعرية، ومليئة بأجواء الحياة فى الصحراء، فإحدى هذه الأغنيات تتخيل بدويًا ينتظر قافلةً فى إحدى الواحات من المتوقع وصولها.

وهو يغنى للإبل المقتربة:

انقضى الليل

هيا يامرازم إلى سماء الصباح

هلمَّ بنا

بدد مخاوفنا

ويتحدث المغنى إلى إبله قائلاً:

الكثبان الرملية

بدت أمامنا

وتحدد الطريق للديار

ويخاطب المغنى إبله:

الكثبان الرملية تخفى العديد من الآبار

التى تفيض بماء لا ينضب

سوف نصل إلى حدودها التى تشبه الأساور

المزينة بالذهب والجواهر النادرة

وفى أغنية أخرى لا يزال المغنى يخاطب إبله قائلاً:

الآبار تختفى فى الكثبان

خلف أقنعة الرمال المنجرفة فوقها

تقترب منها فرادى وأزواجًا

آه يا من تبوح بأماكنها المخفية

وفى الأغنية الأخيرة التى سوف أذكرها تبين السلوك التقليدى للبدوى تجاه جمله؛ فهو أغلى ما يملك، ومن العار أن يتركه للموت دون صراع؛ فالبدوى قد يصبر على الانتقام من مقتل أخ أو ابن، ولكن إذا سُرق جمله، فإنه لن يهدأ حتى يجده ويعيده بقوة الذراع إذا ما تطلب الأمر ذلك، حتى إن البدو يقولون "إن مَنْ لا يخاطر بحياته من أجل جمله، لا يستحقه"؛ لذا يغنى قادة الإبل لدوابهم قائلين:

من أجل خاطرك

يا من تدللنا

كما تدلل الأم الحنون أطفالها

من أجل خاطرك

أبناء النبلاء

يمددون فوق الرمال

بلا قبر أو دفْن

ويلائم الرجال الأغنية بحسب المناسبات التى تُقال فيها؛ فالأغنية الأولى تستخدم عندما لا تكون الواحة بعيدة، بينما الثانية عندما تقترب القافلة من أحد نطاقات الكثبان الرملية، أما الثالثة والرابعة فعندما تكون قريبة من البئر، بينما تقال الأخيرة عند دخول أقاليم معادية.

وقت غروب الشمس كنت أحرص دائمًا على أن أكون بالقرب من الدليل، وبشكل سرى أراجع معه اتجاهنا من خلال بوصلتى فى ساعات الشك التى تسبق بزغ النجوم.

وعندما يحلُّ الليل كان المصباح يُشعل ويُعطى للدليل، وعندها نتبع فى الظلام تلك النقطة المتحركة من الضوء الأصفر الشاحب؛ فهى تومض بدعوى محرضة على أن نتبعها، لكننا لا نصل إليها مطلقًا، والإبل تحب أن يوضع المصباح أمامها، وتتحرك برشاقة لتلاحقه، وبعد اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة ساعة من السير المتواصل - إذا كانت الظروف مواتية - نصل إلى نهاية يوم من الترحال، على الرغم من أننا لم نكن نصمد كل هذه المدة فى معظم الأحيان.

"الدار يا عيَّان" جملة يصيح بها الدليل، ويكررها وراءه كل رجل فى القافلة، وعندها يجمع الرجال الإبل، ويقسمونها كالتالى: التى تحمل المياه تقف هنا، والتى تحمل الخيام هناك، بينما التى تحمل الأمتعة من أجل الحواجز تقف أبعد.

بركت الإبل، مع أصوات الرضا، بعد أن وضعت عنها أحمالها، والآن يجب علينا أن نكون يقظين؛ لأن الرجال المجهدين من عناء يوم السفر يصبحون أقل مبالاة، حتى إنهم يتركون الصناديق تسقط على الأرض بكل عنف بكل ما فيها من أدوات ثمينة وكاميرات.

يتم ترتيب الأمتعة فى شكل حواجز إذا ما كانت الليلة تنذر بأن تصبح عاصفة، وتنصب الخيام فى شكل مثلث، ما لم تكن الليلة هادئة وصافية.

لم أستطع يومًا أن أقرر أية لحظات كنت أشعر فيها بالرضا أكثر، أعندما تنصب الخيام بعد يوم شاق من الترحال، أم عندما تحل وتجمع تمهيدًا للعودة إلى الطريق مرة أخرى؟!

وفى هذا الوقت تُشعل النيران، ويُلقِى لهيبها المتطاير بالدفء فوق الرمال، وأول شىء يعد هو الشاى، وقد أصبحت أدرك تمامًا القيمة الفائقة لهذا السائل داكن اللون مر المذاق المُحلَى، الذى يعرفه البدو بهذا الاسم؛ فهم يعدون الشاى بأخذ حفنة من أوراقه وحفنة من السكر ويغلونهما معًا فى وعاء من الماء، والنتيجة قد تعدها ربة المنزل فى الغرب شيئًا أشبه بالجنون، لكنه منبه رائع يفيد بعد يومٍ شاق من الترحال فى الصحراء، ومنعش جيد لطاقة المرء وروحه.

لا يتباطأ أفراد القافلة فى إعداد وجبة المساء والتهامها؛ لأن عليهم بعد ذلك إطعام الإبل وإعداد أنفسهم للنوم، أما أنا فأقارن ساعاتى الست، وأملأها، وأسجل بيانًا بالصور التى التقطتها خلال اليوم، ثم أُغيِّر الأفلام السينمائية فى الظلام، وأصنف العينات

الجيولوجية التى جمعتُها وأخزنها، ثم أدون يومياتى، ويعيننى كوب الشاى البدوى الذى أشربه على استكمال كل هذه الواجبات، بل قد ينشطنى فى بعض الأحيان ويساعدنى على أن أسير فى الصحراء، فإذا لم تكن هناك رياح باردة قارصة، قد أسير لما يقرب من نصف ميل، وفى هذه الأثناء أنظر خلفى - من وقت إلى آخر - إلى ظلال القافلة، حيث الكتل السوداء للخيام، والأمتعة، والإبل الباركة التى تشبه لمسات هنا ولمسات هناك فى لوحة فاتنة، ولهب النار التى تحتضر فى منتصف هذا البحر الشاسع من الرمال يزيد الصورة غموضًا وخيالاً؛ فكل شىء حولى صامت، فلا توجد رياح تحف بأوراق الأشجار، أو صوت خرير مياه كالتى تتدفق من الغدير مثل التى يسمعها المرء فى الغابات البرية، ولا أصوات ضربات أو طرطشة الأمواج عندما تتكسر على جوانب السفن كما هو موجود دومًا فى البحر. لا شىء سوى الصمت، صمت الرمال والنجوم!

الفصل الحادى عشر

الطريق إلى بئر زيغن

«اعتبارًا من هذه النقطة سوف أُدوِّن
الأحداث كما سجلتها فى يومياتى».

الأحد ١٨ مارس: بدأنا السير فى التاسعة صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة والنصف مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ما يربو على ستة وأربعين كيلومترًا. بلغت درجة الحرارة العظمى ٢١ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٣ درجات مئوية. ظلت السماء ملبدة بالغيوم طوال اليوم، وإن صفا الجو فى المساء، كما سقطت بعض قطرات من المطر خلال فترة ما بعد الظهيرة، وتعرضنا لهبوب رياح شديدة من الشمال الشرقى، زادت حدتها بحلول الثانية والنصف ظهرًا لتصبح عاصفة رملية، ثم هبطت مع غروب الشمس، وعادت للنشاط من جديد فى الثامنة مساءً.

احتجبت الشمس، ولم يعد تقدُّم الدليل مستقيمًا كما هو معتاد، الأمر الذى تبينتُه من البوصلة التى كنت أحملها وأتحقق منها فى أثناء اليوم، وبحلول الخامسة والنصف مساءً ظهرت الشمس وصحح الدليل وجهته. وفى السابعة والنصف مساءً اعتمد فى سيره على هدى نجم الشمال، والذى يسميه البدو "الجدى".

كانت الأرض التى نجتازها تشبه - بصفة عامة - تلــك التــى عبرناها بالأمس، على الرغم من وجود تموجات طفيفة، كما كنا نمر على مدار اليوم برقع من الحصى الكبير داكن اللون.

فى الصباح حدث شيء مثير؛ فقد رأينا فى الأفق سلســلة مــن النقاط الغائمة التى تعنى اقتراب طليعة قافلة ما، وجاء دور نظــارتى المعظمة التى تنقلت بين الرجال وحــولهم، وسُــحبت البنــادق مــن مواضعها فوق ظهور الإبل، وهرع أفراد " التبو " ليحضروا حرابهم، ورتب الرجال أنفسهم على جانبى القافلة انتظارًا للمقترب، واســتعدادًا حتى نكتشف هوية القادمين: أهم أصدقاء أم أعداء؟ ولم يتطلب الأمر وقتًا طويلاً حتى اكتشفنا أنهم أصدقاء، ثم التقى رجال كــلا الفــريقين وجلسوا القرفصاء بين القافلتين ليتبادلوا الأخبار، بينما كانــت الإبــل تتهادى فى سيرها، وتدفقت الألسن بما سمعتَ وأُخبرت عمَّن تــزوج، ومَنْ وُلِد، ومَنْ تُوفى، ومَنْ ربح مالاً، ومــا الضــغائن والنزاعــات الجديدة التى بدأت؟ وما القديمة التى انتهت؟! وبعدها تفــرق الجمــع، وكل منهم يدعو للآخر، ثم هرولوا كل خلف قافلته (تلك هى طريقة عمل وسائل الاتصال اللاسلكية فى الصحراء).

الاثنين ١٩مارس: بدأنا فى الثامنة والربع صباحًا، وتوقفنا فــى الثامنة والنصف مساءً، قطعنا فى هذه الأثناء نحــو ٤٩ كيلــومترًا. بلغت درجة الحرارة العظمى ٢٢ درجة مئوية، بينما بلغــت درجــة الحرارة الصغرى ٥ درجات مئوية، ظل الطقس هادئًا وصافيًا، مــع هبوب رياح قوية من اتجاه الشمال الشرقى، توقفت فــى منتصــف النهار، كانت الشمس قائظة مما جعل تقدمنا بطيئًا، ولكــن المســاء

كان باردًا، مما زاد من سرعة سيرنا، كانت الأرض منبسطة للغاية يكسوها الحصى الدقيق، وفى السادسة مساءً عبرنا منخفضًا بسيطًا يبلغ اتساعه نحو الكيلو مترين، وتوجد به رقع من الأحجار الرمادية فى جانبه الأيمن والأحجار البيضاء فى جانبه الأيسر.

كنا نسير جميعًا - إبلاً ورجالاً - بخطوات واسعة، وأطلق أفراد البدو والتبو العنان لسباقات العدو على الأقدام، وتبادلوا المقالب والنكات.

و"التبو" هم أناس بسطاء بدائيون، يتسمون بعادات طريفة وساذجة، ولكونهم فقراء فإنهم يحرصون أشد الحرص على ممتلكاتهم، وهم يرتدون قميصًا بسيطًا من القطن وزوجًا من السراويل، ويبذلون قصارى جهدهم ليحافظوا على هذا الرداء قدر الإمكان؛ فعندما يمتطى فرد التبو جمله - على سبيل المثال - فإنه يخلع سرواليه، ويعلقهما على ظهر جمله، ليحافظ عليهما من البلى والتمزق، وعندما ينام فإنه يخلع ثوبه أيضًا ليحميه من الاحتكاك بالرمال، ويكتفى فقط بلف نفسه فى عباءة من الفرو.

وبينما كان أحد أفراد التبو يمتطى جمله فى هذا اليوم، قام بعض البدو بأخذ سرواليه وأخفوهما، وعندما ترجل عن جمله وبحث عنها، أصابه الفزع فى التو لتصوره أنهما قد يكونا قد سقطا فى أحد أماكن الصحراء فى أثناء سيرنا، ودون لحظة تردد، أدار وجهه وعاد بسرعة من الطريق الذى جاء منه ليبحث عن ممتلكاته الثمينة، وقبل أن تتملكنا الشفقة عليه ونطلق بضع طلقات لكى نطلب منه العودة، أصبح جسمًا دقيقًا وسط امتدادات الرمال الشاسعة، وسرعان ما عاد

إلينا على مضض بوجه مكتئب، ولكن مرح المازحين أخبره أن في الأمر شيئًا ما، وعندما برز سروالاه بدا سعيدًا جدًّا باستعادتهما رغم استيائه من تلك المزحة.

في الليلة السابقة زارت خيمتي بعض الإبل، وهددت بأن تسقطها فوق رأسي؛ فالإبل حيوانات ذكية، تحب أن تحكَّ رقبتها في حبال الخيمة. وعندما ينام المخيم كله، تسعى للحصول على هذه المتعة البريئة، ويبدأ الأمر بأن تُدخل إحدى الإبل رأسها إلى حاشية خيمتي، لترى إذا ما كنتُ مستيقظًا أو لا، فإذا لم تسمعني أمتعض من تطفلها تدرك وقتها أنني نائم، فتخرج رأسها وتبدأ في حكِّ رقبتها في حبال الخيمة، وسرعان ما ينضم إليها آخرون، عندئذٍ أستيقظ وقد تملكني شعور بأن خيمتي تهاجمها عاصفة شرسة.

كان كل يوم يزداد إعجابي ببوحليجا كرفيق سفر؛ فقد كان رجلاً قليل الكلام ذا قلب كبير وروحًا كريمة، يحظى باحترامنا جميعًا، منحه عمره وشعر لحيته البيضاء هذا الوقار؛ لأن الخبير في الصحراء هو ذلك الشخص الذي يملك الحكمة التي تأتي إليه بمرور الزمن، وهي لا تقدر بثمن؛ لذا كنت أنا وزروالي نعول باستمرار على حكم ذلك الرجل، وكان لبقًا في عرض اقتراحاته فيما يتعلق بآرائي، وكنت حكيمًا بالقدر الكافيَ كي لا أستخف بها.

كان مثابرًا في عنايته بالإبل، وطوال اليوم تسمع صوته الرائع وهو يوجه الرجال أو الإبل؛ فيقول لعبده " الجمل الأبيض مرهق. غدًا يا إبراهيم سوف ننقل حمولته على الجمل البني العجوز"، أو يأمره قائلاً: " تحدث معهم يا رجل، تحدث معهم" عالمًا أنه من الأفضل أن

تسافر الإبل في ظل التشجيع، ومرة أخرى يقـول: " غـنِّ لهـا يـا إبراهيم"، كما كان يحث الإبل بقوله:"اتبعوا الدليل أيتها الإبل الجميلة"، أو يصيح " تعالَ معى يا حامد هذا السرج تزحزح من مكانه سـوف يؤلم ظهر الجمل"، وعندما يحل الغروب يصـدر أوامـره" أشـعلوا المصابيح، فالإبل تُسَرُّ بها".

وتعد الإبل ذات صفات نادرة جدًّا إذا ما قدرناها حـق قـدرها، وفي ضوء معرفتنا الضئيلة، فهي في مهارة الحصـان إن لـم تفقـه مهارة، كما أنها في بعض المواقف تصبح أكثر آدمية، ومن الأقـوال العربية المأثورة " صبور مثل الجمل " وهي مقولة صادقة؛ فإذا مـا أسأت معاملة أحد الإبل فإنه لن ينسى مطلقًا تلك الإساءة، لكنـه لـن يهاجمك في التو، بل سوف ينتظر ويصبر، وإذا ما كررت الإسـاءة مرة ثانية وثالثة، فإنه سوف يعقد عزمه على الانتقام منـك، ولـيس بالضرورة أن يكون ذلك على مرأى كثير من البشر، فهو هنا سـوف يسلك سلوكًا أكثر آدمية؛ إذ سوف يتحين الفرصة حتى يصبح معـك على انفراد، ثم يسعى نحوك، إما من خلال الإمساك بك بفمـه، ثـم إلقائك على الأرض، وإما أن يرفسك ثم يطأك بأقدامه. وهناك واقعـة مشهورة عن جمل ضرب رجلاً بأقدامه ثم بـرك فوقـه رافضًـا أن يتحرك حتى بعد أن عوقب من الرجال الذين هبُّوا لإنقاذ الضحية، بل إنه ظل منتظرًا ليتأكد من أنه نجح في الإجهاز علـى هـذا الرجـل، والذي أجهز عليه بالفعل.

ويتخيل كثير من البشر أنه في الصحراء لابد من أن تُربط الإبل بحبل وتجر، ولكن واقع الأمر أنه من العسير جدًّا أن تُبعد جملاً عـن

باقى القافلة؛ لأنه بالغريزة يدرك أنه إن تُرك فى الخلف فقد تُرك للموت؛ لذا يظل قريبًا من القافلة قدر الإمكان، ومن المشاهد الحزينة أن ترى جملاً يشرد فى الخلف؛ إذ إنه يصبح مثل الجندى فى تقهقره، عندما يكون غير قادر على أن يظل مع رفاقه، عالمًا أنه لايوجد مَن يستطيع حمله، وأن تركه فى الخلف يعنى كارثة له.

ويبرز ذكاء الجمل عندما يُؤخذ من واحة ما ويُدفع إلى رحلة فى قلب الصحراء، فإنه بالغريزة يحاول فى أثناء الليل العودة إلى الواحة التى خرج منها، حتى ولو مضى على رحيله ثلاثة أو أربعة أيام.

وهناك بعض مآسى الصحرء التى تبدأ أحداثها عندما تترك الإبل كلها الرجال فى أثناء الليل، سواء فى رحلة الذهاب أو فى رحلة العودة عندما تكون القافلة على بعد أيام من مقصدها، أو كما يحدث فى حوادث أخرى مع الإبل التى اعتادت السير على الطريق نفسه لمدة عشرة أو خمسة عشر عامًا؛ إذ إنها قد تكمل الرحلة بمفردها.

كما حدث عندما كنا نقترب من " جالو"، وتحديدًا على بعد ثلاثة أيام سفر من خيام البدو الذين استأجرت منهم ثلاثة من الإبل؛ إذ مرض أحدها مرضًا ميئوسًا منه، فوزعت حمولته على الجملين الآخرين، وترك فى الصحراء، وكم تجادلت مع البدو طالبًا منهم أن نقتله ونوفر عليه عناء عذاب الموت، بل إننى عرضت عليهم أن أدفع ثمنه إذا ما سمحوا لى بأن أضع حدًّا لنهايته، ولكن لأن الجمل كان ذا أصل نبيل فقد رفضوا عرضى هذا، وقالوا " إنه فقط يشعر ببعض التعب، وسوف يعود على راحته إلى المخيم"، وعلمت بعد ذلك أن الجمل رجع بالفعل إلى دياره، وأصبح على ما يُرام.

وتعرف الإبل بالغريزة أيضًا أن لها دليلاً يقودها؛ فإذا ما توقفت القافلة فى منتصف الصحراء لمناقشة بعض النقاط المتعلقة بالطريق، فستجد الإبل قد احتشدت حول الدليل، وفى اللحظة التى يتحرك فيها سوف تتبعه، متجاهلة وجود أى شخص آخر فى القافلة، لكنها لن تتجاهل الدليل مطلقًا، أما إذا ما تجاهل أحدها الدليل واستمر فى التقدم مباشرة على رأس القافلة؛ فعندها قد يكون من الأمان للقافلة أن تتبعه؛ لأنه بكل تأكيد يعرف المكان الذى تنشده القافلة، بل إن البدو يقولون إن الجمل إذا رعى ذات مرة فى أية واحة، فإنه سوف يعرف طريق العودة إلى تلك الواحة حتى وإن كان على بعد مسيرة أيام منها.

وهناك حكاية بدوية شهيرة تروى أن جملاً وطهيوجًا رمليًا(٣٢) تنافسا؛ فقال الطهيوج "إننى أستطيع وضع بيضى فى وسط الصحراء وأسافر أيامًا عديدة ثم أعود وأرقد عليها"، فرد عليه الجمل قائلاً "أما أنا فإذا ما شربت أمى من إحدى الآبار، وأنا مازلت فى رحمها، فإننى أستطيع السفر أيامًا ثم أعود وأشرب من البئر ذاتها".

وقد رأيت بنفسى أحد الإبل قاد قافلة عندما كنا على مسافة أربعة أيام من إحدى الآبار التى شرب منها منذ أربع سنوات مضت. وهناك واقعة أخرى شهيرة عن جمل أنقذ قافلة كانت تتوجه من واحة "الداخلة " إلى واحة "العوينات"، وكان دليلها لم يقطع هذه الرحلة من قبل، لكنه كان يقودها اعتمادًا على وصف بدوى آخر، وقد التبس الدرب عليه، وظلت القافلة تهيم لمدة اثنى عشر يومًا بلا هدف، ونفد الماء الذى معهم وفقدوا كل أمل فى النجاة، وفجأة تقدم أحد إبل القافلة

---

(٣٢) طائر من فصيلة الدجاج." المترجمان"

وتبعوه؛ فقد كان فى "العوينات" قبل ذلك بعدة سنوات، وعندما أصبح على مسافة سفر يومين منها، تنسم رائحة المكان كما يقول البدو، وتوجه بالقافلة صوب إحدى الآبار هناك.

وتستطيع الإبل المدربة تدريبًا جيدًا أن تصمد أسبوعين بلا ماء فى فصل الشتاء، بينما تصل هذه المدة لنحو اثنى عشر يومًا فى فصل الصيف.

ويحاول البدو دائمًا إطعام إبلهم عشبًا أخضر إذا ما استطاعوا؛ لأنه عندما يأخذونهم إلى " الدفا"، أو إلى رحلة طويلة بلاماء، فإن طعامهم يقتصر على التمر الجاف، وعلى الشعير إذا ما استطاعوا توفيره.

ومعظم الإبل التى توجد فى "برقة " هى إبل "حمالة" أو إبل للحمل، بينما يوجد نوع آخر هو إبل السرعة، وأفضل إبل السرعة هى إبل التبو أو الطوارق، وهى دواب بيضاء جميلة ذات أوصال نحيلة مع جسد رشيق، ومعدل المسافة التى تقطعها إبل الحمالة فى ظل ظروف سير جيدة تبلغ نحو ٢٥ ميلاً، بينما يصل هذا المعدل إلى نحو ٤٠ ميلاً لإبل الطوارق الممتازة، ومن المعلوم أنها قد تصل فى بعض الأحيان إلى ٧٠ ميلاً.

وقد يصبح الجمل محبًا ومخلصًا لسيده للغاية، حتى إن إبل السرعة أو " الهجن " جيدة التدريب قد ترفض النهوض بأى فرد آخر فوق ظهرها سوى سيدها.

وكقاعدة عامة تُحمل المياه فوق الإبل الأكبر سنًا والأحكم عقلاً، والتى تسير فى رزانة دون أية محاولة للعبث؛ فهى تدرك أنها تحمل

أكثر الأشياء قيمة فى القافلة كلها؛ لذا ففى اللحظة التى تنتهى عندها رحلة اليوم، ويحين وقت إنزال الأحمال، فإن هذه الإبل، الأكبر سناً والأحكم عقلاً تقف منفصلة عن باقى القافلة خوفًا من اصطدام قِـرَب المياه التى تحملها، بل إننى رأيت بعضها يسير حول الخيام ويقترب من قرب المياه الملقاة على الأرض والمغطاة من أجل المساء، وتبذل عناية بالغة لتسير حولها.

وكان لدى أحد الإبل الذى دُرِّب لفترة طويلة على حمل خيمتى وكتبى وأدواتى، وقد اختير فقط لهذه المهمة؛ لأنه كان يبدو قويًّا وكبير السن، وقد اعتاد كل صباح عند التحميل أن يحضر بمفرده ويبرك بالقرب من خيمتى، وبطريقته المألوفة التى لا تخلو من شموخ ينتظر حتى توضع الأحمال فوق ظهره.

ويعد الجمل زوجًا غيورًا وناقته زوجة وفية؛ فالناقة لا تترك سيدها وربها مطلقًا وتتبعه دائمًا، بينما الويل لأى جمل مغامر يجرؤ على محاولة الاقتراب منها.

فى كل صباح ومساء كنت أسير مع بوحليجا ونحن نمتطى دوابنا نتحدث عن الإبل والصحراء وتاريخ البدو، وكنت حذرًا كى لا يصدر عنى أى تساؤل مباشر؛ فالبدو بشر متشككون، ومؤهلون للارتياب فى دوافعك، لكن الملاحظات العابرة من السهل أن تخرج تعليقات ومعلومات مثيرة، ومنها تلك التى رواها الشيخ الجليل "كان هناك زمن كانت فيه الكفرة مجهولة لقومنا، وذات يوم لاحظ أحد البدو من قبيلة "غوازى" التى تتركز فى "الأبيض" - وهى واحة صغير قريبة من بئر بوطفل - أن غرابًا اعتاد الطيران صوب

الجنوب ثم العودة مرة أخرى بانتظام كانتظام شـــروق الشـــمس، رآه لبعض الوقت وبعدها خرج ليتبع مسلكه صوب الجنوب، وفى النهاية وصل إلى "تايزربو"، وبعد يوم توقف عند أطراف الواحة، تزود بمـــا يكفيه من ماء لرحلة عودته، وعندما عاد أخبر قبيلتـــه عـــن أشـــجار النخيل والماء فى قلب الصحراء، فأعدت القبيلة بعثة اتجهـــت نحـــو "تايزربو" واحتلتها، وبعـــدها ذهبت إلى "بوزيمة"، ثم إلى "ربيانـــة"، وفى النهايـــة إلى "الكفرة" ذاتهـــا، وهكـــذا وصل البدو إلى "الكفرة".

أُعجبت بحصان بوحليجا منذ أن رأيته للمرة الأولى فى "جـــالو"، وقد سأل عبد الله من أجلى عما إذا كان من الممكن شـــراؤه، ولكـــن ثمنه كان باهظًا للغاية؛ لذا تظاهرت باللامبالاة وانتظرت فى حينه، لم يكن أحد من عائلة بوحليجا قد امتطى الحصان من قبل عدا الرجـــل ذاته، فلم تكن كرامة العجوز تسمح بذلك، لكنه - بكرم بالغ - ســـمح لى باستخدام الحصان متى كانت لى الرغبة فى امتطائه، وواقع الأمر أنه بدا فى هذه الرحلة أنه ملكى أكثر من كونه ملكًا لـــه.

تعبت ثلاث إبل فى هذا اليوم وبركت على الأرض دون إصدار أى أوامر لها، وهى لا تتصرف على هذا النحو ما لم يكن هناك سبب قوى لذلك؛ لذا نقلنا حمولتها لنسمح لها بالراحة، وفقدنا بعض الوقـــت فى هذه العملية، ولكن سرعان ما استطعنا تعويضه عندما حلت برودة الليل. وجعلتها نقطة للحديث مع كل أفراد القافلـــة فـــى كـــل يـــوم؛ وبالمصادفة ألتقط بعض المعلومات المثيرة.

ففى هذا اليوم تعلمت أن البدو لا يعرفون آثـــار حـــوافر إبلهـــم فحسب، وإنما يمكنهم - غالبًا - أن يقولوا ما إذا كانت الإبـــل التـــى

مرت فى هذا المكان أو ذاك تخص أفراد قبيلتهم أو لا، ويتعرفون على آثار إبل التبو فى الحال نظرًا لشكل خفها المميز والخطوات الواسعة التى تقطعها.

وإبل التبو أكثر بأسًا من إبل البدو، ويمكن استخدامها فى كل من الصحراء الشمالية فى "برقة" وفى الجنوب فى "السودان"، بينما يُغيِّر البدو إبلهم فى "الكفرة" عندما يبغون التوجه إلى الجنوب.

حينما كنت أسير مع سنوسى بوحسان "الدليل" أخبرنى بإحدى الخدع التى يستخدمها البدو عند رعى إبلهم وأغنامهم؛ فهم يحلبون الحيوانات فى الصباح ثم يضعون الحليب فى قرب يطمرونها فى الرمال حتى يحفظوها باردةً، ونظرًا لأن لصوص الصحراء ماهرون ويستطيعون الوصول بسهولة إلى الموضع الذى تدفن فيه القرب؛ لذا فإن البدو الماكرين يدفنون قربتين واحدة أسفل الأخرى. وتُملأ السفلى بالحليب الطازج بينما تُملأ العليا باللبن الفاسد، وغالبًا ما يكتشف اللص القربة العليا ولا يبحث بعد ذلك أسفلها، وبذلك يجد مالك الإبل عندما يعود فى المساء حليبه آمنًا.

فى هذا اليوم قابلنا سربًا من الطيور الصغيرة يطير صوب الشمال، وبدا بعضها متعبًا، وأقبل بتلهفٍ على الماء الذى قدمناه له، حتى إن أحدها حطَّ على يدى ليشرب غير مبالٍ بخطورة هذا الأمر.

وقد يرى المرء فى بعض الأحيان بالقرب من الآبار - التى قد يكون أفضل وصفٍ لها أنها حفر بها ماء - بعض الأجنحة والريش والعظام، التى تروى القصة الحزينة لهذه الطيور؛ فهى قد تكون من

الطيور المهاجرة التى مرت بهذه الآبار ومكثت بجوارها لبضعة أيام حتى تتعافى، وتكون هذه الآبار قد حفرت فى التو بواسطة قافلة عابرة، والماء متاحا بها بسهولة، والطيور ألفت هذه البقعة، وتدريجيًا تطمر الرمال المنجرفة الآبار، حتى لا تصبح هناك مياه أخرى بل بضع رقع من الرمال الرطبة فقط، وفى أحيان أخرى قد تصل الطيور إلى هناك مجهدة للغاية فلا تجد مياهًا ولا تستطيع الطيران نحو ١٠٠ أو ٢٠٠ ميل أخرى بحثًا عن بئر أخرى؛ لذا تبقى وتموت.

بحلول العاشرة والنصف صباحًا مررنا بمجموعة من الكثبان الرملية تدعى "الخويمات"، كانت تبعد نحو ثمانية أوعشرة كيلومترات على يسارنا، وهى تبدو - كما يشير اسمها - على شكل مجموعة من الخيام الصغيرة البيضاء. وفى الرابعة والنصف رأينا على يسارنا أيضًا على بعد نحو ثلاثين كيلومترًا علامة أرضية تُدعى "الفريق"، وهى عبارة عن أربعة تلال رملية تمتد فى صورة صف، وبحلول الساعة السادسة والربع مساءً، رأينا قمة علامة أرضية أخرى تُعرف باسم " المعزول" التى بدت مضببة على البعد صوب الجنوب الشرقى.

كنا جميعًا سعداء برؤية هذه العلامات الأرضية، والتى كانت مؤشرًا على تقدمنا فى الاتجاه الصحيح، ورغم أننا كنا على ثقة من أن معنا دليلاً ماهرًا، فإن الدليل الحقيقى - كما يقول البدو - "لا يُعرف إلا عند البئر"؛ أى فقط عندما يصل المرء إلى نهاية الرحلة، فعندها يصبح هناك يقين أن الطريق الذى سُلك هو الطريق الصحيح.

وقد برهن سنوسى بوحسان على أنه ثاقب البصر بدرجة تدعو للدهشة؛ ففى الصباح الباكر قبل استراحة التخييم أعلن أنه رأى

علامة " الخويمات " على الرغم من ضباب الصباح، وأننا كنا على بعد بضع ساعات قبل أن تستطيع أية عين أخرى فى القافلة رؤيتها.

بعد الظهر مررنا بهيكل عظمى لونه أبيض كان لجمل ممدد على الرمال، ومن الغريب أن يعد هذا الأمر شيئًا سارًا فى الصحراء، لسببين: أولهما أنه مع رتابة المسافات غير المطروقة فإن أية إشارة إلى أن أحدًا قد مر من هذا الطريق تعد أمرًا مشجعًا، والثانية أن عظام الإبل من المألوف أن توجد بالقرب من الآبار؛ فالإبل على الأرجح تموت بالقرب من نهاية الرحلة؛ فعندما ينفد الماء فإنها تناضل حتى النهاية إلى أن يصبح الموت أقرب من الخطوة التالية.

ولا يحب البدو استخدام كلمة هيكل عظمى عند رؤيتهم لما يذكرهم بأن الموت قد مرَّ من هذا الطريق؛ لذا فإنهم يستعيضون عن هذه الكلمة القاسية بقولهم "غزال".

الخميس ٢٢ مارس: استيقظت فى الخامسة والنصف صباحًا، وشاهدت الشمس تشرق فى السادسة وسبع وعشرين دقيقة صباحًا، ودونت هذا الوقت فى يومياتى، بدأنا فى الثامنة صباحًا، وقطعنا نحو ٤٨ كيلومترًا فوق أرض منبسطة تمامًا تكسوها الرمال الخشنة والحصى، وكانت كثبان "المزوول" الرملية على يسارنا على بعد ما يقرب من خمسة وعشرين كيلومترًا، وبحلول فترة ما بعد الظهيرة تجاوزناها.

فى الصباح سمعت زروالى وعبد الله يناقشان أمر شدة تسطح هذه الأرض التى كنا نعبرها، ووجدت زروالى يقول " نعم إن وطننا مبارك"؛ فأجابه الرجل الذى من مصر " نعم، بالطبع، وأنا أؤمن أن

يوم الحساب سوف يكون هنا؛ فهو المكان الوحيد الذى قد يجده الله واسعًا وفارغًا بدرجة كافية ليحشد فيه عبيده".

كان أفراد التبو يجرون طولاً وعرضًا وأمام القافلة وعلى جانبيها، بحثًا عن روث الإبل من أجل الوقود؛ فهم يمضون حياتهم منفصلين قليلاً عن الأفراد الآخرين فى القافلة؛ لذا فهم يحبون أن يشعلوا نيرانهم الخاصة على مسافة قريبة من نار المخيم الرئيسية، وروث الإبل هو الوقود الوحيد المتاح فى هذه المنطقة، وأفراد التبو عداءون شديدو البأس، فقد يذهبون لما يقرب من خمسة أميال بعيدًا عن طريقهم ليجدوا هذه الخامة الثمينة، ولكن البدو كانوا يعترضون على سلوك أفراد التبو من الجرى والاستيلاء على كل الروث الموجود؛ إنها أحد قوانين الصحراء غير المرنة، التى تقضى بأن أى شىء يُعثر عليه فى الصحراء يخص أول من يضع يده عليه، ويحتكم أفراد التبو لهذه القاعدة فى تبرير موقفهم، بينما البدو فى المقابل يردون عليهم بقاعدة أخرى؛ إذ يقولون " أنتم ليس لديكم دليل يقودكم، كما أنكم لم تسمحوا لإبلكم بأن تتقدم القافلة، وحيث إنكم سوف تسيرون دون حاجة لاستخدام العصا، وتريدون منا أن نقود القافلة من أجل إبلكم، بينما تسبقوننا وتجمعون الروث، هذا الروث يخصنا لأنه من المفترض أن نصل إليه أولاً إذا ما ظللتم فى الخلف مع إبلكم حيث يُفترض أن تكونوا".

زاد الجدال حدةً، وفى النهاية حضروا إلىَّ لأحكم بينهم، وقد حكمت بأن البدو على حق، وأنه يجب على التبو ألا تكون لديهم نار بمفردهم وأن يكتفوا بنار المخيم، وفى المقابل يجب أن يمنحوا وجبة

ساخنة من التعيين العام فى كل ليلة، إلا أن التبو كانوا مختلفين تمامًا فى العديد من عاداتهم وتقاليدهم عن البدو؛ فهم غالبًا لا يستخدمون النار فى إعداد طعامهم، برغم أنهم - كما رأيت لا يرفضونها من أجل الراحة والبهجة - إذ إنهم يجففون اللحاء الداخلى لقمم النخيل فوق النار، ويصحنونه ويستخدمونه بعد ذلك فى إعداد نوع من العصيدة التى يدخل فى مكوناتها أيضًا البلخ والجراد المطحونين، وهم لا يدعون أحدًا لمشاركتهم الطعام - بعكس البدو - ولا يمتعضون إذا لم يطلب منهم الآخرون مشاركتهم الطعام، والبدو ينتقدون بشدة النكوص عن واجب الضيافة، ولا يترك أفراد التبو شيئًا خلفهم على الطريق؛ لأنهم يؤمنون بخرافة مفادها أن كل من التقط شيئًا يخصهم سوف ينال منهم، إنهم نموذج مثالى للتناسق البدنى، والعمال المهرة، لكنهم بسطاء جدًّا فى نمط حياتهم وتفكيرهم، إلا أنه مع اختلاطهم أكثر وأكثر بالبدو تعلموا منهم بعض الأشياء.

فى هذا اليوم، مرض أحد الإبل، ووجدت بوحليجا يهبط من جمله ويسير إلى أن أصبح خلف الجمل المريض، ثم استدماه من ذيله، كنا نأمل أن يتعافى بعد ليلة راحة.

ونظرًا لأننا كنا واثقين من مؤننا من المياه فقد قررنا أن نشرب بعض الشاى؛ لذا تقدمت أنا وبوحليجا وزروالى وعبدالله ومعنا الدليل ليدلنا على الطريق الصحيح، وعندما أصبحنا بعيدين بمسافة كافية، أشعلنا النار سريعًا، وأعددنا الشاى، وعندما وصلت إلينا القافلة مررنا أكواب الشاى على أفرادها عندما كانوا يمرون بنا، لذا لم تتوقف القافلة، وعندما مرَّ آخر جمل أطفأنا النار، وجمعنا أدواتنا، وأسرعنا

لنلحق بالقافلة المتهادية، كان بوحليجا علـــى جملـــه بينمـــا عبـــد الله وزروالى يمتطيان معًا أحد الهجن، أما أنا فكنت فوق صهوة الحصان "بركة"، ويجب أنه أقر أن هذا الحصان كان مفيدًا لى فـــى أغـــراض عدة؛ فبواسطته كنت أستطيع بسهولة إحضار الإبـــل مـــن نطاقـــات الرعى، والتى كانت تأبى تركها لتدخل "السريرة" من جديد، كما كنت أستطيع امتطاءه خلال توقفنا فى الواحات كى أزور أمـــاكن تثيرنـــى بينما أترك الإبل تستريح أو ترعى، كما مكننى من تقدم القافلة أو أن أظل خلفها لأسجل ملاحظاتى، وأن أجمع العينات بعيدًا عـــن أعـــين الرجال، وفوق صهوته كنت أستطيع اتخاذ مظهر جليل وأنـــا علـــى رأس قافلتى فى أثناء دخولنا الواحات أو خروجنا منها.

الجمعة ٢٣ مارس: قطعنا خلال هذا اليوم نحو ٣٦ كيلـــومترًا، ظلت الرياح تهب بشدة من اتجاه الشـــمال الشـــرقى طـــوال الليلـــة السابقة، بدأت بعد منتصف الليل بساعة واحدة، واســـتمرت طـــوال اليوم، وإن ازدادت حدتها خلال الفترة من الســـاعة الواحـــدة حتـــى الثالثة، وتوقفت فى المساء، كان الجو صافيًا والرؤية واضـــحة وإن أصبح غائمًا فى نهاية فترة ما بعد الظهر، وفى الساعة الخامسة بعد الظهر رأينا كثبانًا رملية تدعى " المزيل" تقع على بعد ٢٥ كيلومترًا فى اتجاه الجنوب الشرقى.

أصبح الرجال شغوفين بأن يستمروا فى السير يومًا كاملاً؛ لـــذا بذلوا كل ما فى وسعهم ليصبحوا على الطريق فى الثامنـــة صـــباحًا، عازمين على السير اثنتى عشرة ســـاعة متواصـــلة، لكـــن الجمـــل المريض حال دون ذلك؛ فعندما حان وقت الرحيل كان علينا مساعدته

للوقوف على قدميه، وعندها هز بوحليجا رأسه قائلاً " هـذا الجمـل سوف يصبح لحمًا يُؤكل قبل أن ينتهى اليوم"، وبعد ساعتين من ذلـك برك الجمل وأبَى أن ينهض، وخلال دقائق أصبح من اللازم أن يُذبح؛ لذا تركنا خلفنا ثلاثة رجال وجملين ليجلبا اللحم فيما بعـد، وقبـل أن نذهب بعيدًا وجدت بوحليجا يهرول نحونا فوق حصانه قـائلاً " إنـه جمل سمين دعنا نتوقف لفترة"، ولمعرفتى أن البدو يعشـقون اللحـم أوقفت القافلة، وأُشعلت النيران، وأُعدت الوليمة، وأكل كل فرد مـن اللحم إلا أنا وخادماى المصريان، وسألنى بوحليجا لماذا لم أشـاركهم الوليمة؟ فقلت لـه إننى لا أهتم بتناول لحم جمل مـريض. ووجدتـه يقول وهو يشير إلى بعض علب السردين التى كانت معنا " إنه أفضل من هذا السمك الصغير، لقد رأينا الجمل وهو يُذبح، ولكن من يـدرى ماذا حدث لهذا السمك الصغير منذ أن كان فى البحر".

ولحم الجمل الذى لم يُؤكل فى التو، جففه البـدو وقطعـوه إلـى شرائح رقيقة ليستخدموه فى تتبيل الأرز والعصيدة التى سوف تُطهى بعد ذلك.

بعد الظهر عندما عدنا للسير مرة أخـرى، قـال لـى سنوسـى بوحسان إننا إذا واصلنا السير حتى بزوغ القمر الوليد فسوف نصـبح قادرين على تناول غداءنا عند البئر فى اليوم التالى، ولكن عندما جاء المساء أخفت السحب نجم "الجدى" قبل أن يبزغ ذلك القمـر الوليـد، وكان علينا أن نتوقف ونخيم فى العاشرة والنصف مساءً، خوفًا مـن أن نضل طريقنا.

وفى هذا الجزء من الصحراء كان هناك القليـل الـذى يمكـن اكتشافه خارجيًا، ولكن الشىء العظيم الذى يمكن اكتشـافه هـو ذات

المرء، والتى يمكن فقط أن تستدعى للضوء وسط كل هــذا الصـــمت والهدوء، والأمر سواء إن ذهب المرء إلى هذه الرحلة بنيَّـــة العـــودة للحضارة مرة ثانية بأسرع ما يمكنه، أو عاش هنا واستمتع بكل لحظة منها.

وعندما كانت الشمس تميل فى الأفق، رأيــت زروالـــى يجلـــس بمفرده ويرسم بإصبعه بعض الخطوط على الرمال، ثم يتأملها، كَـــان يمارس "اليازرجا" أو "علم الرمل"، والذى يســـتخدمه البـــدو لمعرفـــة طالعهم، وفى اللحظات التى كان يدير فيها بصـــره عـــن الخطـــوط المرسومة على الرمال، كان يتطلع متأملاً فـــى الألـــوان المتوهجـــة لغروب الشمس؛ فالبدو بطبعهم يقدرون الجَمَال، ويُجِلُّـــون الطبيعـــة؛ فكيف لا يفعل هو ذلك؟!

يومًا بعد الآخر كانت الأجواء التـــى نعبرهـــا تكـــاد أن تكـــون متطابقة، حتى إن الصور التى التقطتها خلال هذه الأيام السبعة تبـــدو كما لو أنها أخذت للمخيم ذاته ولكن من زوايا مختلفة؛ لذا فإن تواصل الامتدادات الشاسعة من الرمال القاحلة النائية التى لا يميزهـــا شـــىء عدا هيكل عظمى لإحدى الإبل أو بضع حصوات فى حجم الجـــوز؛ كانت تدفع المرء للسكينة؛ فلم يكن هناك شىء يشغل عقل المـــرء أو يقطع تأمله.

فيا لها من صورة ساحرة تملكها تلك الصحراء النائية! ويا له من تأثير مطهر لعقل المرء وجسده! وكيف لهذه اللمسة المتواصـــلة مـــن اللاتناهى – يومًا بعد يومٍ وليلاً بعد ليلٍ – أن تؤثر فى العقل والروح، وتغير مفهوم المرء للحياة؟! وكيف يبدو سعى المرء صغيرًا وتافهًـــا

فى محيط الحضارة العادية؟ وكيف تبدو جهوده ضئيلة أمام تلك الصحراء؟!

السبت ٢٤ مارس: فى الخامسة والنصف صباحًا، استيقظنا مجهدين؛ فقد أوينا إلى مضاجعنا فى الثانية بعد منتصف الليل. ظل الجو صحوًا وصافيًا طوال النهار، مع وجود نسمة رقيقة هبَّت من الشمال الشرقى فى الصباح، وتوقفت فى منتصف النهار، تاركةً لنا حرارة الجو المرتفعة، وفى العاشرة والنصف مساءً هبَّت رياح شمالية شرقية قوية من جديد.

فى التاسعة والنصف صباحًا بدأت البيئة تتغير قليلاً؛ فالرمال أصبحت أنعم والأرض أقل تموجًا، وفى العاشرة مررنا برقع من الصخور السوداء المهشمة، التى استمرت طوال اليوم. وفى المساء رأينا على يميننا حطب وادى "الزيغن"، وفى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة توقفنا من أجل وجبة ساخنة، واسترحنا بالقرب من أول حطب وصلنا إليه. كانت مؤننا من الوقود قد نفدت فى اليوم السابق، ولم يكن لدينا شيء ساخن لنأكله أو نشربه منذ صباح اليوم الذى قبله، وفى الخامسة والربع مساءً رأينا كثبانًا رملية فى اتجاه الجنوب الشرقى على بعد نحو ٤٠ كيلومترًا تقريبًا، كانت تلك الكثبان تمتد باتجاه الجنوب فى خطٍ يتجه صوب وادى "الزيغن"، وبحلول الثامنة والنصف مساءً بدأت أجمة الحطب فى الازدياد عددًا وامتدادًا.

عندما بدأنا فى الصباح كان أملنا أن نصل إلى بئر "زيغن" فى هذا اليوم، وبعد ذلك ثار جدل حول عدم وصولنا إليها حتى الآن؟!

وألمح بوحليجا إلى أنه ما من شك أن الـدليل مـال كثيـرًا صـوب الغرب، وإلا لكنا قد وصلنا إلى البئر قبل ذلك، بينما جاء زروالـى، الذى اختار بوحسانٍ ليصبح دليلنا، فى صف الدليل، وقـال إننـا لـم نصل لأننا فقدنا وقتًا كثيرًا فى ذبح الجمل وإعداد الوليمة التى أقيمت فى اليوم السابق، أما حامد فقد كان لديه تفسير آخر؛ إذ قال "إن الإبل لا تُقاد طوال الوقت؛ فالمرء ينام ويستيقظ، والإبل لاتزال على مرمى البصر (فقد كان من عادة الرجال أن يتخلفوا عن الركب مـن أجـل غفوة لمدة نصف ساعة تقريبًا، وتساعدهم سرعة الإبل البطيئة والآثار التى تخلفها فى الرمال علـى أن يلحقـوا بالقافلـة بسـهولة عنـدما يستيقظون) لذا قد تكون هى السبب".

وعندما توقفنا لنشعل النار ونتناول أول وجبة ساخنة منذ ثلاثـين ساعة، تذكرت أن هذا الموضع هو بالضبط الذى ضللنا فيه طريقنـا فى الرحلة السابقة إلى "الكفرة " عام ١٩٢١، وبعد تناول الطعام تركنا داوود عم زروالى مع جملـه الوحيد ليذهـب إلى واحة " تايزربو"، التى تقع إلى الغرب مـن " زيغن" على مسافة يـوم سـفر، كـان يعتزم الذهاب إلى هناك ليحضر زوجته وابنته، ويتوجه بهمـا إلـى "برقة" حيث توجد هناك فرصة أكبر للعمل، وقد وافق زروالى علـى أن يساعده فى تدبير شئونه فى هذاِ الإقليم، ولابد من أن الأمر كـان يتطلب إرادة قوية من ذلك الكهل حتى يقطع هذه الرحلة الطويلة إلـى الشمال بصحبة امرأتين وجمل واحد فقط، وقد سألته كيف سيسـتطيع تدبير هذا الأمر؟! فأخبرنى أنهم فى اليـوم الأول سـوف يسـيرون جميعًا، وفى اليوم الثانى، ونظرًا لأن وزن الماء فوق ظهـر الجمـل

سوف يصبح أقل، فسوف تركب ابنته أخفهم وزنا، وفى اليوم الثالث زوجته، وعندما سألته ولكن افرض أن جملك أصابه مكروه؟ فأجابنى بهدوء " الحماية تأتى من عند الله"، أعطيته أرزًا، ومكرونة، وشايًا، وسكرًا، وبعدها قرأنا الفاتحة، ورحل عنا وهو سعيد للغاية.

سُرَّ البدو بالوليمة الكبيرة التى أعدت من الأرز ولحم الجمل وذهبوا إلى مضاجعهم فى رضا بالغ. وكانت بالفعل ليلة جميلة؛ لذا تركت خيمتى، وأمضيت بعض اللحظات الهادئة تحت القمر الذهبى، والنجوم الشاحب بريقها، وسكونها المبهج، وصحبتها المشجعة، الذين أعادونى إلى فراشى - كما هى العادة - مع أمل جديد وثقة كبيرة.

وهذا ما دونته فى مفكرتى عن اليوم التالى:

الأحد ٢٥ مارس: بدأنا فى السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهرًا، قطعنا خلالها ٢٤ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ١٤درجة مئوية، تعرضنا لرياح شمالية شرقية استمرت طوال الليلة السابقة وحتى الرابعة والنصف من صباح هذا اليوم، ظل الجو ملبدًا بالغيوم طوال الصباح واحتجبت الشمس خلفها، وبحلول منتصف اليوم سقطت بعض زخات من المطر، ليصبح الجو صافيًا بعد الظهر، امتد طريقنا وسط أجمة صغيرة من الحطب الجاف، التى بدأت تزداد تدريجيًا فى الارتفاع من بضع بوصات إلى ما يقرب من ثمانية أقدام كلما اقتربنا من البئر.

كانت تفصل روابى الحطب تلك نطاقات رملية تتناثر فوقها قطع من الصخور السوداء المهشمة، وتدريجيًا بدأت الرمال تصبح أنعم، إلى أن أصبحت رطبة على بعد بضع بوصات من السطح.

وفى التاسعة والربع رأينا على بعد نحو ٣ كيلومترات صوب الشمال الغربى كثبان " الواشكا" الرملية، وهو عبارة عن بئر صغير من مجموعة آبار " زيغن"، وفى التاسعة والنصف مررنا على يسارنا "بماتان بوحوح" وهو بئر "زيغن" القديم، وخيمنا بجوار بضع أشجار النخيل التى تحيا على مياه بئر " الهراش " التى تعد أفضل آبار المجموعة.

والبئر فى الصحراء ليست هى تلك البئر التى نجدها فى أماكن أخرى من العالم؛ حيث تُحفر بإتقان ويشيد حول فوهتها بناء حجرى مع وجود دلو ورافعة أو مضخة؛ ففى هذا الجزء من الصحراء البئر عبارة عن بقعة صغيرة يكون الماء فيها قريبًا من السطح، ويمكن الوصول إليه بسهولة عن طريق الحفر، وفى الفترة التى تفصل بين زيارة القوافل تطمر الرمال المنجرفة المكان وتسد ذلك الثقب المائى الذى يكشفه البدو بأيديهم، ليجدوا الماء على عمق ثلاثة أو أربعة أقدام.

عندما تكون الرحلة التى تقطعها القافلة طويلة، فأول شىء يجب التفكير فيه هو الإبل، وبعد أن تُسقى وتهضم طعامها جيدًا، يعد الاغتسال أحد أهم عناصر البرنامج، وإذا كان الماء قليلاً فعلى الملابس أن تنتظر حتى الوصول إلى البئر التالى؛ لأن المخزون المائى للقافلة يجب أن يُوضع فى الاعتبار.

وبمجرد أن يرتاح الرجال تُملأ قرب المياه وتُترك طوال الليـــل، وفى صباح اليوم التالى يتوجه رجلان أو ثلاثة إليها مبكرًا ليروا أيًّـــا من هذه القرب تسرب الماء الذى بها، وإذا كان من الممكـــن معرفـــة سبب هذا التسرب، كما يقومون أيضًا بفرز القرب الجيدة من الســـيئة، لأنه فى الرحلة يجب أن تؤخذ المياه فى اليوم الأول أو الثانى من تلك التى تسرب أو غير الموثوق بها.

ودائمًا ما تعد الليلة الأولى عند البئر – مهما تكن القافلة متعبة – فرصة للابتهاج البالغ والرقص والغناء. وقبل الوصول إلى البئر فإن تصور المرء للراحة هو التوقف عن السير ما لا يقل عن أربعـــة أو خمسة أيام والكثير من الماء لتعويض الحرمان السابق، وينشغل الذهن بالفكرة السارة لوجود ماء يبلل المرء به نفسه، لكن اللافت للنظر أنه بعد يومٍ واحد من الراحة فإن حمى مواصلة السير سرعان ما تتملـــك المرء مرة أخرى، ليترك بشغف رفاهية الـــوفرة لصـــالح حرمـــان الطريق، ولا يعنى الأمر شيئًا إذا ما كانت نقطة التوقف تلـــك بئـــرًا كبيرة محاطة بواحة خصبة مليئة بسبل الرفاهية؛ فالمرء يعود بتلهف للقناعة بالسير لما يربو على اثنتى عشرة ساعة، والحياة فقـــط علـــى التمر الجاف.

عندما تكشط البئر فإنها تكون فى مساحة منضدة الشاى الصغيرة التى تتسع لشخصين، وتجعل الرمال الرطبة جدرانها تتماسك، وعادة ما تترك لفترة وجيزة حتى يتم ترسيب ما بها من رمال، ورغم ذلـــك يظل بالماء الكثير من الرمال التى تكون تصفيتها مزعجة، حتى إننى لم أشرب ولو لمرة واحدة كوبًا من الماء دون أن يكون معكرًا، ولـــم

أستطع ولو لمرة واحدة أن أرى قاع كوبى خلال شربى منه؛ فـالفلتر الذى قال لى أحد أصدقائى بأننى يجب أن آخذه معى، لـم أسـتخدمه مطلقًا حتى وصلنا إلى السودان، وهناك كان المـاء سـيئًا بالفعـل؛ وعندما حاولنا فى هذا الوقت أن نجعل هذا الفلتر الشهير يعمل وجدنا أنه لا يوجد به الحلقة المطاطية لإحكام وصله، وكانت هذه هى نهاية قصة هذا الفلتر.

والتراب فى الصحراء - وهو أمر قد يكون من الضـروري أن نشير إليه - مختلف تمامًا عن التراب فى أى مكان آخر؛ إذ إنه ليس ملوثًا؛ لأن الرمال شىء نظيف، وملابس البدو تترك فى الهواء. أمـا الحشرات فهى أمر لابد منه، ولا يلقى البدو إليها بالاً؛ فربما أكون قد أخذت حمامى للتو، وجلست لأشرب كوبًا من الشاى مع رجـالى... حسنًا، أنت مضطر للتعايش مع هذه الأشياء.

الفصل الثاني عشر

الصحراء المتغيرة وتصويب الخرائط

«الاثنين ٢٦ مارس: عند بئر الفاشر إحدى آبار مجموعة زيغن. بلغت درجة الحرارة القصوى ٢٧ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٦ درجات مئوية، كان الجو صحوًا وصافيًا مع هبوب رياح شمالية شرقية، تطورت بحلول الساعة الحادية عشرة إلى عاصفة رملية، استمرت حتى السادسة والنصف مساءً، ولم تهدأ الرياح إلا بعد ساعتين من هذا الوقت».

كان لزامًا أن يكون توقفنا عند "زيغن" لمدة ليلة واحدة، إلا أن العواصف الرملية العاتية فرضت علينا أن نمكث يومًا آخر، و"زيغن" تحديدًا هى مجموعة من أربع آبار، اثنتان منها هما اللتان مررنا بهما يوم الأحد، ثم بئر" الهرَّاش" التى كنا نخيم بجوارها، والأخرى هى بئر " بوزيراج " التى تبعد نحو ٢٠ كيلومترًا فى اتجاه الشرق.

فى أثناء اليوم تحدث بوحليجا مع عبدالله عن قدومى للصحراء قائلاً " أنتم جريئون أيها المصريون، فأن يحضر البيه مرتين إلى أرضنا، التى لم يزرها أى غريب من قبل، فتلك جراءة. لماذا جاء إلى هنا تاركًا كل خيرات الله التى توجد هناك فى مصر، إن لم يكن

من أجل غاية سرية؟ لقد جاء إلى ارضنا المجهولة لكى يقيسها ويعد خرائط لها، ويا الله! ليست مرة واحدة بل مرتين!".

حتى صديقى الحميم بوحليجا كان مرتابًا فى نوايا قدومى إلى وطنه.

واكتشفت فى النهاية السر وراء عداء أولئك الذين يعيشون فى الصحراء تجاه الأفراد القادمين من العالم الخارجى؛ فالأمر ليس تعصبًا دينيًّا، أو تحيزًا قبليًّا بل إنه تحديدًا غريزة حماية الذات؛ لأنه إذا ما توغل غريب واحد إلى داخل "الكفرة"، ذلك المركز العزيز على حياة قبيلتهم، فإن الأمر سوف يكون كقول البدو " إن أنف الناقة أصبح داخل حاشية الخيمة"، أى أن بعده سوف يأتى آخرون، والمحصلة النهائية قد تصبح هيمنة أجنبية، وهو ما يعنى فقدانهم لاستقلالهم وسدادهم للضرائب، ومن الصعب لومهم لأنهم يخشون هذه النتائج.

* * *

والتغيرات التى يحدثها الزمن فى الصحراء - والتى اعتدنا أن نظن أنها لا تتغير أبدًا - مثيرة للغاية؛ فعندما مرَّ رولفس بالجانب الغربى من "زيغن" وهو فى طريقه إلى "الكفرة" عام ١٨٧٩، روى عن وجود امتدادات واسعة من النباتات الخضراء، أما الآن فلا يوجد مثل هذه الخضرة، بل يوجد تحديدًا مقدار ضخم من الحطب الجاف، وعلى الرغم من أن رواية رولفس قد أكدها بوحليجا، الذى قال إنه عندما كان طفلاً اعتاد والده أن يأخذه إلى "الكفرة" عندما كان يذهب ليحضر التمر؛ لأن البدو يعتقدون أن مياه "شيكهيرا" - مركز

قبيلة زوىّ بالقرب من "جالو" - سيئة على الأطفال فى الصيف، وكانت الرحلة فى هذه الأيام تقطع فى ثلاثة أيام وخمس ليالٍ دون توقف، وكانوا لا يُطعمون الإبل سوى وجبة واحدة بين "جالو" و"زيغن"، وعندما يصلون إلى المكان الأخير، كانت الحيوانات تطعم على العشب الأخضر الذى كان ينمو هناك آنذاك، إلا أن ما كان يبدو خطأ فى رواية رولفس هو وصفه لكثرة الخضرة عند "زيغن"، وهو ما يعد برهانًا على نتيجة اختلاف الظروف بعد خمسة وأربعين عامًا. ومن المحتمل أن يكون سبب التغيير هو نقص الماء فى التربة، وهو الذى أحال الشجيرات الحية إلى حطب جاف.

كانت رحلتنا من "بوطفل" إلى "زيغن" نموذجًا لغدر الصحراء؛ فعلى الرغم من كل الاحتياطات التى استطعنا التفكير فيها، فإن وقودنا قد نفد وقودنا، ونفق أحد إبلنا، وأصاب الإجهاد جملين آخرين حتى أوشكا على السقوط، ونفد طعام الإبل أيضًا، حتى إنها كانت تقتات فى المسافة من "زيغن" إلى "الكفرة" على سعف النخيل - الذى تم جمعه من مكان سابق - وكان طعامًا رديئًا بالفعل.

وفى هذه الفترة سمعت من أحد البدو مثلاً يحمل قدرًا من السخرية، مفاده "إن الحياة مثل الناقة، يومًا تعطيك لبنها ويومًا آخر تخذلك".

فى الليلة الثانية لنا عند "زيغن" رصدت النجم القطبى بالثيودوليت، وعندما راجعت ما رصدته وجدت أن "زيغن" كانت تبعد نحو ١٠٠ كيلومتر فى اتجاه شرق الشمال الشرقى عن الموضع الذى حدده رولفس، وتفسير ذلك أنه لم يزر المكان وإنما اعتمد على ما

أخبره به البدو؛ لذا لم يستطع رصد موضعها بدقة،كما وجدت أيضًا أن "زيغن" كانت تقع على ارتفاع ٣١٠ متر فوق مستوى سطح البحر.

الثلاثاء ٢٧ مارس: بدأنا فى الثامنة والربع صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ما يربو على سبعة وأربعين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٢٦ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٨ درجات مئوية، ظل الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح شمالية شرقية باردة طوال النهار والليل مع وجود بعض السحب البيضاء. عند بئر " الهرَّاش"، حدد الدليل وجهتنا صوب "الكفرة" بنحو ٥ درجات من اتجاه جنوب الجنوب الشرقى، سرنا لمدة ساعتين وسط حطب يمتد لنحو ١٠ كيلومترات جنوب شرق البئر، ثم دخلنا نطاقًا من الرمال الناعمة قليلة التموج، وبدأ هذا التموج يزداد تدريجيًا إلى أن دخلنا نطاقًا من الكثبان الرملية بعد الظهر.

فى الساعة الثانية والنصف رأينا سلسلة من الكثبان الرملية صوب الشرق، مع وجود بعض الصخور السوداء " الجارات " أو التلال الصغيرة التى كانت تفصل بينها، وكانت تبعد عنا بنحو ٢٠ أو ٣٠ كيلومترًا، وتتفرع صوب الشمال الشرقى بقدر ما نستطيع رؤيته، ثم تلا ذلك الغرود - كثبان رملية - وكانت تمتد فى اتجاه الجنوب الغربى أيضًا. وفى الخامسة والنصف قطعت علينا تلك الغرود طريقنا، وحتمت علينا أن ندخلها، إلا أنها لم تكن عالية أو عسيرة الاجتياز لحسن الحظ.

أثَّر فىَّ من جديد ذلك الانفصال الكامل بين البدو والتبو فى أثناء السير؛ فقد كان السود يقولون إنهم لا يحبون الزوىّ ويخشونهم، كما لاحظت أن سلوك إبل التبو كان أفضل وأكثر التزامًا من تلك التى مع البدو؛ فقد كان لكل جمل من جمال التبو حبل للقيادة، ولم تكن تجرى على سجيتها كما تفعل إبل البدو.

بعد الظهر مررنا بعلم "جبل الفضيل"، ومثل معظم أعلام الصحراء فإن اسمه يعد ذكرى لاسم أحد الأفراد الذين فقدوا حياتهم فى هذه المنطقة.

فالفضيل كان أحد أفضل أدلاء الصحراء، وكان يقود قافلة من "جالو" متوجهًا بها إلى "الكفرة"، وهبَّت عليهم عاصفة رملية شديدة جدًّا، وعلى الرغم من أنه لا يوجد دليل صريح على ما حدث، فإن الشواهد التى عُثر عليها فى النهاية روت القصة بطريقة أخرى، فعينا الفضيل لابد من أن تكونا قد تأثرتا بشدة من الرمال العاتية، فربطهما بضمادات حرمته الإبصار، وفرضت على من معه أن يصفوا له الأعلام التى يمرون بها، وعلى الرغم من ذلك ضلت القافلة عن آبار "زيغن"، وحاولوا أن يناضلوا للتوجه مباشرة إلى "الكفرة"، إلا أن الصحراء تلقتهم بقبضتها التى لا ترحم، ولم ينجُ من القافلة بأسرها سوى جمل واحد؛ حيث ناضل ذلك الحيوان ليعود إلى دياره فى "الكفرة"، تقوده غريزته التى لا تُخطئ، وهناك تعرفوا عليه من خلال علامة فى عنقه وعرفوا أنه يخص الفضيل؛ لذا شرع المنقذون فى تتبع آثار أقدام الجمل عائدين إلى الصحراء، إلا أن مساعدتهم جاءت متأخرة جدًّا، فقد كانت جثث الرجال ممددة على الرمال بالقرب من

العلم الذى يعرف الآن باسم "الفضيل"، وقد باحت الضمادات التى كانت فوق عينى الدليل العجوز بالقصة المأساوية.

الأربعاء ٢٨ مارس: كانت هناك سحب كثيفة طوال اليوم وبزغت الشمس قليلاً، كما كان الجو غائمًا أيضًا فى المساء، تطورت الرياح الشمالية الشرقية الباردة إلى عاصفة رملية امتدت لنحو ثلاث ساعات ونصف، واستمرت الرياح الباردة فى المساء، وفى العاشرة والنصف مساءً سقطت بعض قطرات من المطر.

ظللنا نسير وسط الكثبان الرملية لمدة ساعتين، وبعدها دخلنا أرضًا متموجة تغطيها صخور سوداء محطمة، كان التقدم عسيرًا على الإبل، وبعد ساعة من ذلك انتهى نطاق الصخور السوداء، ودخلنا من جديد نطاقًا من الكثبان الرملية.

وبحلول الحادية عشرة والنصف ظهرًا أصبحت سلسلة تلال "حوايش" على يسارنا والكثبان الرملية والصخور السوداء "الجارات" على يميننا، وفى الثانية عشرة والربع مررنا على يسارنا - على بعد أربعة كيلومترات - بعلم "غور المخزان"، وهو عبارة عن تلال من الصخور السوداء يتراوح ارتفاعها بين ٥٠ و١٥٠ مترًا، وفى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة مررنا بعلم " الجارة وابنتها"، وهو عبارة عن تلين مخروطى الشكل، يتناسبان مع الاسم الذى أطلق عليهما.

فى هذا اليوم تحدثت مع بعض البدو عن أننا ضللنا طريقنا فى هذه المنطقة عام ١٩٢١، ولم يبدُ على أى منهم اندهاش؛ فهذا الأمر بالنسبة لقاطنى الصحراء جزء من حياتهم اليومية، أن يفقد المرء طريقه، أو إحدى إبله، أو ينفد ماؤه، أو مؤنه.

الخميس ٢٩ مارس: لم يتم تسجيل درجة الحرارة الصغرى فى هذا اليوم؛ نظرًا لتحطم الترمومتر الخاص بقياس درجة الحرارة الدنيا خلال العاصفة.

ظلت تلال "حوايش" تمتد على يسارنا حتى وقت الظهيرة. وفى الساعة الحادية عشرة والنصف دخلنا نطاقًا من الكثبان الرملية الناعمة شديدة التموج، وكان عبورها صعبًا على الإبل والرجال، وفى الواحدة والنصف مررنا بجارة الشريف التى كانت توجد إلى اليمين منا، وهو أكبر علم رأيناه على الإطلاق؛ إذ كان عبارة عن جارة على شكل سلسلة يبلغ طولها نحو ١٥٠ مترًا وارتفاعها نحو ١٠٠ متر، بالإضافة إلى ثلاث جارات أصغر بجانبها: اثنتان إلى الجنوب وواحدة إلى الشمال، وبحلول الساعة الثالثة دخلنا مرة أخرى نطاقًا كثيفًا من الكثبان الرملية، وبعد ساعتين من ذلك مررنا بمنطقة منبسطة ذات رمال أكثر خشونة تتخللها رقع من الصخور السوداء.

فى الثالثة والنصف صباحًا قد بدأنا نواجه أسوأ عاصفة رملية تعرضنا لها؛ فقد انتزعت الخيام من أوتادها، وأهيلت خيمتى فوق رأسى؛ فحطمت بعض أدواتى، ومن أهمها الكرانومتر الصغير الذى كان معى. وأصبحت مهددًا بالاختناق نتيجة لانهيار الخيمة فوقى وازدياد وزنها نتيجة للازدياد المضطرد للرمال المتراكمة فوقها، إلا أننى – لحسن الحظ – استطعت الإمساك بأحد أوتاد الخيمة، ورفعت به قماش الخيمة من فوق وجهى، وحاول بعض الرجال أن يهبوا لمساعدتى، لكننى صرخت فيهم أن يضعوا أكياس الدقيق وبعض الحقائب فوق خيامهم وخيمتى حتى يحفظوها راسخة، ومكثت فى

وضعى غير المريح هذا – تحت الخيمة – لمدة ساعتين أو ما يقــرب من ذلك، وكانت الرمال المندفعة بقوة من الثغرات التى فــى الخيمــة أشبه بطلقات الرصاص، وقد عانت الإبل والرجال بشــدة، ولــو أن سارى خيمتى انحرف جزءًا من البوصة عند سقوطه لكان قد حطــم الكرانومتر الكبير الذى معى وعندها تُرى أى اختلاف كــان ســوف يحل بالنتائج العلمية لبعثتى؟!

فبالنسبة للعالم فإن عمل المستكشف إما أنه نجح وإما أنه فشــل، وهناك خط جلى يفصل بينهما. أما لدى المستكشف ذاته فإن هذا الخط مضبب للغاية، فقد ينجح خلال رحلته فى الوصول إلــى مــا يريــد، ويكدس كل المعلومات التى ينشدها، ويصبح على بعد بضعة أميــال من نهاية الرحلة، وعندها، فجأة، ينهار جمله، ويصبح لزامًا عليه أن يتخلى عن الجزء الأثير من حقائبه؛ فالماء والطعام لهمــا الأولويــة دائمًا، ويصبح عليه أن يترك خلفه الصناديق التى تحتوى على أدواته العلمية وتسجيلاته، وقد يكون حاله أكثر سوءًا، ويضحى بكل شــىء، وربما بحياته، وبالنسبة للعالم الخارجى فإن ما حدث يعد فشلاً، والنقاد الكرماء قد يدعونه الفشل المجيد، ولكنه على أية حال فشــل. ولكــن تُرى إلى أى مدى كان هذا الفاشل قريبًا من النجــاح؟ ففــى بعــض الأحيان فى هذه الرحلات الطويلة قد يكون الشخص الذى فشــل قــد فعل أكثر، وتحمل مشقة أكثر من الرجل الــذى نجــح، ويتعــاطف المستكشف أكثر مع ذلك الرجل الذى ناضل وفشل مقارنة بذلك الذى نجح؛ لأن المستكشف وحده هو الذى يعلم كيف أن الرجل الذى فشــل قاتل كى يحافظ على ثمار عمله.

والبدو يدركون هذا؛ فهناك ميزة فى شخصيتهم تفاجئك بل تدهشك فى بعض الأحيان، حتى أصبحت متفهمًا لها، فلا يوجد مرح أو ابتهاج عندما ينتهى يوم السير إلى مقصده، كأنهم يقولون "اليوم قد وصلنا، ولكن من يدرى غدًا؟! فنجاحك اليوم أمر لا يدعو للتفاخر"، إنها ليست مهارتك. إنه القدر؛ فربما تبدأ غدًا رحلة أسهل وتفشل فشلاً ذريعًا؛ ففى رحلتى الأولى الطويلة فى الصحراء الليبية عام ١٩٢١، فى المسافة الممتدة بين واحة "بوزيما" وهى إحدى واحات مجموعة "الكفرة"، وواحة "الكفرة" ذاتها، واللتان يفصل بينهما نحو ثلاثة أيام سفر، مررنا ببقايا قافلة هالكة، وكانت هناك يد لا تزال بارزة من الرمال، وقد أصبح جلدها أصفر مثل رق المخطوطات، وبينما كنا نمر، توجه إليها أحد الرجال فى توقير وأخفاها بالرمال؛ ورغم أن الرحلة مدتها ثلاثة أيام، فقد ضل هؤلاء الرجال طريقهم وماتوا من العطش!.

وهناك الكثير من القصص المأساوية التى تحكى عن هلاك قوافل كانت على مرمى البصر من إحدى الآبار. وبدلاً من أن يردعهم ذلك عن أن يسلكوا الطريق ذاته، فإن البدو يقولون فقط إن الله – سبحانه وتعالى – هو الذى كتب عليهم أن يموتوا على هذا الطريق، حتى إن أحد البدو قال لى يومًا "إن أمعاء الطيور أفضل من ظلام القبور"؛ أى أنه يفضل أن تأكله النسور على أن يواريه الثرى.

كان يومًا شاقًا للغاية، نظرًا لصعوبة التقدم عبر الكثبان الرملية الناعمة، ورغم هذا فقد كان الرجال سعداء؛ لأننا أصبحنا قريبين من "الكفرة"، كما حفزهم على السير الأنباء عن أن بوحليجا – الذى يقيم

فى "الهوارى"، أول موضع للتوقف عند أطراف "الكفرة" - سوف يذبح خروفًا، ويعد وليمة لنا.

كانت الإبل ضعيفة ونحيلة، إلا أن ثلاثًا منها كانت ديارها فى "الكفرة" قادت الطريق طوال اليوم دون أى توجيه على الرغم من صعوبة السير بين الكثبان الرملية.

وبحلول الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة رأينا جارة "الهوارية"، ذلك العلم الضخم الذى يشير إلى الاقتراب من "الكفرة".

الجمعة ٣٠ مارس: بدأنا فى السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٣٥ كيلومترًا لنصل إلى "الهوارى"، وفى المساء سقطت بضع قطرات من المطر. كانت الأرض منبسطة، ورمالها ناعمة يتخللها نطاقات من الصخور الحمراء والسوداء، وبحلول الساعة التاسعة والنصف دخلنا نطاق الرمال الحمراء الخاصة " بالكفرة"، بينما كنا نمر طوال اليوم بقطع من الأخشاب المتحجرة، وفى الساعة الواحدة والربع ظهرًا عبرنا جارة " الهوارية"، وفى الساعة الثالثة والنصف رأينا أشجار نخيل "الهوارى"، وبعد ساعة ونصف الساعة من ذلك دخلنا الواحة، وسرعان ما خيمنا فى "عوادل".

وصلنا إلى أولى نقاط "الكفرة"، ذلك الاسم الذى أطلق فى وقت رولفس على أربع واحات تنفصل عن بعضها على نحو ما، وهى

"تازربو"، و"بزيمة"، و"ربيانة"، و"كيبابو"، ولكن فى الوقت الحالى تُسمى بالأسماء السابق ذكرها.

وتقع "الهوارى" فى أقصى شمال "الكفرة" الحالية، وهى واحة صغيرة نسبيًّا، تتكون من ثلاث قرى هى "هوارى" و"هواويرا"، و"عوادل" وعلى بعد سبعة عشر كيلومترًا جنوبًا توجد "التاج" حيث الحكومة المحلية والمنطقة العمرانية الرئيسية، وهى تقع على جرف صخرى يطل على منخفض الواحة، التى تقع فى الجنوب، وتحتوى على قرى: "جوف"، و"بويما"، و"الزروك"، و"التلاليب"، و"الطولاب".

كنت قد عزمت على التوجه فى اليوم التالى مباشرة إلى "التاج" البلدة الرئيسية فى "الكفرة"، إلا أن بوحليجا طالبنى بحق الضيافة، وأصر على أننى يجب أن أتوقف يومًا فى الواحة حيث موطنه، وبعد ليلة جيدة من الراحة التى لم تزعجها عواصف رملية أو خيام منهارة، وبعد الحلاقة، كنت فى أتم الاستعداد أن أوفى طعام الإفطار حقه، والذى أرسله لنا بدو قافلة وصلت للتو من "واداى". وفى هذه الأثناء كنت قد جمعت بعض المعلومات المثيرة التى جعلتنى أفكر فى تغيير خططى. كما أرسلت رسولاً إلى "التاج" ومعه خطاب إلى سيد العبيد ابن عم السيد إدريس ورئيس السنوسية فى "الكفرة"، وإلى جداوى الوكيل الشخصى للسيد إدريس أنبئهما باقتراب وصولى.

بعد الظهر رافقنى زروالى إلى "الهوارى" حيث استقبلنى فى الزاوية الإخوان ووجهاء البلدة، وبعد كلمات الترحيب المعتادة، وتبادل المجاملات، ذهبنا لتناول طعام الغداء فى دار عم زروالى، وتظاهر زعماء البدو بأنه ما كان علىَّ أن أحضر مباشرة إلى

"الهوارى"، بل كان يجب أن أخيم خارجًا لأمنحهم الفرصة للأستعداد لمراسم الاستقبال. وعلى ما يبدو أنهم سمعوا عن استقبالى فى "جالو"، وكانوا يرغبون فى فعل شيء مثله لى هنا.

سمعت إشاعات عن تآمر بعض زعماء الزويّ عليَّ؛ فقد كانوا يرتابون فى غرض حضورى للمرة الثانية إلى "الكفرة"، وكنوع من الاحتجاج رفضوا الحضور للمشاركة فى الغداء، كانوا ذوى نفوذ، وسلوكهم هذا جعلنى عازمًا على التعجيل فى الذهاب إلى "التاج" قبل أن يستطيعوا إرسال كلمة قد تسبقنى وتضر بوصولى.

بعد الطعام امتطيت عائدًا إلى الديار عبر الضوء الجميل للقمر، وعندما وصلت وجدت مهمة شاقة تنتظرنى؛ فقد كان "عجيلة" – أكبر أبناء بوحليجا – قد لدغه عقرب، وإيمانًا فى صندوق أدويتى، أكثر مما كنت أثق فيه أنا نفسى، طلب بوحليجا منى أن أعالجه، أخذت الترياق المضاد للدغة العقرب، وذهبت إلى المنزل، حيث وجدت الصبى مريضًا جدًّا، يحترق من الحمى.

وفى اللحظة الأخيرة قبل أن أترك القاهرة، أُدرج هذا الترياق ضمن مؤنى، وشرح لى أحد الأطباء من أصدقائى بينما كان يصافحنى وأنا أودع البشر التى كانت تحيطنى – ربما بصورة أكثر استرشادية – كيف يستخدم هذا الترياق. وكانت المرة الأولى لى على الإطلاق التى أحاول فيها استخدام هذا النوع من الحقن، وحاولت أن أستحضر المشهد وأستعيد نثار هذه التعليمات المتفرقة، ولكن ما صدمنى هو ذلك الاختلاف بين هذه الحجرة ذات الإضاءة الشاحبة مقارنة بما كان عليه الحال عندما كان أصدقائى وأقاربى يراقبون كل

حركة لى وهم يودعوننى بحرارة عندما أضيف هـذا الترياق إلـى تجهيزاتى.

على كل حال، وعلى الرغم من عدم تيقنـى إن كانـت الحالـة متأخرة عن العلاج أم لا، فقد أعطيته الترياق، وعدت بعد ذلك إلـى مخيمى متسائلاً عما ستئول إليه الأمور، وقبل أن يمضى وقت طويل سمعت حشدًا يقترب من خيمتى مع صياح عال، بدا الصوت فى أُذُنى عدائيًّا بعض الشىء، وظننت أنه من المحتمل أن يكون الصـبى قـد مات بالفعل، وأن موته سوف يلقى على كاهلى بدلاً من ذلك الترياق. دعوت رجالى أن يحموا صندوق الأدوات العلمية، الذى شككت أنه قد يكون الهدف الأول لهجومهم، وأهلت نفسى لاقتراب عـدائى، كانـت لحظة مزعجة، إلا أن ارتياحى كان عظيمًا عندما ميزت فى صـياح أولئك القادمين نبرة الابتهاج أكثر من العداء، وبعد ذلك دخل بوحليجا إلى خيمتى وشكرنى بدفء ومودة من أجل العـلاج الـذى أعطيتـه لابنه، وأعلن فى حماسة " لقد كان مثل السحر، ربنا عظيم، فقد جعل دواؤك الصبى يتعافى من جديد".

رددت عليه بعبارة مماثلة وقلت له "إن الشـفاء مـن عنـد الله"، وكانت الحمى قد هدأت بالفعل، ومن الواضح أن الصبى كـان فـى طريقه للشفاء تمامًا. شكرت الله فى سِـرى، لحسـن الطـالع الـذى خدمنى؛ فلو مات هذا الصبى لأصبح موقفى سيصبح خطيرًا. وعندما رحل زائرى خرجت إلى ضوء القمر والليل الجميل.

الفصل الثالث عشر

الكفرة.. الأصدقاء القدامى وتغيير الخطة

«الأحد ١ أبريل: بدأنا فى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الثانية ظهرًا، قطعنا نحو سبعة عشر كيلومترًا، ووصلنا فى نهايتها إلى "التاج". بحلول الحادية عشرة والربع دخلنا منطقة صخرية وعرة، صخورها شديدة الاستدارة، تغطيها رقع من الأحجار الرملية الحمراء والسوداء، استمرت إلى أن وصلنا إلى "التاج"».

حضر عجيلة ليساعدنا فى تحميل الإبل، كان قد تعافى تمامًا من لدغة العقرب، وأصبح قادرًا على مرافقتنا إلى "التاج"، كما أرسل بوحليجا إفطارًا لى ولرجالى، وعندما تظاهرت بأنه ما كان عليه أن يكبد نفسه هذه المشقة، أبدى اعتراضه قائلاً " إنه كان علىَّ أن أمنحه الفرصة لأن يستضيفنا الأيام الثلاثة المعتادة"، وبعد ذلك بقليل حضرت إحدى الإماء من عنده ومعها وعاء ضخم ملىء بالأرز والدجاج والبيض.

بدا جليًا أنها تزينت من أجل هذه المناسبة، وكانت فاتنة بالفعل فى ردائها الأزرق الأنيق الذى كان يزينه نطاق أحمر يلف خصرها النحيل.

أخبرتها أننا بصدد التحرك فى الحال ولا حاجة بنا للطعام.

فأجابت بخجل "ربما تحتاجونه خلال الطريق، لقد طهوته بنفسى".

فطمأنتها قائلاً " فى هذه الحالة سوف أقبله بكل سرور"، بدا واضحًا أنها سُرَّت بذلك، وفى التو رحلت وعادت من جديد ومعها وعاء آخر لا يقل حجمًا عن الوعاء السابق وكررت طلبها، أذعنت للمحتوم وأرسلت شكرى لسيدها.

تلقينا وداعًا سارًّا من أهل "عوادل"، كنت وقتها أتقدم القافلة وأنا أمتطى فرس بوحليجا، فلم نكن نحتاج إلى دليل فى الوقت الحالى؛ لأننى كنت أعرف الطريق، حتى إن سنوسى بوحسان قال "إيه، البيه يعرف الطريق جيدًا، وسرعان ما سيصبح دليلاً فى أرضنا".

كان الاقتراب من "الكفرة" من الشمال يتسم بعنصر المفاجأة مما ضاعف من تشويقه؛ فقد سرنا عبر أرض قليلة التموج تحيطها مرتفعات غير منتظمة قليلة الارتفاع، تشكل الأفق أمامنا، وفجأة انفتحت هذه القمم عن مجموعة من الأبنية التى يتعذر تمييز جدرانها من أية مسافة عن الصخور والرمال التى تحيطها، نظرًا لأنها كانت تطابقها فى اللون والشكل، كانت تلك هى "التاج" مقر عائلة السنوسى فى "الكفرة"، وبينما كنا ندخل إلى البلدة، رأينا الأرض تهبط فجأة إلى وادى الكفرة، والذى يتخذ شكل حوض بيضاوى ضحل يبلغ أقصى اتساع له نحو ٤٠ كيلومترًا بينما كان أقل اتساع له نحو ٢٠ كيلومترًا، وتتناثر داخله أشجار النخيل، التى تقطعه فى خطوط غير منتظمة من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، وتوجد به ستة محلات عمرانية هى: "بويما"، و"بوما"، و"جوف"، و"زورَوك"،

و"تلاليب"، و"طلاب". وبالقرب من "جوف" تمتد مساحة من المياه الزرقاء تقترب من مساحة بحيرة، وفى هذه النقطة الوسطى من رمال الصحراء القاحلة تعد امتدادات المياه هذه عطية ونقمة فى آنٍ واحد؛ فالمشهد المجرد لهذه الكمية الكبيرة من المياه يجلب الانتعاش للعين التى سئمت التطلع للاشىء عدا الرمال، لكنها للحلوق الجافة تعد أسوأ من مرأى السراب؛ لأن ماءها كان مالحًا.(٣٣)

فى أثناء دخولنا إلى "التاج" استقبلنى أصدقائى القدامى بحفاوة بالغة، وكان سيد العبيد ابن عم السيد إدريس، ورئيس السنوسية فى "الكفرة" مريضًا بالروماتيزم، إلا أن كلاً من سيدى صالح البشكارى، والقائم مقام، وسيدى محمود الجداوى وكيل السيد إدريس، والعديد من الإخوان، حملوا كلمات ترحيبه، وقادونى إلى دار السيد إدريس التى كنت سأمكث بها، وهى الدار ذاتها التى أقمت بها فى رحلتى الأولى "للكفرة" منذ عامين، وفى التو شعرت أننى عدت إلى دارى. ووجدت السيد البشكارى يقول مازحًا "سوف يصبح عليك أن تقود رجالك عبر طرق الكفرة، فحتى زروالى لم يطأ هذا المكان منذ ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا".

وفى التو بدأت مراسم الضيافة، بالقهوة التى أحضرها قائد المجموعة. وكان لدى بعض الوقت لاستراحة قصيرة قبل أن يحضر العبد ليصطحبنى إلى دار السيد العبيد لتناول الطعام.

---

(٣٣) واقع الأمر أنه توجد بحيرتان صغيرتان فى هذه المنطقة ماؤهما شديد الملوحة على الرغم من وجود مياه حلوة على عمق صغير بالقرب من شواطئهما، والتفسير الوحيد لهذه المياه المالحة هى أنها جزء مكشوف من إحدى طبقات المياه الجوفية الموجودة بالمنطقة. " المترجمان "

ومقادًا بالرسول ذاته الذى حضر لاصطحابى منذ عامين، سرت عبر الشوارع ذاتها، ودخلت الدارِ الرائعة نفسها لزعيم السنوسية مع شعور غريب أن الزمن ظل واقفًا فى هذا المكان أو عاد من جديد. ودار سيد العبيد عبارة عن متاهة من الممرات التى تصطف بها أبواب الغرف التى يعيش خلفها أفراد عائلته وخدمه. دخلنا حجرة مألوفة بدت كما لو كانت قد زينت بصورة أكبر من ذى قبل، بسجاجيد رائعة، والعديد من الوسائد الملونة المطرزة بطرز كثيفة، كما علقت على الجدران مجموعة لا تُنسى من الساعات والبارومترات والترمومترات التى كان يُسَر بها مضيفى، وكان عدد الساعات الموجودة فى الحجرة لا يقل عن اثنتى عشرة ساعة مختلفة الأحجام والأشكال تعمل كلها.

حضر لاستقبالى سيدى صالح، واعتذار عن الغياب القهرى لمضيفى السيد العبيد، وبعد ذلك مُدَّت أمامى وليمة تليق بالحكام أو بمن تعرض للموت من رتابة العيش فى الصحراء، وكانت تتكون من: لحم الحملان، وأرز، وخضراوات، وملوخية وهو نبات مصرى يشبه السبانخ، وخبز لذيذ، وخل حلو، ولبن، وحلوى، تلاها قهوة ولبن تم مزجهما بعجينة اللوز، وفى النهاية أكواب الشاى الثلاثة التقليدية المعطرة بالعنبر وماء الورد والنعناع. وعندما انتهت وجبة الطعام عدت إلى منزلى، وكان لدى بالكاد وقت لأن أرى أمتعتى، وأناقش أمر الإبل اللازمة للمرحلة التالية من الرحلة، وبعد ذلك حضر العبد ليصطحبنى مرة أخرى إلى دار السيد العبيد من أجل العشاء، كان البشكارى هو مضيفى هذه المرة أيضًا، وبدا وقورًا وكريمًا وهو يرتدى جبة جميلة من اللونين الأصفر والذهبى، واستبدل بطربوشه

البدوى التقليدى الناعم الذى كان يرتديه كوفية بيضاء حريرية وعقالاً ذا لونين أخضر وذهبى.

وعندما وصلت هذه الوجبة إلى مرحلة الشاى المعطر والبخور، فجأة بدأت الساعات تدق كل واحدة بنغمتها الخاصة، لـتعلن الثالثـة، وفق التوقيت العربى والتى تعنى التاسعة وفق توقيت العالم الخارجى، أغلقت عينى لدقيقة وشعرت أننى عدت إلى أوكسفورد، حيـث تـدق الساعات بتنويعات نغمية لا تنتهى فى كل الكنائس التى تواجه المدينة الجامعية.

خرجت إلى ضوء القمر مع عبير ماء الورد والبخور العالق بى، ووقفت عند حافة سلاسل التلال أتطلع إلى مياه البحيرة، ثم تتـداعى ذكريات رحلتى السابقة "للكفرة" عندما كانت هى هدفى. أما الآن فهى تعد بداية لأكثر مراحل رحلتى إثارة، وفى هـدوء المسـاء سـمعت صوت الإخوان والطلبة وهم يرددون "الحزب".(٣٤) ووجدت عبـد الله ينسل من الظلام ويقف أمامى. وقال بنبرة منخفضة، كرجـل يفكـر بصوت عالٍ " إنها ليلة النصف من شعبان، وربنا سوف يحقق أمانى كل من يدعو الليلة".

ولبضع دقائق وقفنا - نحن الاثنين - صـامتين، وكـان وجهـى صوب الجنوب الشرقى حيث تمتد طـرقٌ غيـر مطروقـة وواحـات مفقودة، بينما استدار عبد الله صوب الشمال الشرقى حيث تقع مصـر وأسرته وأطفاله، ولم أكن فى حاجة لسؤاله عما سوف يدعو من أجله.

---

(٣٤) دعاء كان يتلوه السنوسى الكبير، وقد ورثه إخـوان السنوسيـة، وأصبحـوا يرددونـه بعد صلاتهـم." المترجمان "

الاثنين ٢ أبريل: عندما كنت فى "الهوارى" أخبرتنى قافلة بدوية من "الواداى" أن إحدى شركات البترول الفرنسية توجهت صوب الشمال لما يقرب من بئر "سارا" على طريق التجارة الرئيسى من "الواداى" إلى "الكفرة". وكان ذلك هو الطريق الذى عزمت على أن أسلكه فى البداية، ولكن بدا أنه لا يوجد سوى جزء صغير منه – الممتد بين "سارا" و"الكفرة" – هو الذى لم يكتشف، ومرة أخرى سمعت بعض القصص الغامضة عن واحات مفقودة تقع على الطريق المباشر صوب الجنوب، والذى كنت قد خططت فى بعض الأوقات أن أقوم باكتشافه، على الرغم من علمى أن الطريق المباشر إلى "دارفور" فى "السودان" كان عمليًا لا يستخدم مطلقًا سواء بواسطة البدو أو السودانيين بسبب صعوبته وخطورته المفترضة. أدارت قصة شركة البترول الفرنسية رأسى مرة ثانيةً صوب هذه الواحات، وعقدت عزمى على محاولة العثور عليها بدلاً من مواصلة خطتى الأصلية.

ورحلت مقررًا أن أفعل كل ما هو ممكن لأكتشف هذه الواحات المفقودة، ولكن إذا ما فشلت فى ذلك فقد كنت سأعبر الصحراء الليبية من خلال الطريق المطروق عبر " واجونجا " و"الواداى"، وبعدها أتجه شرقًا صوب " دارفور".

حضر لمقابلتى كل من زروالى وسليمان بومتارى – وهما من تجار الزوىّ الأغنياء – ليناقشا خطة رحلتى صوب الجنوب، ولم يكن بومتارى محبذًا للطريق الذى قررت أن أسلكه، وقال إن آخر قافلة سارت فى هذا الاتجاه كانت منذ ثمانى سنوات – كان قائدها أخى

محمد – وقد التهمت وذبحت عند حدود "دارفور". ولم يسلكوا الطريق الذى تبغى أنت الذهاب عبره، بل ساروا فى طريق من أسهل الطرق من "العوينات" إلى "ميرجا" – واحة صغيرة تبعد نحو ٢٩٠ كيلومترًا جنوب شرق العوينات – هذه الرحلة التى تقترح أن تقطعها تمر عبر نطاق لم يعبره أى بدوى من قبل، و"الدفا" – طريق طويـــل بلا ماء- بين "العوينات" "وإردى" طويل وخطير. ربنا يرحم القافلة فى مثل هذه الحرارة، سوف تتساقط إبلك مثل العصافير فـــى مواجهـــة الريـــاح الجنوبية الحارة. وحتى إذا عبرتها بسلام، فمن يدرى كيف سيستقبلك السكان الذين يقطنون تلك التلال؟ لاتدع تلهفك علـــى الســـفر يســـبق حكمتك، ويحول دون اختيارك طريق التجارة الآمن إلـــى "واجانجـــا" و"أبيش". شكرته على نصحيته لى، لكننى كنت أعلم أننى لن آخذ بها.

بعد أن تناولنا الغداء الملكى الذى أعده لنا سيد العبيـــد توجهنـــا لزيارة ابنه شاروفا، وهو شاب ذكى، متعطش للمعرفة. وقد ذهب إلى أبعد ما يكون فى العالم الخارجى؛ حيث ذهب إلـــى "بنغـــازى" تلـــك الحاضرة التى تعد بالنسبة إليه – بكل ما تعنى الكلمة مـــن معنـــى – مدينة العالم، وقد اعتذر لمرض والده، وعرضت عليه فى المقابل أن أرسل إليـــه دواءً قد يكون مفيدًا له.

الثلاثاء ٣ أبريل: كان الجو دافئًا للغاية، مع وجود سحب كثيفـــة ورياح جنوبية غربية سيئة. بعد الغداء المعتاد ذهبت إلى زيارة شمس الدين وأخيه الصغير وهما أبناء عم شاروفا، كان الفتى الكبير شـــديد الذكاء يملك عينين تبدوان كما لو كانتا تسألان عن العالم. وهناك قدَّما لى ثلاثة أكواب من اللبن وعجينة اللوز، ومربى أعدت فى المنـــزل،

وكنت أعلم أن رفض هذه الضيافة يعد إهانه؛ لذا رحلت عن تلك الدار وأنا فى حالة خدر شديد من كثرة الطعام. وقد زاد العشاء بعد ذلك فى دار سيد العبيد من سوء حالتى.

مرة أخرى ناقشت مع الحضور خطة الذهاب عبر طريق "أركينو" و"العوينات"، وأصبحت أكثر عزمًا عن ذى قبل. وجاء الرد لنرى ما سوف يقوله بوحليجا عندما يصل من "الهوارى".

الأربعاء ٤ أبريل: أيقظنى جدَّاوى الذى أحضر لى - كالمعتاد - قدحًا من الشاى المعطر. وبينما كنت أرى أحمد وهو يعد أدوات الحلاقة الخاصة بى فكرت أن هناك بالطبع أوقاتًا يرحب فيها المرء براحة الحضارة ورفاهيتها، ولكن مع طول السفر فإن المرء يشعر أنه فى داره أكثر عندما يكون فى تحركه مقارنة بالراحة فى إحدى الواحات.

الجزء المبكر من اليوم أنفق فى التقليل من معظم الصناديق الخشبية، وإعادة ترتيب الحقائب من أجل الإعداد للرحلة الطويلة صوب الجنوب، وقد تطلب الأمر عناية خاصة؛ فاعتبارًا من الآن وصاعدًا لن تتاح أية فرصة لتغيير الإبل إلى أن نصل إلى "الفاشر" فى السودان، على بعد ٩٥٠ ميلاً تثريبًا.

وكان السؤال الخاص بالتزود بأحذية جديدة لرجال قافلتى أصبح مُلحًّا؛ لأن الأحذية البدوية التى صنعت لهم فى "جالو" كانت قد بليت تمامًا.

قبل موعد الغداء زارنى بعض زعماء الزوىّ، الذين حضروا بصفة رسمية ليبدوا احترامهم، وبصفة غير رسمية ليرضوا فضولهم

وشكركم نحو حجم قافلتى والأدوات التى كنت أحملها، وحـــاولوا أن يكتشفوا الخطط التى وضعتها لرحلتى إلى "السودان".

كان الغداء كالمعتاد عند سيد العبيد، وبلغتنى أخبار سارة؛ حيــث إن الدواء الذى أعطيته إياه كان لـــه تأثير جيد. وقد أمضيت فترة ما بعد الظهر فى الإصغاء إلى أسئلة حول الأسلحة والذخائر، وبعد ذلك خرجت فى تمشية طويلة بهدف جمـــع ملاحظـــات بالبوصـــلة عمـــا يجاور "التاج".

الخميس ٥ أبريل: تحـــدث زروالى طويلاً مع بوحليجا – الـــذى وصل ليلاً من "الهوارى" – ورفض الأخير تمامًا فكرة الذهاب إلـــى "الفاشر" عن طريق "العوينات".

وزارنى بوحليجا محاولاً إقناعى بالذهاب عبر طريق "الواداى"، وعندما رأى أنه من المحتمل ألا يؤخذ بنصحه أصابه اليـــأس، وقـــد بينت لـــه بوضوح أنه لا يوجد شىء يمكن أن يثنينى عن قرارى بأن أسلك طريق العوينات إلى "الفاشر"؛ فوجدته يقول "يا الله! إنه طريـــق خطر، والعديد من القوافل التهمها سكان التلال التـــى توجـــد علـــى الطريق. إنهم لا يخافون الله، ولا يخضعون لسلطان أى رجل، وهـــم مثل الطيور الجارحة يعيشون فوق قمم الجبال، وسوف تواجـــه مـــن مشاكل معهم".

فأجبت " نحن رجال مؤمنون، وقدرنا فـــى يـــد الله – ســـبحانه وتعالى – وإذا كان الموت مكتوبًا، فســـوف يـــأتى فـــوق الطريـــق المطروق وبجوار أقرب الآبار.

فقال "إن العديد من لحى الزوىّ قد دفنــت فــى هــذه الأجــزاء المجهولة؛ فالبشر هناك خائنون لا يخشون الله أو أى إنسان".

فأجبت "ربنا يرحم أولئك الزوىّ الذين فقدوا حياتهم، إن حياتنــا ليستَ أكثر قيمة من حياتهم؛ فهل تكون شجاعتنا أقل منهم؟"

جادلنى مرة ثانيةً قائلاً "إن الماء فى هذه المنطقة نــادرًا وسـيئًا للغاية"، والله - سبحانه وتعالى - يقــول ﴿وَلا تُلْقُــوا بِأَيْــدِيكُمْ إِلَــى التَّهْلُكَةِ﴾.

فأجبته "إن الله - سبحانه وتعالى - سوف يروى ظمــأ المــؤمن الحقيقى، وسوف يحمى أولئك الذين يؤمنون به".

وعندما شعر أنه فى خطر أن يهزم فى الجدال، غيَّر طريقته فــى الحديث، وقال بحزم "لا يوجد أحد من رجالى يرحب بمرافقتــك علــى هذا الطريق، كما أننى لا أستطيع إرسال إبلى أيضًا، فهو مثل إرســالها إلى الموت؛ إذا وجدت أى شخص يرحب باستئجار إبله فأنا مستعد أن أدفع لــه، ولكن لا رجالى ولا إبلى سوف يصحبونك فى هذه الرحلة".

فرددت عليه بقوة "افعل ما تريد، سوف أذهب من هذا الطريــق، وسوف يصبح الأمر بينك وبين السيد إدريس عندما يعلم أن بوحليجــا لم يلتزم بكلمته".

وهنا توقف الجدال. وكنت قد علمت بالفعل أن بوحليجا ورجالــه قد أوعزوا إلى بعض مالكى الإبل فى "الكفرة" حتى ألا يساعدونى فى خطتى الجديدة، وكان يأمل بذلك أن يجبرنى على قبول خطته وسلوك الطريق الآمن عبر "الواداى".

أعد جدَّاوى غداء ضخمًا؛ فقد كانت أيام الضيافة الرسمية الثلاثة الخاصة سيد العبيد قد انتهت بالأمس، ومن ثم أمكن لجداوى بصفته وكيل إدريس فى "الكفرة" أن يُضيِّفنا.

وكان بوحليجا على وشك الرحيل، لكننى دعوته أن يشاركنا طعامنا، فقَبِلَ على أمل أن يقنعنى بأن أغير رأيى، بينما كنت آمل أنا - وربما بصورة أكثر قوة - أن أقنع ذلك الكهل بأن الطريق ليس خطرًا كما يصوره، وبعد كوب الشاى الثالث افترقنا، ولم يكن أى منا قد نجح فى إقناع الآخر، لكننى شعرت أن كلماتى الأخيرة قد أثرت فيه.

عند الظهر حضر إلىَّ العبد ليخبرنى أن سيده - سيد العبيد - يتطلع إلى مقابلتى، كنت قد علمت بالفعل أنه لم يكن فى حاجة لأن يتعجل مقابلتى رسميًا؛ لأنه كان يعانى بشدة من داء النقرس، وكان من العسير عليه أن يهبط إلى حجرة الاستقبال، ولكنه لم يكن يريد أن يجعلنى أظن أنه قد انتهك قواعد الضيافة بالتأخر عن لقائى؛ لذا سمح لى - بكرم شديد - أن أراه برغم آلامه.

كانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها سيد العبيد فى هذه الرحلة، وبينما كنت أقاد إلى حضرته، شعرت أنه أشبه بصورة رائعة خرجت من قصص ألف ليلة وليلة. كان يرتدى قفطانًا حريريًّا أصفر اللون موشى بخيوط حمراء، وعلى كتفيه بورنس من الحرير الأبيض، بينما يرتدى على رأسه عمامة من الشاش ناصع البياض تنسدل من الأجناب، والتى تعد غطاء الرأس التقليدى لزعماء أسرة السنوسى، ويحمل فى يده عصاة ثقيلة من الأبنوس ذات مقبض ضخم

من الفضة، كان صورة للبساطة والنبل، ولا يستطيع أحد أن يشك فى كونه محاربًا مهيبًا، كان يجلس فوق مقعدٍ ضخم ذى ذراعين كبيرتين، وعندما دخلت حاول النهوض، فأسرعت إليه ممسكًا بيـــده ومتوســـلاً إليه ألا يكبد نفسه مشقـــة النهوض؛ إذ كان يعـــانى بشـــدة مـــن داء النقرس، وبدأ حديثنا بسهولة حول موضوع علته، والذى يعانى منهـــا منذ عدة سنوات، وقال "فى أثناء الليل، عندما تشتد وطـــــأة الألـــم، أصلى لله – سبحانه وتعالى – لعله يقصر عدد أيامى فى هذا العـــالم؛ لأننى لا أستطيع أداء الصلوات كما يجب".

وبعد ذلك ناقشنا أمر رحلتى إلى "السوادن"، ووجدته أيضًا يحثنى على أن أسلك الطريق الآمن عبر "الواداى". وقـــد أوضـــحت لـــه أن السيد إدريس موجود الآن فى مصر؛ لذا علىَّ أن أعود فـــى أســـرع وقت إلى وطنى، وأحاول أن أرد إليه بعض الضيافة التى أغدقها علىَّ السنوسية ببذخ، ومن حسن الحظ أن الطريق إلـــى "الســـودان" عبـــر "العوينات" معروف أنه أقصر من طريق "الواداى".

فقال "أنت صديق عزيز لنا، وأنا أثق أن السيد إدريـــس يفضـــل أن تصل متأخرًا آمنًا إلى مصر، على أن يسمع أنه قد أصابك أى مكروه".

فأجبت "قدرنا فى يد الله سبحانه وتعالى، وخطانا كتبهـــا علينـــا، ومعى بركة زعيم السنوسية".

تحدثت بكل تصميم، واستغرق سيد العبيد فـــى التفكيـــر لبضـــع دقائق، وببطء رفع رأسه وكفيه صوب السماء وقال مستجيبًا لرغبتى "ربنا ينجح سعيك، ويعيدك سالمًا إلى أهلك، لقد زرت ضريح جـــدنا

فى "جغبوب"، وقبة سيدى المهدى هنا، ونلت بركتهما" ثم اقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وبعدها قرأنا الفاتحة ومنحنى بركته، ومرة ثانية دعا الله - سبحانه وتعالى - أن يرشدنا ويسدد خطانا ويمنحنى ويمنح رجالى الثبات. شعرت بسعادة بالغة وأنا أشق طريقى عبر الممرات والساحات المختلفة؛ فقد أراحنى أن أعلم أننى نلت مؤازرة سيد العبيد، وأنه لم يُبدِ أية معارضة لخطتى الجديدة للذهاب إلى "السودان" عن طريق "العوينات".

كل رجال قافلتى كانوا موجودين هناك عندما دخلت إلى الدار، ونظرة واحدة فى وجوههم أخبرتنى إلى أى مدى كانوا يحبسون استثارتهم؛ فقد كانوا ينتظرون منذ أن توجهت إلى سيد العبيد أن يسمعوا رأيه حول الرحلة إلى الجنوب. وببطء اتخذت طريقى صوب حجرتى وطلبت منهم أن يحضروا؛ فقد كان علىَّ أنا أيضًا أن أقمع استثارتى التى كانت تعود للنجاح وليس للترقب. وكانت هناك فترة توقف طويلة قبل أن أستطيع التحكم فى صوتى وأجعله غير مبال كما يجب أن يكون، وقلت " لقد بارك سيد العبيد رحلتنا إلى "العوينات"، وقرأنا الفاتحة"، ولم أكن أحتاج حتى على النظر فى وجوه الرجال؛ فقد كانت معنا مباركة زعيم السنوسية، ومؤازرة سيد العبيد؛ لذا فسوف يمنحنا الله - سبحانه وتعالى - الثبات والنجاح، والهدى الذى يأتى من عنده".

الفصل الرابع عشر

الكفرة وموضعها على الخريطة

«الجمعة ٦ أبريل: بدأ اليوم بوصول وعاء ضخم ملىء بالزهور رائعة العبير، أرسلها إلينا سيد العبيد. وكانت تلك هى الطريقة التى تناقض بها الصحراء اسمها من حين إلى آخر، لدرجة أننى أتحدى "الريفيرا" أن تنتج أرق من هذا أو أكثر منه عبيرًا».

كان يوم الجمعة، يوم راحة المسلمين، وقد حضرت الصلاة فى المسجد، وكان من المنتظر حضور أمراء السنوسية الصغار، وجاء بعض البدو فى أفضل ملابسهم، ولكن جنبًا إلى جنب وقف من يرتدى أغلى القفاطين الحريرية مع من يرتدى أرخص "الجيردات"، وخلع كل فرد نعليه عند الدخول. راقبتهم لفترة، ها قد جاء أحد أعيان الزوىّ أو لعله تاجر من المجابرة بملابسه الثمينة التى تكشف ثنياتها عن أنها خرجت للتو من الصندوق، وفى عينيه الكحل، الذى يوضع بمراود - عصا الكحل - من العاج أو النحاس. كان كل ما يرتديه ذلك الرجل جديدًا، وينبعث منه عطر نفاذ، لعله ماء ورد نقى من الذى يقطر فى "الكفرة"، أو لعله مسك، أو عطر آخر قوى من السودان. دخل فى وقار واحتل مكانه. وجاء آخر يرتدى جيردًا باليًا، وذو وجه برونزى ذابل ليس مكتنزًا لكنه لا يقل وقارًا عمن سبقه. وقد يكون للملابس دور، ولكن جزءًا من هذا الوقار يعود إلى الكرامة

والشجاعة الطبيعية لدى هؤلاء البشر، وتبرز هذه الصفات بجلاء بين أولئك الذين يرتدون جيردات بالية عن أولئك الذين يرتــدون حريــرًا رقيقًا ويتعطرون؛ إذ تسلبهم هذه الأشياء فى بعض الأحيان بعضًا من سماتهم المتفردة.

جاء أحد العبيد، إنه العبد المفضل وموضع ثقــة أحــد زعمــاء السنوسية، وكانت حلته الحريرية لا تقل قيمة، إن لم تفق فى ألوانهــا الزاهية، وكان هناك القليل الذى ينمُّ عن أنه عبد، كان يشعر بأهميته، ويسير - على نحو لا يقل وقارًا - عبر صفوف المصــلين، ليتخــذ مكانه بجوار أحد النبلاء أو ربما بجوار أحد الشحاذين؛ ففى المســجد لا يستوى الفقير مع الغنى فحسب، لكنــه بطريقــة مهذبــة ينــال انتقامه؛ لأنــه فى منزل الله - سبحانه وتعالى - حيث السيد هــو الله وحده، يشعر الشحاذ قد يفوق ذو الرجل الثرى، طالما أنه لم يــنغمس فى ترف العالم ولم ينسَ الله سبحانه وتعالى، ويعد الجيرد القديم الرث ثوبًا ملائمًا للبدوى للذهاب إلى المسجد من أجل الصلاة، مثل ملاءمة ثوب من الحرير المطرز لرجل سوف يذهب لمقابلة زعيم السنوسية.

استعد المصلون الآن؛ فقد انتهى المؤذن من النداء للصلاة، وحل الصمت، فقد دخل أمراء السنوسية الصغار إلــى المســجد، وشــغلوا الموضع الذى حجز لهم، واستدارت كَل الأعين صوبهم، وعلى الرغم من حداثة سنهم فقد بدوا خجولين قليلاً ومرتبكين بعض الشــىء. لــم ينهض أحد عندما دخلوا؛ لأن هذا هو بيــت الله ســبحانه وتعــالى، وداخله فإن الله وحده هو السيد، اعتلى الإمام المنبر، وبدأ فى الوعظ، وغالبًا ما تكون موضوعات الخطب واحدة؛ فهى تحــض المصــلين

على أن ينأوا بأنفسهم عن العالم ومباهجه، ويستعدوا لحياة السعادة فى العالم الآخر من خلال فعل الخير ودائمًا ما يردد من يلقـى الخطـب "احذروا من زينة العالم ومباهجه؛ لأنها شديدة الإغراء؛ فبمجـرد أن تسقط ضحية لها تفقد روحك وتضل بعيدًا عن الله سـبحانه وتعـالى، تقربوا من الله سبحانه وتعالى بأداء الحسنـات، وإطاعة أوامره. هذه الحياة سوف تنقضى، بينما العالم الآخر هو الأبدى. أعدوا أنفسكم من أجله، ربما تصبحون سعداء فى الآخرة".

كان المسجد من الداخل جميلاً، ببسـاطة خطوطـه وجلالهـا، وحوائطه العارية، المدهونة بالجير الأبيض النظيف، بينمـا كُسـيت الأرض بالسجاجيد والحصر، وجلـس المصـلون القرفصـاء علـى الأرض فى خشوع، كان هناك نحو مـائتين مـنهم يصـطفون فـى صفوف تتجه كلها صوب مكة (الكعبة)، وكان بعضهم يُسَبِّحُ علـى مسبحة من حبات الكهرمان، والبعض الآخر أفقر من أن يكون لديـه مسبحة؛ لذا يحسبون عدد مرات تسبيحهم على أصابعهم. وكان مظهر بعضهم يشى بأنه غنى موسر، وآخرون بأنهم من بدو الصحراء، إلا أن أكثر الانطباعات التى تدهشك هى تلك النظرة المحلقة والسـكينة والقناعة المرسومة على وجوههم، حتى فوق تلك الوجـوه المنهكـة والكادحة فهناك أمارات رباطة جأشٍ تبين أن الرجـال قـد رضـوا بقدرهم، لا يتذمروا من ذلك.

بعد الغداء فى دار سيد العبيد، حضر سليمان بومطـارى مـرة أخرى ليتحدث عن الرحلة إلـى الجنـوب، وأخبرنـى أن بوحليجـا ومحمدًا، اللذين سيصبحان دليلينا، قد التقيا وبحثا الأمر سـويًا، إلا أن بوحليجا كان لا يزال غير مرحب بالذهاب معنا.

أمضى عبد الله اليوم فى "جوف" ليجمع أيـــة معلومـــات يمكنـــه الحصـــول عليهـــا حول طريق "العوينات"، ويمحاول اكتشاف ما إذا كان أفراد التبو سوف يسمحون لى باستئجار إبل مـــنهم مـــن أجـــل الرحلة إلى هناك أم لا.

بعد العشاء عند سيد العبيد، أمضيت بعض الوقت فى مكتبة السيد إدريس، الذى كان قد أعطى تعليماته لجدَّاوى أن يفتحها لـــى، وهـــى عبارة عن حجرة متوسطة المساحة، زاخرة بالصناديق التى تحتـــوى كتبًا. سقفها كان مزخرفًا بألوان زاهية، رسمها أحد الفنانين من أحباب السنوسية، والذى حضر من تونس متطوعًا لهذا الأمر، كما يحدث فى ميدفيل بأوروبا عندما يكرس الرسامون والنحاتون حيـــاتهم ليزينـــوا الكنائس، وكانت كل قطعة صغيرة من الأثاث فى الحجرة قد جـــاءت إما من مصر أو من بنغازى، كما كانت بها نافذة تطل على الخـــارج ذات مصراع خشبى وحيد للحماية من الشمس. ولم يكن من الســـهل التحرك فى الحجرة؛ نظرًا لاصطفاف الكتـــب والصـــناديق بطـــول الحوائط وفى منتصف الحجرة أيضًا.

وكان هناك العديد من الصناديق العتيقة التى تستخدم كخـــزائن، وفى الوقت ذاته مجهزة بملحقات على جانبيها تمكـــن مـــن تحميلهـــا مباشرةً فوق الإبل فى حال نقلها. وكانت المكتبة غير منظمة إلى حد ما؛ فقد كومت الكتب فيها الواحد فوق الآخر بغير اهتمام؛ لأن الســـيد إدريس كان غائبًا لفترة طويلة، كما كـــان هنـــاك عـــدد كبيـــر مـــن المخطوطات الموضوعة فى حافظات مغربية جميلة، والعديـــد مـــن الكتب الحديثة التى طبعت فـــى القـــاهرة والهنـــد، بالإضـــافة إلـــى

مخطوطات من المغرب والجزائر وتونس. وباستثناء بعض الكتب باللغة الفارسية كانت كلها عربية، كما وجدت أيضًا مخطوطين أو ثلاثة للقرآن الكريم مزخرفين بماء الذهب - كان امتيازًا كبيرًا أن يسمح لى بالدخول إلى هذه المكتبة؛ لأنه، كقاعدة عامة، لم يكن يسمح لأحد بذلك - ووجدت العديد من المخطوطات القديمة التى كُتبت بعناية بالغة على رق الغزلان، وهى أعمال فى: الفلسفة، واللغة العربية، والفقه، والتصوف، والشعر، وأخرى فى التعاويذ والسحر. أمضيت الكثير من الساعات المثيرة والممتعة بين هذه المجموعة، وكانت الأجواء والبيئة المحيطة ملائمة تمامًا؛ فقد كنت بعيدًا للغاية عن الضوضاء، ويفصلنى عن العالم أميال عديدة، تكفى لأن يشعر المرء أنه فى حالة تسمح له بتشرب الأفكار التى توجد فى هذه المخطوطات واستيعابها. وجرب أن تجلس على مقعد مريح وسط الحضارة، وحاول أن تقرأ مثل هذه الكتب فإن رنة واحدة من الهاتف كفيلة بأن تنتزعك منها.

السبت ٧ أبريل: تلقيت زوجًا أنيقًا من الأحذية البدوية هديةً من شاروفا، كما حضر زعماء الزوىّ لزيارتى مرة أخرى، وتحدثنا خلال تناولنا القهوة عن تاريخ الزوىّ، واكتشفت أن الزوى لم يكونوا أول من انتزع "الكفرة" من التبو، بل قام بذلك - فيما سبق - قبيلتا "غوازى" و"جاهام"، حتى إن اثنتين من أسماء قرى "الكفرة" هما عبارة عن اسمين لعائلتين من قبيلة جاهام، وهما: "طولاب"، و"زورووق".

أعطيت كل فردٍ من زوارى صورة للمجموعة كنت قد التقطتها لهم منذ عدة أيام مضت، وكانوا سعداء بها.

أدركت في نهاية هذا اليوم مخاطر "الكفرة"؛ فقد كاد رولفس أن يفقد حياته هنا بسبب قلة الطعام، بينما أكاد أن أفقد حياتي بسبب الكرم، فقد تغديت بإفراط - كالمعتاد - عند سيد العبيد، وتلا الطعام شرب القهوة، ثم ثلاثة أكواب من الشاي، المعطر بالعنبر وماء الورد والنعناع، وبعد ذلك ثلاثة أكواب من الحليب الممزوج بعجينة اللوز، ثم أصر شاروفا على أنني يجب أن أذهب إلى داره، وقدّم لي ثلاثة أكواب أخرى من الشاي المعطر، تبعها مرة أخرى بثلاثة أكواب من اللبن الممزوج بعجينة اللوز، وكنت أعلم جيدًا أن الرفض يعني الإهانة، لذا ابتلعت المشروب الذي أصبح الآن يدفعني للغثيان، إلا أن النهاية لم تأتِ بعد، فقد اصطحبني بعد ذلك شمس الدين إلى داره ووضع أمامي بسكويتًا وبندقًا وكأسًا ضخمة مليئة بعصير الفاكهة، أصبح الأمر أصعب من أن يتحمله بشر من لحم ودم، ولكن الرفض يعني الإهانة، ثم تلاها ثلاثة أكواب من القهوة وتناولتها وأنا مثل رجل ذاهب إلى حبل المشنقة.

وبينما كنت ممددًا في حجرتي لأتعافى، طاف بخلدي العديد من الأفكار، لعل من أطرفها أنني تمنيت لو مات قبل أن يولد ذلك البدوي - أيًا كان - الذي اختار رقم ثلاثة كرقم سري يميز الضيافة في الصحراء، ولعله من حسن الحظ أنه لم يختر رقم سبعة عوضًا عن ثلاثة. فقد جئت إلى الصحراء مستعدًا تمامًا للهلاك بواسطة قسوة الطبيعة، أو الرجال المعادين، ولكن فكرة الهلاك من خلال عسر الهضم لم تخطر على بالي مطلقًا.

ورغم هذا ذهبت في الموعد المحدد إلى دار سيد العبيد من أجل العشاء، وكان بعض زعماء البدو رفقائي في الاستضافة، ومرة

أخرى ناقشنا أمر الرحلة صوب الجنوب، وأصر بوحليجا على رفضه الذهاب عبر طريق "العوينات".

وقال إن الشروط التى وضعها السيد إدريس، تتعلق برحلة إلى "الواداى" وليس "دارفور"، وما كان ليرسل رجاله أو إبله إلى هذا الطريق. وجادلته قائلاً إنه طالما تعاقد على تزويدنا بخمس وثلاثين (مراحل) – أو يوم سفر من الكفرة صوب الجنوب – فإنه يجب ألا يكون هناك فرق سواء استخدمت هذه (المراحل) فى الذهاب إلى "الواداى" أو إلى "الفاشر" أو حتى العودة إلى مصر، لم يقنعه هذا التفكير، ولكن عندما لاحظ أننى مصمم، وأن سيد العبيد لا يعارض خطتى، وأننى مستعد لاصطحاب إبل أقل مما يتطلبه الأمر فى العادة، وافق كارهًا بشرط ألا يذهب هو أو يرسل أحدًا من رجاله.

الأحد ٨ أبريل: وصل أمر حصان بوحليجا إلى نهايته، فقد اشتريته بثلاثة وثلاثين جنيهًا، كان قويًا وقادرًا على السفر بصورة عظيمة، ولا يحتاج للشرب سوى كل يومين.

بعد الغداء التقطت صورة لسيد العبيد، وتحدثت معه طويلاً عن مرضه، وكيف أنه يتحمله بجلد حقيقى، وعن الوضع الراهن فى برقة ومصر، وخططى للسفر إلى السودان.

صادف سوء الحظ أعمالى العلمية فى "الكفرة"؛ فلم يكن من السهل علىَّ الفرار من المراقبة، أو التحرك بمفردى، أو استخدام أدواتى العلمية دون إثارة الريبة، وكان من أسوأ الأمور أن ظلت السماء ملبدة بالغيوم منذ أن وصلت إلى هناك، وكنت غير قادر على أن أرصد الشمس أو النجم القطبى باستخدام الثيودوليت.

بعد العشاء أصبحت متعبًا للغاية؛ فقد استنفدت كل حبوب عسر الهضم التى أحضرتها معى، وكنت أشعر أنه قد يكون من المريح أن أعود مرة أخرى إلى بساطة الصحراء.

الاثنين ٩ أبريل: ظل الجو ملبدًا بالغيوم، وهبَّت بعض النسمات الباردة. أمضيت يومًا هادئًا، أقرأ داخل مكتبة السيد إدريس، وأحمض بعض الأفلام، وأشترى قربًا وشعيرًا للرحلة، كما أعطانى السيد العبيد نسخًا كتبها بخط يديه من خطابات السيد المهدى للإخوان، وأهدانى إحدى سكاكين البربر فى جراب من الفضة ومسدسًا ذا زند مكفف بشغل نحاسى جميل.

الثلاثاء ١٠ أبريل: انقشعت السحب بعد ظهر هذا اليوم، والتقطت بعض الصور للوادى، ورتبت مع صانع أحذية ليصنع أحذية لى ولرجالى، وأن يزودنا بأحزمة عريضة للكتف من تلك التى يوضع بها الرصاص، والتى أصر الرجال على الحصول عليها بعد الإشاعات المحذرة التى سمعوها.

قابلت محمد سكر للمرة الأولى، والذى من المفترض أن يكون دليلنا على طريق "العوينات"، وقد راقنى كثيرًا.

الأربعاء ١١ أبريل: سمع سيد العبيد عن شرائى لحصان حليجا، فأرسل لى سيفًا من سيوف الطوارق وبندقية إيطالية قصيرة من ماركة " كاربين" لكى أحملهما عندما أمتطيه.

وأخيرًا أصبحت قادرًا على أن أجمع ملاحظاتى باستخدام ودوليتى، وكنت تواقًا لمعرفة هل سوف تتفق نتائجى مع نتائج رولفس أو لا؟

الخميس ١٢ أبريل: أرسلت إحدى بنادقى هدية إلى سيد العبيد. وتوجهت بعد الظهر مع السيد محمد بوتمانىا وزروالى إلى "جوف"، وهناك قابلنا زعيم القرية، وزرت السوق الذى يعقد أسبوعيًا هناك، والزاوية التى تعد أقدم مدرسة سنوسية فى "الكفرة"، والمسجد الموجود بها.

و" جوف " هى المركز التجارى "للكفرة"، وكان من المثير أن أجد فى سوقها خراطيش البنادق التى يعود تاريخ صنعها إلى ثلاثين عامًا مضت جنبًا إلى جنب مع علب الصلصة الإيطالية القادمة من "بنغازى"، والقماش القطنى الأزرق والأبيض المصنوع فى "مانشستر" والمستورد من "مصر"، والجلد والعاج وريش النعام القادم من "الواداى"، إلا أن منتجات الجنوب بصفة عامة ليست كثيرة فى "الكفرة" فى الوقت الحالى، باستثناء تلك التى يجلبها التجار الذين حال أمر ما دون أن يستكملوا رحلتهم إلى الشمال فيضطروا أن يبيعوا ما أحضروه فى "برقة" أو"مصر".

وقد شهدت "الكفرة" أفضل أيامها بوصفها مركزًا تجاريًّا قبل احتلال السودان؛ ففى هذا الوقت كان من الأسهل تدفق منتجات "الواداى" و"دارفور" عبر"الكفرة" مقارنةً بالطريق الذى يوجد فى الشرق، وحتى الآن لا تزال بعض السلع تهرب عبر "الكفرة"، كالعاج الذى تحرم الحكومة السودانية تجارته.

بالإضافة إلى التجارة التى تمر عبر "الكفرة"، فإن معظم زعماء الزوىّ الكبار الذين لديهم ما يكفى من العبيد يمارسون الزراعة؛ حيث يزرعون الشعير والذرة، ويعد السنوسية أكثر تقدمًا منهم؛ لأنهم

يزرعون البطيخ، والعنب، والموز، والكوسة، والخضراوات الأخرى الشهية، التى يعد تناولها رفاهية كبيرة بعد رتابة الترحال فى الصحراء، كما يزرعون النعناع والورد، ويصنعان منهما ماء الورد وروح النعناع اللذين يعدان عنصرين أساسيين فى مراسم الضيافة فى الصحراء، ومن أشجار الزيتون القليلة ينتج زيت الزيتون فى معاصر بدائية، وتقتصر الحيوانات فى "الكفرة" على الإبل، والغنم، والحمير، وبعض الخيل، ويعد اللحم باهظ الثمن نظرًا لوجود مساحات محدودة للرعى فى هذه المنطقة. وتعلف الحيوانات على نوى التمر المطحون، الذى يعد غذاء رئيسيًا جيدًا، إلا أن الأعشاب الخضراء قد تعد ضرورية فى بعض الأحيان. والسنوسية الذين يعدون أكثر تطورًا من جيرانهم فى كل شىء يربون الدجاج والحمام.

* * *

وعندما كنت فى "الكفرة" علمت أن أسعار العبيد قد ارتفعت ارتفاعًا كبيرًا فى السنوات الأخيرة؛ لأنه لم يعد هناك عبيد جديدة تأتى من "الواداى"، نتيجة ليقظة السلطات الفرنسية فى هذه المقاطعة. ويتحايل البدو أحيانًا على هذا الأمر من خلال إبرام عقود زواج على الإماء فى "الواداى"، وعندما يعودون يطلقونهن ثم يبيعوهن. وفى إحدى رحلاتى عام ١٩١٦ عُرض علىَّ إحدى الإماء مقابل ستة جنيهات ذهب أو ما يعادل (١٢٠ فرنك)، أما الآن فالسعر يتراوح بين ثلاثين وأربعين جنيهًا، وبصفة عامة يعد سعر الإماء أرخص من العبيد، وقد يتزوج البدو من إمائهم فى بعض الأحيان، وإذا ما أنجبت الأمة طفلاً ذكرًا فإنها تصبح حرة على نحو تلقائى. ولا يوجد لدى

البدو أى تحامل تجاه اللون؛ لأنه إذا ما ولدت إحدى الإماء طفلاً من شيخ القبيلة، وكان هذا الطفل أكبر أبنائه الذكور، فإنه سيصبح عندما يشب – بحكم واقع الأمور – رأس القبيلة، مهما كان سواده، فى حين يظل أبناء العبيد عبيدًا، كما يصبح طفل الأمة والرجل الحر حرًّا مهما كان فقيرًا، حتى وإن مات والده وأصبح يتيمًا، فإنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يصبح عبدًا. واقتناء العديد من العبيد يعد من الأمور المفضلة لدى البدو، وقد يصبحون ذوى قوة ونفوذًا أكبر من الرجال الأحرار استنادًا إلى ثقل أسيادهم. وهم يعاملون جيدًا ويصبحون أعضاء فى الأسرة، ويرتدون ثيابًا جيدة؛ لأن ثياب العبد الرديئة تنعكس بصورة سيئة على سيده؛ تمامًا مثلما تنتقص ملابس الخادم الرثة من تألق الرولزرويس الخاصة بالمليونيرات.

والعبد الأثير للسيد إدريس – على كاجا – لا يعد أكثر الرجال الذين يثق بهم فحسب، بل لديه أيضًا قوة وسلطة بين البدو أنفسهم أكثر من العديد من الرجال الأحرار؛ فهذا العبد يعامل كمؤتمن؛ فإذا ما حضر إلىَّ عبد السيد عبيد ومعه رسالة، فإنى أتلقاها على اعتبار أنها حقيقة مطلقة، عالمًا أنه من واجبه أن يتلو بالضبط ما قيل له. وبالطريقة نفسها، فإذا ما رغبت فى أن يصل شىء ما إلى أذن سيد العبيد، وتحديدًا إلى أذنه فقط؛ فأنا أعلم أننى أستطيع أن أقوله لعبده دون لحظة تردد واحدة، وأثق تمامًا أن الأمر لن يذهب إلى أى مكان آخر، ويسمح للعبد بشراء أمة لنفسه ليتزوجها.

وذات مرة سألت على كاجا عن أسعار العبيد فتذمر قائلاً " لقد أصبحوا باهظى الثمن هذه الأيام؛ فمنذ أيام اشتريت أحدهم وكلفتنى

٤٠ جنيهًا بالعملات الذهبية الإنجليزية"، قالها بنغمة كما لو لم يكن هو نفسه عبدًا.

وأضاف قائلاً إن العبد رث الملابس الذى تراه الواحة غالبًا ما يكون عبدًا قد أُعتق، ويُنظر إليه بفضول بالغ من قبل العبيد الآخرين، بينما يشعر هو فى قرارة نفسه بالعار؛ لأنه أعتق ولم يعد ملكًا لأحد.

* * *

هناك العديد من أشجار النخيل التى تنتشر فى وادى "الكفرة"، والعديد منها تخص السنوسية؛ فعندما دعا الزوىّ السيد بن السنوسى ليأتى إلى "الكفرة"، منح كل فرد منهم السنوسى ثلث ممتلكاته من الأرض والنخيل، ومن ثم أصبحت نسبة امتلاك النخيل بين السنوسية والزوىّ هى واحد إلى اثنين على الترتيب، واعتبارًا من هذا الوقت أصبح ينظر بإجلال إلى الزوىّ، كما قام السكان القاطنون فى الوادى بزراعة أشجار جديدة مما زاد من حيازتهم، ولا يزال المرء يستطيع رؤية تلك الجدران التى تفصل بين أرض السنوسى وتلك الخاصة بالزوىّ.

* * *

فى طريق عودتنا من " الجوف " مررنا بحفل زفاف؛ فقد كان الضابط قائد الفرقة العسكرية فى "الكفرة" يتزوج، ودعانى والد العروس لأن أفرغ بندقيتى على شرف هذه المناسبة، وكنت سعيدًا بأن أجامل هذا الضابط الذى كان صديقًا قديمًا لى، وبينما كانوا يطلقون بنادقهم للتحية، عدوت بحصانى إلى الحفل - وفق الطريقة

البدوية الأصيلة - وكبحت جماحه فجأة أمام العروس، وأطلقت بندقيتى صوب الأرض أمامها، وكان ما يدعو للدهشة هو كيف استطاع "بركة" - الحصان - في اللحظة التى سمع فيها صوت البنادق أن يعدو ويحضر بى فى سرعة بالغة عند الموضع الملائم لإطلاق النار، فقد كان ذلك جزءًا من تدريبه.

الجمعة ١٣ أبريل: حضر إلىَّ أحد عبيد السيد إدريس يشكو من مرض يعانى منه منذ شهرين، بدا كما لو كان عسر هضم يصاحبه قىء مستمر، أعطيته أنيرًا ممزوجًا بالسكر واللبن والأرز كدواء، وفى المساء أصبحت حالته أفضل.

وصل بوحليجا من "الهوارى" ومعه سبعة عشر جملاً وناقة، وطلبت منه أن يكملها خمسة وعشرين كما اتفقنا من قبل.

زارنى العريس وحماه ليشكرانى على المجاملة التى قمتُ بها فى موكب الزفاف.

السبت ١٤ أبريل: أحضر بوحليجا باقى الإبل، وكان يعانى من مأزق إرسال أحد معنا؛ فلم يكن يبغى إرسال ابنه أو حتى أحد عبيده فى هذه الرحلة الخطرة، التى قد لا يخرج منها أحد على قيد الحياة، بينما فى المقابل كان هناك احتمال بعيد أن يكون القدر رحيمًا بنا ويدعنا ننجو، وفى هذه الحالة - رغمَ أنها قد تكون بعيدة الاحتمال بالنسبة إليه - فإذا لم يكن هناك من يمثله معنا، فكيف له أن يستعيد إبله أو على الأصح قيمتها؟ لأنه من الطبيعى أن يبيعها فى نهاية الرحلة.

قضينا فترة بعد الظهر فى حزم الأمتعة، بينما أمضيت المساء فى جمع الملاحظات العلمية، أصبح الطقس أكثر روعة، وكانت تلك هى الليلة الثالثة التى استطعتُ فيها رؤية النجم القطبى منذ أن وصلنا إلى هذه البقعة، وكنتُ قد عزمت ألا أترك "الكفرة" قبل أن أتمكن من رصده على الأقل فى ليلتين مختلفتين.

الأحد ١٥ أبريل: أنفقنا الصباح فى تحميل الإبل، وكان بوحليجا لا يزال يواجه مأزق إرسال رجل معنا، لكن طالما حصلت على الإبل فكان سيان عندى ما سوف يقرره.

كان العبد الذى كنت أعالجه مندهشاً من تحسن صحته، وجاء ليشكرنى، ولم يكن أحد أكثر اندهاشاً منى بما استطعت فعله.

فى الثانية بعد الظهر تحركت القافلة صوب "عزيلا"، وهى آخر آبار وادى "الكفرة" فى الجنوب، وكنا سنتوجه هناك "للتجهيز"، والذى تطلب بضعة أيام لاستكمال استعدادنا النهائى، كما اشتريت خروفين من أجل "بوزافار"؛ حيث لم يكن أحد منا قد قطع هذه الرحلة من قبل. كان كل رجالى يرتدون ملابس جديدة، ويبدون فى مظهر مبهج فى ملابسهم البيضاء النظيفة وأحذيتهم الحمراء، وقد نظفوا بنادقهم بعناية، وكانت تتألق وهى معلقة خلف ظهورهم، كما بدت معظم الإبل الجديدة نشيطة وقوية.

الاثنين ١٦ أبريل: أخذ عبدالله الحصان إلى "التاج" لتركيب حداوٍ له؛ لأننى وجدت أن الأرض الصخرية كانت قاسية عليه، كما أرسلت صينية نحاسية إلى القائد كهدية زفاف، وأرسلت آخر ثلاث زجاجات من البوفريل إلى عبد السيد إدريس المريض.

تأخر رحيلنا؛ لأن دليلنا كان لا يزال مشغولاً مع القاضى حول بعض الأمور القانونية المتعلقة بالإبل.

الثلاثاء ١٧ أبريل: تناولت الإفطار فى "الجوف" عند سليمان بوماتارى مع زروالى، وعبد الله، والقائد، وصلاح، ومحمد بوتامنيا، وقد ظل الجميع يداعبون القائد؛ لكونه عريسًا جديدًا، ورفض أن يشاركهم تناول الأطباق المطهية بالبصل، ووجدتُ بوتامنيا يقول له وهو يغمز بعينيه " إنهن لا يسامحن عندما يكن صغارًا".

اشتريت أحد الهجن أو إبل العَدْو لاستخدامى الشخصى، ودفعت تسعة جنيهات ثمنًا له، وفى النهاية أصبحنا مستعدين لنبدأ فى اليوم التالى.

وبينما كنتُ أجمع آخر ملاحظاتى عن النجم القطبى، أصبح لدى أمل قوى بأننى سوف أنجح فى وضع "الكفرة" فى موضعها الصحيح على الخريطة. وكنتُ شغوفًا بالتحقق مما حدده رولفس عن موضع "الكفرة"، والتى قام بها اعتمادًا على ملاحظات رفيقه ستيكر فى "بوما"؛ "فالتاج" لم تكن قد بنيت فى زمن رولفس.

إلا أنه عندما جمعت ملاحظاتى الأولى عن "التاج" اكتشفت أنها لا تتفق مع نتائج ستيكر فى "بوما"، والتى تبعد نحو كيلومترين عن التاج بدرجة ٥٤ درجة صوب الشرق من الشمال الحقيقى؛[٣٥] لذا

---

(٣٥) يفرق الجغرافيون بين نوعين من اتجاه الشمال هما: الشمال الحقيقى " الجغرافى"، والشمال المغناطيسى. واتجاه الشمال الحقيقى ثابت لا يتغير، بينما الشمال المغنطيسى – الذى تستخدم البوصلة لتحديدة – يتغير من منطقة إلى أخرى نتيجة لما يعرف بالانحراف المغنطيسى للمنطقة، وعند معرفة قيمة هذا الانحراف يُعاد تصحيح قراءة البوصلة لتتوافق نتائجها مع الشمال الحقيقى. "المترجمان"

عزمت على ألا أترك "الكفرة" حتى أرصد عددًا كافيًا من الرصدات الآمنة تكفى لتلافى حدوث أى خطأ محتمل؛ فقد رصدت النجم القطبى بواسطة الثيودوليت على مدار ست ليالٍ مختلفة، وفق الضوابط التى ذكرها دكتور بول فى ورقته العلمية المستخلصة من نتائج الرحلة، والتى بيَّن فيها أن مدى الخطأ المحتمل لا يزيد عن دقيقة واحدة فى خطوط الطول أو العرض.

ووفقًا لنتائج ملاحظاتى، عندما تم استخلاصها بعد عودتى إلى القاهرة، وجدت أن "الكفرة" تقع على بعد نحو ٤٠ كيلومترًا جنوب الجنوب الشرقى من الموضع الذى حدده رولفس طبقًا لملاحظات ستيكر، كما وجدت أن منسوب "الكفرة" يكاد أن يكون على الارتفاع نفسه الذى سجله رولفس، البالغ ٤٠٠ متر "لبوما" عند منسوب أرض الوادى، ونحو ٤٧٥ مترًا " للتاج" عند حواف الوادى.

الفصل الخامس عشر

واحة أركينو المفقودة

«الأربعاء ١٨ أبريل: أخيرًا عثر بوحليجا على رجلين وافقا على أن يذهبا مع إبله هما: بوكارا وحميد، كانا فقيرين، وبدا في عينيهما أن المال الذى سيجنياه أكبر من الخطر المنتظر».

أرسل سيد العبيد ثلاثة أفراد نيابةً عنه ليودعونا، وأحضروا منه خطاب وداع مسَّ قلبى. كما جاء بوحليجا ليسلم علينا، وفى اللحظة الأخيرة كانت هناك دموع فى عينيه، ولا أحسب أن سببها الخوف على إبله أو الرجال الذين أرسلهم معنا، فعلى الرغم من خلافنا حول الطريق، فقد ظللنا صديقين حقيقيين، كان بيننا ود واحترام متبادل.

أما رجالى فقد ودعهم أصدقاؤهم، كما لو كان ذلك هو آخر لقاء لهم. كان هذا الوداع هو أكثر الوداعات المؤثرة طوال هذه الرحلة. "ربنا يخلى السلامة ترافقكم...اللى مكتوب وهوه اللى هيحصل. ربنا يرشدكم للطريق الصحيح، ويحميكم من الأشرار". كان هناك قليل من ذلك اليقين بسلامة الوصول الذى يتملك أولئك الذين يذهبون وأولئك الذين يبقون عندما يكون الفراق لقضاء عطلة.

كانت هناك بعض الرعشة فى جُمل الوداع الأخيرة؛ فالكل يعلم ما قد مر فى الأيام الماضية والخوف الذى تعرض له الرجال.

وكنت أستطيع أن أخمن ما يجول بعقولهم؛ فبينما كنت مستثارًا بأفكار الواحات المفقودة، والسير فى طرق غير معروفة، والذهاب إلى المجهول، كانوا يفكرون أن هذه المرة قد تكون الأخيرة التى يصافحون فيها أصدقاءهم، حتى إنه كانت هناك نظرة شفقة تعتلى وجوه بعض أولئك الذين جاءوا ليودعونا ويدعوا لنا برحلة موفقة، كما لو كان دعاءهم لرجالٍ هالكين، ورغم هذا - فلأنهم بدو - فقد كانوا يشعرون أيضًا بأن ذلك مكتوب.

قرأنا الفاتحة - السورة الأولى فى القرآن الكريم - وختمناها بكلمة آمين، ثم تلا ذلك النداء لإقامة الصلاة...

كنا عند حدود وادى "الكفرة"؛ حيث تنتهى الواحة وتمتد الصحراء أمامنا، وتبادلنا الوداع عند هذا الموضع، وبينما كنا نعبر الوادى إلى الصحراء المنبسطة، نظرنا خلفنا صوب أشجار النخيل، كانت الشمس وقت الغروب وبدأ الليل يرخى سدوله، وصارت "الكفرة" ذاتها فى الضوء المتضائل تومض كما لو كنت تنظر إليها من ثقب كاميرا. ورجع أولئك الذين جاءوا لوداعنا، ولم يعودوا ينظرون خلفهم أكثر من هذا، بينما انطلقنا نحن صوب المجهول.

كنت متلهفًا على الرحيل من "الكفرة" حتى أجعل رجالى يحولون ذهنهم صوب المهمة التى تواجههم.

أخيرًا قمنا بالبداية الحقيقية؛ فكل شىء أمامى مجهول، ملىء بالغموض والسحر الكامن فى تلك المناطق من سطح الأرض، تلك التى لم يطرقها أى إنسان من العالم الخارجى.

بدأنا فى الرابعة والنصف ظهرًا، وتوقفنا فى الثامنة والربع مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة خمسة عشر كيلومترًا، كان الجو صحوًا وصافيًا، يخلو من الرياح. سرنا فوق رمال قاسية يكسوها حصى دقيق للغاية، ذات تموج طفيف، وبعد أن تركنا نخيل "عزيلا" و"الكفرة"، عبرنا نطاقًا من الحطب يشبه ذلك الذى فى "زيغن"، وفى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة دخلنا السريرة، وفى السادسة والنصف مساءً مررنا بتل صغير يشكل الحد الجنوبى لوادى "الكفرة"، وفى الثامنة والربع وصلنا إلى "حطية الحوش"، التى يميزها الحطب الجاف، الذى لابد من أنه كان أخضر فى يوم من الأيام. تركنا رجلين خلفنا ليجلبا حملين من هذا الحطب سوف يحملانه على إبل التبو.

أصبحت قافلتنا الآن تتألف من سبعة وعشرين جملاً وناقة وتسعة عشر فردًا هم: أنا، وزروالى، وعبد الله، وأحمد، وحماد، وإسماعيل، وسنوسى بوحسان، وسنوسى بوجابر، وحامد الزوىّ، وسعد العجيل، وفراج "العبد"، وبوكارا، وأخوه الصغير حميد، والجمَّال، وحسان، ومحمد دليلنا، وثلاثة من أفراد التبو.

مداخلة من مذكراتى:

الخميس ١٩ أبريل: بدأنا فى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهرًا، وتوقفنا فى السابعة والربع مساءً، قطعنا نحو أربعة وعشرين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى نحو ٣٢ درجة مئوية، ودرجة الحرارة الصغرى ١١ درجة مئوية، كان الجو صحوًا وصافيًا، مع بعض السحب البيضاء. هبَّت نسمات من الجنوب

الشرقى توقفت عند الظهر، بعد أن تركنا "حطية الحوش" دخلنا إلى السريرة مرة أخرى، وكانت عبارة عن امتداد مسطح من الرمال القاسية يغطيها الحصى الدقيق، وكانت تمتد شرق الحطية سلسلة من الروابى الرملية تكسوها أحجار بنية داكنة، وإلى الغرب منها توجد سلسلة أخرى مشابهة تبعد نحو أربعة كيلومترات.

فى الثانية والربع ظهرًا مررنا بنهاية "حطية الحوش"، وكان اتساع الحطية نحو كيلومترين، وفى الثالثة وخمس وأربعين دقيقة شاهدنا "جارة" على يسارنا تبعد نحو كيلومترين، وفى الخامسة مررنا بجارة أخرى تبعد نحو أربعة كيلومترات عن يميننا، وفى السادسة والنصف أصبحت الرمال أنعم، مع وجود رقع من الأحجار الحمراء والسوداء، وأصبح السطح متموجًا.

تأخرنا فى البداية؛ فقد انتظرنا الجملين اللذين تركناهما خلفنا، واستثمرنا ذلك الوقت فى جمع الحطب، كان الجو حارًّا للغاية، وسريعًا ما شعرت الإبل بالتعب بسبب الحرارة. كانت المنطقة التى نعبرها تشبه تلك التى توجد بين " بوطفل " و"زيغن"، وبمعاونه هجينى الجديد أصبح من السهل علىَّ أن أتقهقر خلف القافلة لأجمع الملاحظات دون أن أثير الشبهات، وكان علينا أن نخيم مبكرًا بسبب حالة الإبل.

الجمعة ٢٠ أبريل: بدأنا فى الثانية صباحًا، وتوقفنا فى التاسعة والنصف صباحًا، وعدنا للسير مرة أخرى فى الثالثة والنصف بعد الظهر، وتوقفنا نهائيًا فى الثامنة مساءً، قطعنا ثمانية وأربعين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بينما

بلغت درجة الحرارة الصغرى ١٠ درجات مئوية، والتى قيست بعد منتصف الليل بنصف ساعة، كان الجو صحوًا وصافيًا، مع وجود رياح جنوبية شرقية باردة فى الصباح الباكر، توقفت ظهرًا، ثم عادت للهبوب من جديد فى الرابعة بعد الظهر، وفى المساء تغير اتجاهها إلى الشمال الشرقى.

فى الرابعة صباحًا اجتزنا منطقة متموجة تنتشر بها الأحجار، وفى السادسة دخلنا السريرة المسطحة مرة أخرى، وفى الخامسة وخمسين دقيقة أشرقت الشمس. وحينئذ كانت تمتد على يميننا ويسارنا تلال رملية منخفضة على بعد يتراوح بين ٨ و١٠ كيلومترات، وفى الصباح شاهدنا أحد طيور السنونو،[٣٦] وبعد الظهر شاهدنا أحد الصقور، وفى الرابعة وعشرين دقيقة عبرنا كثبانًا رملية منخفضة، وشاهدنا جارة سوداء عبارة عن رابية طويلة منخفضة تقع فى اتجاه ١٠ درجات جنوب الجنوب الشرقى.

كان هذا أسوأ أجزاء الرحلة فى السفر - حتى الآن - إذا ما وضع فى الاعتبار ظروف درجة الحرارة؛ ففى منتصف اليوم كان السير صعبًا جدًّا؛ لأن الجو كان حارًّا للغاية، وفى المساء كان الجو شديد البرودة؛ لذا كنا نبدأ سير بعد منتصف الليل ونستريح خلال حرارة النهار. وكنا نعانى مشاكل مع الأمتعة بسبب صعوبة الحزم الجيد والتحميل فى الظلام. ومع ذلك فقد سافرت الإبل بشكل أفضل فى هذه الأيام.

---

(٣٦) يسمى أيضًا "بالخطاف"، وهو طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل. "المترجمان"

كان هذا هو اليوم الرابع من الشهر القمرى، والبدو يراقبون حالة الطقس فى هذا اليوم، لاعتقاهم أن طقس باقى الشهر سوف يكون مشابهًا لهذا اليوم، وقد أثبت هذا الأمر صحته خلال هذه الفترة.

السبت ٢١ أبريل: بدأنا فى الثانية والنصف صباحًا، وفى السادسة صباحًا مررنا بمنطقة صخرية وتلالية استمرت لنحو ١٢ كيلومترًا، ثم مررنا على يسارنا بجاره تسمى " جارة كودى"، وفى التاسعة صباحًا دخلنا مرة أخرى إلى السريرة، مع وجود كثبان رملية بعيدة من اليمين واليسار.

بعد أن بدأنا بقليل سقط أحد الإبل مريضًا، ورفض أن يقوم حتى بعد أن وضعت عنه كل حمولته؛ لذا تركنا بدويين خلفنا ليستدميانه ولكن جهودهما لرعايته ضاعت سدى، وكان يجب أن يُذبح، وقد حرمت على البدو أكل لحمه، ولكن بعد ذلك، عند توقف الظهيرة قام اثنان من التبو بإلقاء حمولة جمليهما، وعادا ليجففا لحمه ويتركاه لحين عودتهما من "العوينات"، على أن يلحقا بنا بعد ذلك، وقد أخرنا هذا الأمر نحو الساعة.

فى الليلة السابقة نام الرجال قليلاً، وكانوا متعبين للغاية بعد شروق الشمس، خاصة من تأثير الحرارة الشديدة التى أجهدت كل من الرجال والإبل؛ لذا توقفنا من الظهر حتى الساعة الرابعة، حيث كانت قافلة مجهدة للغاية تلك التى بدأت مرة أخرى فى الرابعة والنصف، وتحركت ببطء للأمام.

وعلى الرمال رأيت صقرين وعُشًا حديثًا للطيور.

الأحد ٢٢ أبريل: سافرنا فوق رمال خشنة منبسطة، كما كانت توجد بها بعض الروابى الرملية، التى يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة وعشرة أمتار، وكانت تكسوها صخور سوداء. وفى الخامسة والنصف صباحًا رأينا سلسلة من التلال على يسارنا تمتد من الشمال إلى الجنوب الغربى، وفى الثامنة صباحًا دخلنا منطقة تلال وعرة، استمرت طوال اليوم، كانت تسمى "وادى الماراهيج"، كما عثرنا فى طريقنا على بيض نعام محطم.

كان تحميلنا أفضل هذا اليوم، إلا أن الرجال كانوا متعبين، وسقط الكثير منهم محاولاً اقتناص نصف ساعة من للنوم، ثم لحقوا بالقافلة عندما استيقظوا.

أحضر لى بوكارا نسرين صغيرين جلبهما من عشهما الذى كان فوق قمة إحدى الجارات، وأمرته أن يعيدهما، وتابعته حتى فعل ذلك.

مرض هجينى، وأصبح لزامًا أن يسير بعد الظهر دون حمل أو حتى سرجٍ.

فى أثناء توقف الظهيرة، سقط الرجال نيامًا على الفور وتصاعد غطيطهم بقوة؛ فهذا النمط من الترحال عمل قاس وممل، لكننا اعتدنا عليه.

الاثنين ٢٣ أبريل: بدأنا فى الثانية والنصف صباحًا، وتوقفنا فى التاسعة والربع صباحًا، وعدنا للسير مرة ثانية فى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا فى التاسعة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ستة وأربعين كيلومترًا.

كانت تلك أكثر مراحل الرحلة إجهادًا، من بين كل ما قطعناه حتى الآن؛ فلمدة ثمانية أيام لم يُتح لنا سوى أربع ساعات للنوم كل يوم، كما كنا نبدأ بالكاد قبل الرجال الذين كانوا يقتنصون نصف ساعة من النوم، تاركين الإبل تتبع الوهج الشاحب لمصباح الدليل، ولم أستطع السماح لنفسى بهذا الامتياز بسبب قلقى على معداتى العلمية؛ فالتحميل الذى يتم فى الظلام غير آمن، وانزلاق الأربطة قد يعنى تحطيم المعدات أو الكاميرات.

وفى هذه الأثناء كان يتوقف جمل أو اثنان ويبرك ويأبى النهوض، وعندها يأتى أحد التبو ويضغط بإبهامه على أحد الأوردة الكبيرة فى جبهة الجمل فيعالجه، ويبدو أن هذا الأمر يريح الدابة.

أمضينا وقتًا عصيبًا فى عبور الكثبان الرملية العالية شديدة الانحدار، عندما برز فجأة أمامنا جبل مثل قلعة "ميدفيل" المختفى نصفها فى الضباب، وبعد بضع دقائق، بزغت الشمس فوقه لتحيل ذلك اللون الرمادى البارد إلى الوردى والقرنفلى الدافئ.

تركتُ القافلة تمضى، وجلستُ لمدة نصف ساعة فوق الكثبان الرملية، وسمحت لمشهد هذا الجبل الأسطورى أن يفعل ما يشاء بعقلى وقلبى؛ فقد وجدت ما أتيتُ للبحث عنه، تلك هى جبال أركينو.

كانت لحظة بارزة طول الرحلة، فأى مصاعب تحملتها، وأى مصاعب مازالت تنتظرنى كانت لا تعنى شيئًا عند مقارنتها بالبهجة التى تعترينى الآن أمام مرأى هذه التلال، لم يكن الأمر أشبه بالذهاب للبحث عن كنز مخفى يجب أن تحفر لتستخرجه من الأرض، فقد كان

يقف هناك منتصبًا عاليًا أمامى؛ لذا كنت أمتع عينى برؤيته، حتى إننى حاولت استعادة لحظة اكتشافه، كنا نتهادى أعلى وأسفل، ونحن نعبر الكثبان الرملية فى الساعات الرمادية الباردة التى تسبق الفجر، وفجأة عند الكثيب الأخير بدا الأمر كأن أحدهم يسحب ستارة عن هذه التلال السحرية، التى لم أرَ شبيهًا لها فى الصحراء الليبية كلها، منذ أن تركت "السلوم" حتى وصلت إلى هذه البقعة، لم يكن هناك شىء يشبه جبال "أركينو"، تملكتنى رؤيته حتى شعرت لبرهة أننى لم أعد فى الصحراء بعد الآن.

الثلاثاء ٢٤ أبريل: كان قد مرَّ ١١١ يومًا على مغادرتى "السلوم"، ونحو ١٤٠ يومًا على مغادرتى " القاهرة".

اجتزنا منطقة وعرة، رمالها تكسوها الصخور، وأرضها متموجة. وفى الخامسة صباحًا دخلنا منطقة كثبان رملية كثيفة، وبعد هذه الكثبان عادت الأرض صخرية من جديد، ثم بعد ذلك أصبحت رمالاً قاسية يكسوها الحصى. كان هناك تل كبير من الأحجار الرملية يبلغ طوله ٢ كيلومتر تقريبًا، وارتفاعه مائة متر أو نحو ذلك تقريبًا إلى الشمال من جبل "أركينو"، وعلى بعد مائة متر فقط منه.

كان هناك شروق رائع للشمس، بظلالها الحمراء والذهبية التى تخترق السحب الرمادية، وسرعان ما توقفت الرياح الباردة، وأصبح الجو حارًّا وخانقًا.

وجبل "أركينو" عبارة عن كتلة من الجرانيت، تجوى(٣٧) سطحها الرمادى، وتحول إلى اللون البنى الضارب إلى الحمرة، وهو يرتفع فى اتساق لنحو ٥٠٠ متر من سطح الصحراء، ويتألف من سلسلة من الكتل المخروطية، التى تمتد معًا دون أى فاصل بينها. اقتربنا منه عند أقصى نقاطه الغربية، وعندما وصلنا صوبه، لم نستطع أن نقرر إلى أى مدى يمتد صوب الشرق، فعند أبعد نقطة شرقًا استطعنا رؤيتها فى هذا الاتجاه ارتفع ليصبح قمة جبلية واختفت معالمه فى الأفق، سرنا حول الركن الشمالى الغربى لكتل الجبل، ووصلنا إلى مدخل وادٍ كان يجرى صوب الشرق، وكانت توجد شجرة وحيدة فى هذا الفضاء، يسميها القرعان(٣٨) "أركينو"، ومنها استمدت الواحة اسمها. خيمنا بالقرب منها، وكانت تلك بقعة سيئة؛ لأن "قرادة الجمل"، التى تعيش فى ظل الشجر جاءت – حرفيًا – تعدو بالعشرات عندما اقتربت إبلنا؛ لذا اضطررنا إلى أن نخيم على مسافة ما من

(٣٧) التجوية: هى ظاهرة طبيعية تحدث فى الصحراء نتيجة لزيادة مدى التغير الحرارى اليومى وتأثر الصخور بهذا الأمر؛ ففى النهار تلهب الشمس بأشعتها سطح الأرض فترتفع درجة حرارتها، بينما فى الليل تنخفض درجة الحرارة انخفاضًا كبيرًا، وبالتالى تنخفض درجة حرارة هذه الصخور، ولما كانت الصخور ما هى إلا معادن تتمدد وتنكمش بالحرارة، ونظرًا لأنها رديئة التوصيل للحرارة، فإن تأثير ذلك التغير الحرارى والتمدد الناجم عنه ينحصر فى مستويات الصخور العليا دون السفلى، ويترتب على ذلك ضغوط تؤدى إلى إحداث تكسر بهذه الصخور، وفى الغالب الأعم يكون موازيًا لسطوحها. " المترجمان "

(٣٨) إحدى القبائل التى تسكن المنطقة، وجاءت تسمية قرعان من قرع كما ورد في لسان العرب، وقيل إن جدهم الأقرع بن جالس الصحابي الجليل رضي الله عنه، وقد ورد اسم القرعان ضمن القبائل القحطانية العربية، ويتركز معظمهم في تشاد حيث تعلموا من اختلاطهم بالقبائل الزنجية الموجودة هناك الرطانة بالرغم من عروبتهم، كما ينتشرون فى شمال السودان خاصة في قرى "الطمبة" و"أوقر" و"أبوراى" و"الزغفروا" و"حلة دومي أم سيال". "المترجمان"

الشجرة، طالما أن الحشرة بدت أنها لاتبالى بالتخلى عن ظلها حتى لكى تهاجم الإبل.

وفى إحدى المرات التقطت إحدى هذا القرادات، وكانت تبدو مثل قطعة من الصخور المتحجرة. ضربتها بعصا فصدر عنها صوت يشبه صوت قطعة من الصخور. استدرت وتظاهرت بأننى مشغول عنها بشىء آخر، وتطلب الأمر ما بين ثلاث وأربع دقائق قبل أن تصدر عنها أية دلالة على الحياة؛ فالقرادة تعلم بالغريزة أن أمانها يكمن فى تظاهرها بأنها متحجرة، ثم انطلقت بلا مقدمات مثل البرق. ولا تجد هذه القرادات ما تحيا عليه عندما لا يكون هناك إبل؛ فهى تمتص دماء الإبل حتى تنتفخ، وعندها تستطيع الحياة، ويقول البدو إنها تعيش على ذلك أعوامًا، لكن بكل تأكيد تعيش بضعة أشهر.

بمجرد أن وصلنا أرسلنا الإبل إلى الوادى لتشرب وتعود بمؤن المياه التى كنا فى أمس الحاجة إليها.

وبعد ساعتين من نصبنا مخيمنا وصل رجلا التبو اللذان تركناهما خلفنا، ومعهما بعض لحم الجمل المذبوح، الذى أكلوه بنهم على العشاء، بينما ظلت الرياح الحارة العاصفة تهب طوال فترة ما بعد الظهر. وبينما كنت أستريح فى خيمتى تنبهت فجأة على شىء يداعب أذنى، حاولت أن أزيحه بعيدًا، دون محاولة اكتشاف ما هو، وفى هذه اللحظة هبَّت عاصفة ريح نفخت أحد حوائط خيمتى، والذى كان مرفوعًا للتهوية، وشعرت أن شيئًا ينساب سريعًا عبر جسدى، وحاولت القبض عليه غريزيًا ولحسن الحظ أننى أخطأته، فقد كان ثعبانًا طوله نحو أربع أقدام، واستطاع رجالى الإمساك به بعد ذلك وقتله.

بعد الظهر نظَّم الرجال مسابقة فى التصويب، وبدأ الأمر مملاً، ولكن زادت إثارته عندما رصدتُ جنيهًا تركيًّا "مجيديا" كجائزة، وفاز سنوسى بوجابر فى المسابقة رغم قصر نظره، وقد عبَّر حميد عما يجيش فى قلب باقى المتسابقين عندما قال " إنه المجيدى الذى تلاعب بعواطفى وجعلنى عصبيًّا، فكم أصبت العلامة من قبل".

قمتُ بجمع الملاحظات والتقطتُ بعض الصور، وبالمصادفة عالجتُ أسنان الدليل.

وفجأة ظهر من الوادى بعض القرعان، وهم قبائل السود فى الجوار، ومكثوا ليتعشوا مع رجالى، لم يكن أحد قد حلم بحضورهم حتى ظهروا، فقد بدا الجبل قفرًا ومهجورًا، ولا يمكن للمرء أن يشك أن فى داخله يمتد وادٍ خصب مأهول بالسكان، وللحق فإن "أركينو" ليست مسكونة على مدار العام؛ ففى الوادى نباتات جيدة، وفى الماضى كان البدو، والتبو، والقرعان يُحضرون إليها إبلهم فى موسم الرعى، وكانوا يغلقون مدخل الوادى بالصخور، ويتركون الإبل هناك بلا متابعة لمدة ثلاثة أشهر، وعندما يعودون لاستعادتها - كما قال محمد الدليل - فإن الدهن فوقها يصبح هكذا، وضم قبضتيه ووضعهما فوق بعض.

الأربعاء ٢٥ أبريل: أحضرت لنا عائلة القرعان التى تقطن فى هذا الوادى ضيافة تتكون من: خروف، ولبن، وسمن - وهو زبد فى صورة سائلة بسبب ارتفاع درجة حرارة الجو - كما قاموا أيضًا بدفع غنمهم نحو مخيمنا حتى تحلب من أجل رجال القافلة.

بعد الغداء ركبت إلى "وادى أركينو" مع زروالى وبوكارا، وهو عبارة عن منخفض أو وادٍ ضيق متعرج، يمتد لنحــو ١٥ كيلــومترًا داخل الجبل، به أعشاب وشجيرات وبعض الأشجار العارضة ، زرنا كوخ القرعان؛ حيث التقطتُ صورًا لفتاة وصبيين من أفرد الأســرة، وكان الصبيان يرتديانِ ثوبين أبيضين، يرمزان بأنهما من أبناء أحــد الشيوخ، وعندما عدتُ إلى المخيم أرسلت هديــة للأطفــال الثلاثــة، عبارة عن قماش ومناديل وأرز.

كانت ليلة مقمرة وجميلة، وقررت أن نمضى ثلاثة أيام أخــرى فى "أركينو"، بسبب عشب الرعى الجيد هناك، كما بدت الإبل متعبــة من الرحلة القاسية التى قطعتُها، وقد أصبح هجينى أفضل، والتقطــتُ بعض الصخور من أجل العينات الجيولوجية، الأمر الذى أثار ارتياب بعض رجالى؛ فقد ظنوا أنه يوجد ذهب فــى تلــك الصــخور التــى جمعتها، وإلا لما كبدتُ نفسى مشقة حملها عند العودة للوطن.

الخميس ٢٦ أبريل: فى "أركينو"، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٦ درجة مئوية، ودرجة الحرارة الصغرى ٩ درجات مئوية، كــان الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح قوية وحــارة مــن الجنــوب الشرقى، لدرجة أنها أدت إلى انهيار الخيمة مرتين.

أرسلنا الإبل للشرب والرعى. كانَ يومًا يجعلك تتصبب عرقًــا، فقد زادت درجة الحرارة عن ١٠٠ درجة فهرنهايت داخل الخيمــة، وقلَّت قليلاً عن ذلك فى الظل. وجمع الملاحظات كان عسيرًا بســبب الرياح، ولم أبغِ أن أحتمى خلف خيمتى بينما أتركهم للخوف الحتمــى الناجم عن إثارة الفضول والريبة. فى المساء توقفت الريــاح وأعــاد

إلينا المساء البارد الجميل وقمره الرائع ما أنفق في حرارة اليوم القائظ، وكان هناك رقص وغناء من بوكارا وبعض الرجال حتى منتصف الليل.

الجمعة ٢٧ أبريل: كانت "أركينو" هي أولى الواحتين المفقودتين اللتين أسعدني الحظ أن أحدد موضعهما على الخريطة؛ فقد كان هناك اعتقاد قديم أن هاتين الواحتين تقعان بالقرب من الركن الجنوبي الغربي لمصر، ولكن الموقع الإحداثي الذي بينته بعض الخرائط كان يبعد نحو ٣٠ إلى ١٨٠ كيلومترًا من موضعها، كما لم يصفهما أحد من واقع زيارته الفعلية، وقد بينت ملاحظتي أن "أركينو" تقع شمال خط عرض ٣٢َ ١٢ً ٢٠ْ وشرق خط طول ١٥ً ٤٤َ ٢٤ْ وعلى ارتفاع نحو ٥٩٨ مترًا من سفح الجبل؛ لذا فهي تقع داخل الحدود المصرية.

أما القيمة الحقيقية لهذه الواحة - كما "للعوينات" أيضًا - فتكمن في الإمكانات التي تتيحها لاكتشاف الركن الجنوبي الغربي من مصر، الذي لم يصل إليه أحد حتى الآن سواء من الجيش أو شركات البترول أو الرحالة، كما لا يعلم أحد على وجه اليقين مصدر المياه في هذا الجزء من الصحراء الذي يمكن الاعتماد عليه؛ فالماء في "أركينو" - على ما يبدو - ثابت، وصالح للشرب، وذلك على الرغم من أنه ليس صحيًّا للبشر كما كان المرء يأمل. ومن المتصور أن تثبت "أركينو" قيمتها الإستراتيجية في المستقبل، استنادًا إلى أنها تقع تقريبًا عند نقطة التقاء حدود مصر الغربية والجنوبية.

وتختلف كل من "أركينو" و"العوينات" عن الواحات الأخرى بالصحراء الغربية في مصر، في أنهما ليستا منخفضين في الصحراء

يستمدان ماءهما من المياه الجوفية، بل إنهما منطقتان جبليتان، حيث يتجمع ماء المطر فيهما فى أحواض طبيعية فى الصخور.

وسلاسل "أركينو " الجبلية – كما رأيتها – تمتد لنحو ١٥ كيلومترًا من الشمال إلى الجنوب، ونحو ٢٠ كيلومترًا من الشرق إلى الغرب، ولكن لم تكن هناك فرصة لاستكشافها فى اتجاه الشرق؛ لذا لا أستطيع القول ما إذا كانت تمتد فى هذا الاتجاه أبعد مما حددت، واستطعت فقط ملاحظة ما أمكننى رؤيته من الصحراء عند السفوح الغربية للجبل، وربما كانت سفوحه الشرقية تنساب لتصبح سلاسل تلالية بعد ذلك؛ حيث تمتد جبال العوينات أيضًا صوب الجنوب، وهناك فرصة لمزيد من الاستكشاف للجهة الشرقية لكلا هاتين الكتلتين الصخريتين مقارنةً بما كنتُ قادرًا على فعله بما لدى من الوقت وموارد تحت إمرتى.

وأقرب نقطة معلومة "لأركينو" و"العوينات" صوب الشرق أو بالأحرى الشمال الشرقى هى واحة " الداخلة"، التى تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر، ويقال إن هناك طريقًا كان يربط مصر وهاتين الواحتين، ولكن رحلة من "الداخلة" إلى "أركينو" و"العوينات" بالقافلة، قد تستغرق على الأقل أربعة عشر يومًا، وقد يكون من العسير القيام بها.

الفصل السادس عشر

واحة العوينات المفقودة

«السبت ٢٨ أبريل: بدأنا فى التاسعة والنصف مساءً لنقضى أول ليلة من السير المتواصل، ونتوقف فى السابعة من صباح يوم ٢٩ أبريل، قطعنا نحو ٤٠ كيلومترًا، ظل الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح حارة شديدة من الجنوب الشرقى طوال اليوم، واستمرت الرياح تهبُّ من الاتجاه ذاته طوال الليل، وإن أصبحت دافئة أكثر من كونها حارة. وكانت الأرض من نوع السريرة، ذات صخور كبيرة، أعاقت تقدم الإبل، وفى السادسة صباحًا وصلنا إلى الركن الغربى من جبل "العوينات"، وخيمنا بعد ساعة من ذلك».

مرَّ اليوم فى هدوء؛ خاصة أثناء وقت الظهيرة من أجل رحلة المساء القادمة، ومع بداية المساء أرسلنا الرجال ليحضروا الإبل من رعيها. واستأجر بوكارا جملاً من التبو، ليزيح جمله؛ لأنه أراد أن يكون قادرًا على بيعه بسعر مرتفع فى نهاية الرحلة، كما استأجرت أنا ثلاثة من أفراد التبو وإبلهم ليرافقونا، ولكن ليس للسبب ذاته، فقد كنا نحتاج إلى وسائل نقل أخرى، نظرًا لأن رحلتنا من "الكفرة" بيَّنت أن حمولتنا كانت ثقيلة جدًّا؛ فالإبل سرعان ما أصبحت مجهدة.

فى الساعة الثامنة مساء أحضرنا الإبل، وبدأنا فى التحرك بعد ساعة ونصف الساعة من ذلك. كانت حمولتها خفيفة هذه المرة؛ لأننا لم نصطحب معنا مياهًا من "أركينو"؛ فالمياه هناك كانت سيئة للجهاز الهضمى بالإضافة إلى أن مذاقها كان غير مستساغ ، كما كان لدينا بين الرجال ثلاث حالات سيئة من الإصابة بالدوزنتاريا، امتطى المرضى الثلاثة الإبل منذ البداية، بينما أخذ باقى الرجال دورهم فى أثناء الليل.

بدأت القافلة وأفرادها فى أفضل مزاج، وفى إحدى الفترات الفاصلة، توقف أحد الأفراد ذوى الروح المرحة وبدأ فى الغناء، وخلال لحظة اصطف نحو نصف دستة منهم بجواره، وصار الكل يغنى، ويضرب الأرض بقدميه ويصفق بيديه فى إيقاع مشترك، بينما كان ركب الإبل يمضى، وكانت كلمات الأغنية دائمًا واحدة:

"إن كان عزيز علينا لنزوره

حتى لو كان بعيد الدار"

وتنطق بلهجة قوية، تختلف فى شطريها، وكما ميزتهما فمن الممكن ترجمة هذين الشطرين هكذا، دون أية محاولة لجعلها تلائم الإيقاع الموسيقى الذى قد يكون مطلوبًا ليكتمل التأثير لدى المستمع الغربى: " أيها المحبوب عيننا تسعى خلفك، حتى ولو كانت خيامك بعيدة".

مرة تلو الأخرى تكررت الأغنية، حتى انتهى العرض فى صيحة مفاجئة، وكنت أنا كل جمهور هذا العرض الصغير، أجارى

الإيقاع بسوطى، وعندما انطلقت صيحتهم الأخيرة، صحتُ " فرغــوا البارود " بمعنى " أطلقوا بنادقكم"، وكانت إشارة إطلاق الابتهاج مــن البنادق، وبعدها اتخذنا أماكننا فى القافلة ومضينا فى بهجة.

إن السير ليلاً لـــه مميزاته؛ فالوقت يمر أسرع مقارنة بينه وبين النهار – ما لم يكن المرء مجهدًا للغاية – والنجوم صحبة مبهجة لأى محب للطبيعة. وفى الأفق أمامنا كانت تلوح الكتــل الداكنــة لجبــال "العوينات"،[٣٩] ومن الأسهل كثيرًا أن تسير وأمامك مقصد واضــح، من أن تسير فوق سطح الصحراء المنبسط؛ حيث تشبه كل نقطة فيــه أية نقطة أخرى، ويظل الأفق دائمًا على المسافة ذاتها التى تبعث على الجنون، اقتربنا بثبات نحو الجبال حتى ارتفعت الشمس فوقها، لوَّنــت وذهَّبت ذراها، وألقت على الصحراء ظلاً ثقيلاً تتراجع حوافه باطراد صوب سفوح الجبال، بينما كنا نقترب منه من الاتجاه الآخر، وبعــد فترة وجيزة من شروق الشمس أصبحنا فى مواجهة الجانب الشــمالى الغربى من الجبال، وبعد ساعة من ذلك خيمنا بالقرب مــن حوائطــه الصخرية، وعند هذه النقطة كانت هناك فجوة فى جانب الجبل، وفــى نهايتها الداخلية كان يوجد كهف به بئر، نصبنا خيامنا عند فــم هــذا اللسان الصغير لبحر الرمال، وبعد عشر دقائق من ذلك غرقنا كلنــا فى النوم، كانت تلك هى أول ليلة كاملة من السفر، وكان لدينا بعض النوم المتأخر علينا أن ننجزه، ورغم هذا، لم ننم بالقــدر الــذى كنــا نتوقعه؛ فقد استيقظنا قبل الظهر، وتغير انتباهنا إلى الطعام؛ فمقولــة

(٣٩) يبلغ ارتفاع هذا الجبــــل نحو ١٩٠٧ أمتار، ويقــع معظمــه خــــارج حــدود الأراضى المصريــة." المترجمان "

الفرنسيين "إن من ينام يشبع" قد تكون صحيحة وفق بعض الظروف، لكننا فى الصحراء نجد الأمور مُرضية عندما نكون قادرين على فعل الشيئين معًا؛ فقد كنا جميعًا نجد متعة بالغة فى شواء أجزاء من الخروف الذى أحضره محمد كضيافة لنا من "العوينات".

أمضيت بقية اليوم فى زيارة البئر الموجودة داخل الكهف، وجمع الملاحظات، والتطلع لما يحيط بنا؛ فعند هذه النقطة كان الجبل يرتفع على شكل جرف صخرى، مع وجود كتل من الصخور المستديرة، الضخمة والصغيرة، التى تتكوم قبالة سفوحه. والصخور التى تُكوِّن هذا "التابرى" - كما يسميه الجيولوجيون - قد نحتت بفعل سنوات من عمل الرياح والرمال المنجرفة التى أحالتها إلى شكل كروى مصقول، ربما كان العمالقة فى أيام البطولة يستخدمونها فى مقاليعهم ليقتلوا بها الوحوش أو ككرات فى بعض الألعاب الضخمة.

كانت العين أو البئر تقع على بعد بضعة أمتار من المخيم، داخل تجويف فى الجدار، ومسقوفة بصخور ضخمة، وهى عبارة عن بركة من الماء المتجدد الذى يظل باردًا نتيجة لحمايته من الشمس. والصحراء فى هذه المنطقة من العالم تعرف نوعين من الآبار: العين وهى بالمعنى المحدد للكلمة ينبوع، والبئر أو الماتان وهو عبارة عن موضع يمكن الحصول منه على الماء عن طريق الحفر فى الرمال. ونسمى آبار "العوينات" عيونًا، نظرًا لعدم وجود كلمة أفضل على الرغم من أنها ليست ينابيع، لكنها مخزون فى الصخور حيث تتجمع مياه الأمطار.

ويقال إنه يوجد فى "جبال العوينات" سبع من هذه العيون، وقد تمكنت من رؤية أربع منها قبل أن أعاود التحرك صوب الجنوب. كما

سمعت أيضًا عن وجود بئر أو بئرين فى الواحة، ولكننى لم أرهما.

فى المساء كان المخيم مليئًا بالحياة والبهجة. وغنى الرجال ورقصوا كأن لم يكن هناك أيام مملة من الرمال الساخنة والرياح اللاذعة التى تعدو خلفهم وتنتظرهم.

الاثنين ٣٠ أبريل: استيقظت مبكرًا، وذهبت مع زروالى، وعبدالله، ومحمد، وملكونى - من التبو - إلى العين الكبيرة الموجودة فوق الجبل، كان التسلق شاقًا للغاية، وبعد ساعة ونصف الساعة وصلنا إلى العين، وكانت زاخرة بكمية وفيرة من الماء العذب يحيطه فى مشهد رائع غاب رفيع وطويل، وقد أخذت بعضًا من سيقانه معى لكى أصنع منها مباسم لغليونى؛ فهى تعطى للدخان مذاقًا لطيفًا.

مع بداية المساء امتطيتُ هجينى وخرجتُ مع ملكونى وسنوسى بوحسان وسعد لنستكشف الواحة، كانت ليلة مقمرة بها نسمات من الهواء الدافئ الذى كان يهب من الجنوب الشرقى، ولمدة أربع ساعات ظللنا نسير فوق سريرة وعرة بمحاذاة الركن الشمالى الغربى من الجبل، وفى منتصف الليل دخلنا واديًا به سلسلة من التلال قليلة الارتفاع، وكان قاع الوادى تكسوه الرمال الناعمة التى تنتشر فوقها الصخور الكبيرة التى جعلت التقدم عسيرًا على الإبل، وبعد ساعة عندما أصبحت أرواح الرجال وشجاعتهم - كما يقال - فى أدناها، توقفنا لبضع دقائق كى نحتسى الشاى القوى من "الترموس" الذى كان معى، ثم تقدمنا بعد ذلك، ولكن معنوياتنا كانت على أية حال منخفضة؛ كان هناك شيء سحرى يتعلق بهذه الليلة وضوء القمر وتلك الجبال، يجعل منها تجربة تثير الخيال وتسمو بالروح. حدثت

نفسى بذلك، لكن بدا أن الرجال قد أصابهم بعض هذا الشعور أيضًا.

فى الخامسة مساءً انفتح الوادى على سهل متسع من السريرة المستوية، بالإضافة إلى بعض التلال التى تبعد نحو عشرة أو خمسة عشر كيلومترًا صوب الشمال الشرقى. استدرنا بشدة صوب الجنوب حول أنف الجبل، وفى الفجر توقفنا من أجل صلاة الصبح.

بركت الإبل ووقفنا على الرمال ووجهتنا صوب مكة المكرمة؛ فعندما يصلى المسلمون فإنهم يقفون فى حضرة الله - سبحانه وتعالى- وليس كما يقول بعض الأفراد المضللين فى حضرة سيدنا محمدﷺ، الذى لا يعد إلهًا بل هو نبى، وأول أساسيات الصلاة هى نظافة الجسد والقلب والروح، وفى الصحراء فإن نظافة الجسد تصبح رمزية طالما أن الماء من الصعب الاستغناء عنه. فنقوم "بالتيمم" حيث نأخذ الرمال بأيدنا ونحكُّ بها كل يد وذراع، ثم نمرره بنعومة فوق وجوهنا، وبأكفنا المبسوطة وأذرعنا المرفوعة نتلو صلاة محددة، ثم نسجد حتى تلمس جباهنا رمال الصباح الباردة.

فى الصحراء الصلاة ليست طاعة عمياء لعقيدة دينية، بل إنها خبرة غريزية للمرء وتجربة تصالح مع أعماق ذاته؛ فالصلاة فى الليل تجلب الهدوء والسكينة، وفى الفجر عندما تدب الحياة من جديد فى جسد المرء، فإنه يتوجه - متلهفًا - إلى الخالق ليقدم اعترافه وعرفانه المتواضع بجمال العالم والحياة، وينشد إرشاده فى اليوم المقبل؛ فالمرء يصلى إذن ليس لأنه ملتزم بهذا، بل لأنه محتاج إلى هذا.

فى الساعة السابعة تمامًا وجدنا أنفسنا ندخل واديًا عريضًا يتجه صوب الجنوب بانحراف قليل صوب الشرق، وترتفع الجبال العالية

على جانبيه، وكان قاع الوادى منبسطًا مثل اللوحة المرسوم عليها باقات من العشب، التى تتخللها هنا وهناك أشجار السنط والشجيرات الصغيرة التى تعطى أوراقها عبيرًا أشبه بعبير أوراق النعناع عند هرسه، وفى الفواصل كانت الأرض تكسوها نباتات الحنظل الزاحفة، بأوراقها الخضراء المنقطة بكرات صفراء رائعة تشبه الجريب فروت، ويصنع القرعان والتبو من هذه الثمار "الأبرا"؛ فهم يغلون البذور بشدة حتى يتخلصوا من مذاقها المر ثم يطحنونها مع البلح والجراد فى هون خشبى، وتعد "الأبرا" طبقهم الرئيسى.

لمدة ثلاث ساعات ظللنا نصعد الوادى، وفى العاشرة خيمنا ونحن نعانى من القيظ والتعب، ولكننا كنا مسرورين. تناولنا وجبة جيدة من الأرز، وشربنا أكواب الشاى الثلاثة، ثم ذهبنا للنوم فى ظلال سلاسل الجبال، كانت إغفاءة غير مريحة، بسبب هجوم أسراب الذباب، وتحرك ظل هذه الحافة، الأمر الذى جعل كل منا يغير موضعه من وقت إلى آخر.

وبينما كنت أفتح عينى رأيت بجوارى مشهدًا بدا كأنه جزء من حلم جميل، كانت فتاة جميلة من القرعان، ذات جسد نحيل ممشوق لم يكن يشينه ذلك الزى البدائى الذى ترتديه، وكانت تحمل بين يديها وعاءً مملوءًا بالحليب، قدَّمته لى بحياء به كبرياء، ولم أجد بُدًّا من قبوله، وشربه بعرفان، وبعدها سألتنى عن دواء لأختها التى لا تلد أطفالاً، وعندما رفضت أن تصدق أنه ليس معى دواء من الممكن أن يساعد شقيقتها، عدت للحبوب الجافة، كعلاج غير مؤذ لعله أكبر من قدرتى، وأعطيتها أيضًا مجيدة ومنديلاً من الحرير هدية لها. كما

ظهر أحد أفراد التبو ومعه قطعة من لحم "الوادّان" أو الخروف البرى، وفى المقابل أعطيته أرزًا ومكرونة، وبعدها ذهب إلى حال سبيله سعيدًا.

بعد أن تناولنا الطعام توجهت لرؤية بعض آثار الإنسان التى ترجع للعصور السحيقة؛ فعندما كنت فى "أركينو" تحدثت مع أحد القرعان، لأعرف بعض المعلومات عن سكان "العوينات" الحاليين، سألته إن كان يعرف أى شىء عن السكان السابقين للواحة؟ فأعطانى إجابة مفاجئة قائلاً " أنواع مختلفة من البشر عاشوا حول هذه الآبار، أكثر مما يستطيع أحد أن يتذكره، حتى الجن عاشت قديمًا فى هذا المكان".

"الجن؟! "تعجبت" وكيف عرفت ذلك؟"

فأجاب " ألم يتركوا رسوماتهم على الصخور؟!

وباستثارة حاولت إخفاءها سألته أين؟

فأجاب "فى وادى "العوينات"، هناك العديد من الرسومات فوق الصخور"، لكننى لم أستطع إغراءه بأن يصفها لى أكثر من قوله "هناك كتابات ورسومات لكل أنواع الحيوانات الحية، ولا يعرف أحد أى نوع من الأقلام استخدموها؛ لأنها محفورة بعمق كبير داخل الصخر، ولم يستطع الزمن أن يؤثر فى هذه الكتابات" - بذلت قصارى جهدى لكى لا أظهر له استثارتى - وتساءلت هل يستطيع إخبارى فقط أين توجد تلك الرسومات؟

فأجاب " فى نهاية الوادى عندما يبدأ ذيله فى التموج".

وطوال الوقت كنت أتذكر هذا؛ لذا بعد أن أنفقنا بعض الوقت في التأكد من مخزوننا من المياه - الذى يعد أكثر الأشياء أهمية - نظرت حولى من فوق قمة التلال إلى المنطقة المحيطة، وبدأت المهمة المثيرة المتمثلة فى تفقد أرجاء الواحة، ولكن كان أكثر أجزائها تشويقًا هو العثور على تلك النقوش الصخرية، خاصة أن التاريخ الذى استطعت جمعه عن الواحة كان ضئيلاً للغاية؛ فقد عرفت أن "العوينات" كانت موطن التبو والقرعان الذين كانوا يتوجهون صوب الشرق ليهجموا ويسلبوا قبائل "الكبابيش"،[٤٠] وكانت "أركينو" و"العوينات" بالفعل أماكن جيدة للغاية لهذا الغرض، طالما أنها تزود بالماء القبائل الغازية، وفى الوقت ذاته كانت بعيدة جدًّا عن أيدى "الكبابيش" حتى يجرؤوا على الثأر أو محاولة استعادة ما يخصهم.

وطبقًا للوصف الذى فى مخيلتى اصطحبت ملكونى - الذى انضم إلى القافلة فى "أركينو" - وتوجهنا ومع غروب الشمس إلى مكان تلك الرسومات التى توجد فى الوادى عند ذلك المكان الذى يبدأ عنده فى التلاشى، وينحرف بنعومة، وجدناها على الصخور التى تقع بالقرب من منسوب سطح الأرض، وكنت قد أُخبرت بوجود رسومات أخرى مشابهة على مسافة نصف يوم سير من ذلك المكان، ولكن نظرًا لأن الوقت كان متأخرًا، ولم أكن أريد أن أثير الريبة، لم أذهب إليها.

---

(٤٠) قبيلة الكبابيش: هى فى الحقيقة مجموعة من القبائل العربية التى انصهرت فى قبيلة واحدة أصبحت تعرف بهذا الاسم، والموطن الرئيسى لهذه القبائل غرب السودان، وهى منطقة شبه صحراوية وليس بها أنهار دائمة الجريان، ومن ثم فهى لاتصلح للزراعة الدائمة وإن كانت المراعى بها جيدة، ومن ثم يعيش أفراد هذه القبائل على رعى الأغنام." المترجمان "

لم يكن هناك شيء سوى رسومات الحيوانات؛ فلم تكن هناك أية نقوش، وبدا الأمر لى كما لو أن أحد الأشخاص حاول تصوير مشهد ما، ورغم بدائية الشخوص؛ فقد كانت تنمُ عن يد فنية؛ فالرجل الذى رسم اسكتشات هذه الحيوانات كان لديه حس فنى، ورغم أن الصور التى على الحوائط الصخرية كانت بسيطة، فإنه لا يمكن القول إنها لم تنحت بمهارة. كانت هناك رسوم لأسود، وزراف، ونعام، وكل أنواع الغزلان، وربما الأبقار، رغم أن الكثير من هذه الأشكال قد تأثر بفعل الزمن، وكان عمق النحت يتراوح بين ربع ونصف بوصة، وكانت حواف الخطوط قد تآكلت بفعل عوامل التعرية؛ حتى إن بعض أجزائها كان من الممكن كشطه بسهولة بواسطة الأصابع.

سألت من رسم هذه الصور؟ والإجابة الوحيدة التى حصلت عليها جاءت من ملكونى – فرد التبو – الذى أعلن عن اعتقاده بأنها من أعمال الجن، وتساءل " أى رجال يمكنهم فعل هذه الأشياء الآن؟"

ورغم أننى لم أستطع الوصول إلى أية روايات متوارثة حول مصدر هذه الرسومات المثيرة، فقد صدمنى أمران لا يوجد زراف فى هذه المنطقة الآن، كما أنها لا تعيش فى أى صحراء مشابهة فى أية منطقة أخرى، وثانيهما أنه لا يوجد رسومات للإبل بين هذه الأشكال المنحوتة على الصخور، والمرء لا يستطيع الوصول إلى هذه الواحة إلا بواسطة الإبل، ترى هل كان الرجل الذى رسم هذه الصور يعرف الزراف ولا يعرف الإبل؟ فكرت مليًّا وتذكرت أن الإبل جاءت إلى أفريقيا من آسيا منذ نحو ٥٠٠ عام قبل الميلاد.

فى الخامسة والنصف بدأنا التحرك صـوب مخيمنـا، وانتهـى طريقنا عند ممر جبلى منحدر، يتسع بالكاد لشخص واحد، كان شـديد الخطورة على الإبل، ووصلنا إلى أعلى نقطة فى الممـر، وعنـدها تخيرنا طريقًا منحدرًا إلى منسوب الصحراء التى توجد جنوب الجبل، وعند أعلى نقطة وصلنا إليها كانت هناك بعض القمم التـى يرتفـع منسوبها أعلى مما كنا عليه من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر. صعدت الإبـل وهبطت هذا الممر المنحدر على نحو رائع على الرغم من الظـلام، وفى العاشرة والنصف كنا عند سفوح للجبال.

بدا أنه من الأفضل أن نُريح الإبل، فتوقفنا فى الحادية عشرة لمدة ساعتين، تناولنا خلالها الشاى، وجاءت لزيارتنا أسرة التبو التى كـان مخيمها فى الجوار، واقتنصنا غفوة قصيرة استيقظنا بعـدها نشـيطين. كانت هناك رياح باردة تهب، وكان الركوب للخيـام فـوق منسـوب الصحراء يعد من الأمور السارة، بعد مشقة تسلق الصخور واجتيازها.

وصلنا المخيم فى العاشرة من صباح يـوم ٢ مـايو، واسـتُقبلنا بإطلاق البنادق وبالترحيب اللائق.

الأربعاء ٢ مايو: عند وصولنا إلى المخيم وجدنا فـى انتظارنـا الشيخ هارى، زعيم القرعان الذى يسمى ملك العوينات ومعـه مائـة وخمسون فردًا من السكان المحليين، كان قد جاء فى اليـوم السـابق لزيارتى وانتظر عودتى، وهو كهل ظريف للغاية، ذو وجه هادئ به جلال، وأحضر خروفين وحليبًا وبعض الأبرا كضيافة، كان صـائمًا، وصممت على بقائه معنا حتى الليل، وإلاَّ ما استطعت أن أقـدم لـه الضيافة، طالما أنه لن يأكل أو يشرب حتى غروب الشمس.

تحدثتُ معه ومع محمد طويلاً، وكان الزعيم الكهل لا يزال متيمًا بوطنه الذى يوجد شمال "الواداى" وتنهد عندما تحدثنا عنه؛ فهو ينتمى إلى عائلـــة " الريزى"، التى تعدُ إحدى أسر القرعان الحاكمـــة فـــى شمال الواداى، وقد جاء إلى "الكفرة " كمنفى اختيارى، عندما دخـــل الفرنسيون إلى "الواداى"، ثم استقر بعد ذلك فى "العوينات".

وجدت نفسى متعبًا بعد الثمانى والعشرين ساعة من السير التـــى تخللها تسع ساعات فقط من الراحة، ولكن الاغتسال ووجبة وغفـــوة قصيرة جعلت الحياة تستحق أن تُحيا من جديد فى المساء.

نظَّم بوكارا كورس من الرجال، وأمضينا المساء مـــع الأغـــانى البدوية والسودانية والتيبوية.

الخميس ٣ مايو: عندما استيقظت حضر هـــارى إلـــى خيمتـــى ومعه وعاء من اللبن، وعندما شكرته، هزَّ رأسه بحزن قائلاً " هـــذا هو كل ما أملك أن أقدمه لك، وهو ليس مقامك، لكنك سوف تسامحنا لأننا غير قادرين على أن نمنحك الضيافة التى يجب أن تنالها".

أكدت له أن المعنى هو الذى يُعوّل عليه فى هذا الأمـــر ولـــيس القيمة المادية لما يُقدم.

أمضينا اليوم فى الإعداد للتوجه نحو الجنوب، الذى كنت آمل أن يكون فى الغد.

الجمعة ٤ مايو: رتبتُ مع هارى أن يرافقنا إلى "إردى" بوصفه دليلاً إضافيًّا؛ فمحمد لم يجتز هذه المنطقة منذ ســنوات عديـــدة؛ لـــذا شعرتُ أن هارى قد يعرفها على نحو أفضل.

بعد الظهر ذهبتُ فى تمشية طويلة، لكى ألتقط بعض الصور للجبال، وخلال هذا الوقت كان " التبو " و" القرعان " المستوطنون، الذين يتناثرون حول الواحة، حيثما يوجد عشب لرعى دوابهم، قد سمعوا عن حضورنا، وجاءوا لزيارتنا؛ لذا كان لدينا العديد من الضيوف على العشاء هذا المساء، وأصبح المخيم مبهجًا للغاية، وكانت واحدة من الليالى السعيدة خلال هذه الرحلة.

* * *

قبل أن نترك "العوينات" يجب أن أذكر شيئًا عن بوكارا الذى يعد واحدًا من أكثر الرجال إثارة فى القافلة، وهو بحق صورة للرومانسية، كان طويل القامة، نحيلاً، رشيقًا، مرحًا دائمًا والغناء لا يفارق شفتيه، حتى فى اللحظات الحرجة من اليوم، سواء فى بداية الصباح أو نهاية الليل، وعندما يكون الرجال مجهدين من السير ليلاً ويحتاجون للتشجيع.

لم أكن أعلم أنه يدخن حتى ضبطته فى أحد الأيام وهو يجمع أعقاب السجائر من البقعة التى كانت فيها خيمتى، ومن بعدها شاركته سجائرى، وكانت متعة بالغة أن أعطيه رزمة من هذه المادة الثمينة، وأراه ينطلق – من السعادة – فى الرقص والغناء.

وبوكارا هو أحد أكثر البدو الذين قابلتهم ترحالاً؛ فرغم أنه كان فى الخامسة والثلاثين من عمره فقد سافر إلى: "الواداى"، "وبرقة"، و"بورنو"، و" دارفور"، وقد رأى أيامًا من الحظ السعيد فى الماضى، أما الآن فهو لا يملك سوى جمل واحد، وقد جاءت قرعته فى قافلتى

بعد أن رتب مع بوحليجا أنه سوف يحصل على حصة من المال الذى سوف يقبضه ثمناً للإبل المتبقية عندما تُباع فى نهاية الرحلة.

وهو يتحدث معظم لهجات قبائل السود، ويعرف الكثير عنهم، كما أنه أيضًا موسيقى رائع وذو روح مرحة؛ ففى إحدى الأمسيات لفً نفسه بالقماش الأخضر الخاص بخيمتى كما لو كانت عباءة، ومع سعد وحميد اللذين كانا يثغوان خلفه مثل الخراف، جاء إلى المخيم متظاهرًا بأنه أحد شيوخ البدو، جلب معه خروفين كضيافة، وعندما كشف عن شخصيته ظللنا نقهقه حتى قام بوكارا فجأة بإلقاء القماش الأخضر بعيدًا، وانتزع رمحًا من أحد التبو، وانخرط فى رقصة الحرب الخاصة بالتبو، وساعده فرد التبو من خلال ضبط الإيقاع فوق أحد الفناطيس الفارغة، وتلا هذا العرض المضحك حفلة من الغناء البدوى من "برقة"، و"فزان"، و"طرابلس".

وكثيرًا ما رأيت بوكارا يأبى امتطاء الإبل حتى عندما يكون البدو كلهم قد استسلموا للإغراء.

وسألته "لماذا لا تمتطى جملاً يا بوكارا؛ فهناك العديد من الإبل غير محملة؟"

فأجاب بنبرة ازدراء لهذه الفكرة: ماذا ستقول واشون – زوجته- إذا ما سمعت أن بوكارا قد ركب فى المسافة بين "أركينو" و"العوينات"؟

وأخبرنى أنه فى إحدى المرات عُهد إليه باصطحاب نحو خمسين جملاً إلى "العوينات" لترعى، وكان بمفرده وقد نفد طعامه.

وقال ببساطة " لمدة اثنى عشر يومًا لم أذق أى طعام فيما عدا بذور الحنظل التى أفسدت شهيتى، وبعدئذ وصلت إلى"الكفرة"، وكان الرجال الذين أرسلونى من أجل الإبل قد نسوا أن يرسلوا إلىَّ طعامًا، وكانوا ينتظروننى فى الكفرة مبكرًا".

وعندما تساءلت " ولكن لماذا لم تذبح إحدى الإبل؟ "

فردَّ بفخرٍ " وأسمح للرجال فى الكفرة أن يقولوا إن بوكارا لم يتحمل الجوع وذبح جملاً؟ "

وبوكارا متيم بزوجته بصورة تدعوا إلى التأمل؛ فعندما وصلنا إلى "أركينو" قال لى "أشعر أننى أفضل الآن، لكننى أبكى مثل طفل عندما أودع واشون فى "الكفرة"، وهكذا يكون الأمر دائمًا عندما أبدأ رحلاتى؛ فإذا ما كانت الصحبة جيدة أنسى بسرعة".

الفصل السابع عشر

السير ليلاً إلى إردى

«الأحد ٦ مايو: أصبحنا على الطريق فى السادسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، سرنا اثنتى عشرة ساعة بشكل جيد، قطعنا فيها نحو أربعة وخمسين كيلومترًا، كانت رحلة مجهدة بكل ما فى الكلمة من معنى، ومع ذلك فبالنسبة لأول ليلة سير كان من المتوقع أن يكون الأمر كذلك. ولم تتح للرجال أية فرصة للنوم فى أثناء اليوم، بل على النقيض كانوا أكثر انشغالاً من المعتاد، فرغم ضجرنا، كان علينا مراقبة الأحمال [illegible] وإعادة تنظيمها بين الحين والآخر، وعند [illegible] معظم الرجال خلفنا من أجل إغفاءة قليلة».

فرَّ أحد الإبل عائدًا إلى "العوينات"، وكان [illegible] أن يترك القافلة عند منتصف الليل ويسعى خلفه. وفى [illegible] من الليل بزغ ضوء القمر، وفى الثالثة صباحًا هَّبت نسمة [illegible] منعشة، رعت الإبل ما شاء لها على العشب الذى ينمو هنا [illegible] المياه التى تتسرب بين التلال. وعندما وصلنا إلى وقت التخييم، وجدت إحدى أفضل قربنا مثقوبة ونصف فارغة، كان سوء حظ، فلم نكن قد ادخرنا ماء من المرحلة السابقة، وكان علينا أن نمضى عشرة أيام قبل أن نصل إلى بئر، وطوال اليوم لم يظهر مالكونى أو الجمل الهارب.

دونت فى يومياتى ما يلى:

الاثنين ٧ مايو: ظلَّ الجو غائمًا طوال اليوم، كما هبَّت رياح شمالية شرقية توقفت بعد الظهر، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية، وعند السفر ليلاً لا يستطيع المرء تسجيل درجة الحرارة الصغرى، التى تراوحت بين درجتين وثلاث درجات؛ لأننا كنا نتحرك فى هذا الوقت، بدأنا فى السادسة والنصف مساءً، وتوقفنا فى الحادية عشرة والنصف مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٢٠ كيلومترًا، كانت الرمال ناعمة للغاية والأرض شديدة التموج تتخللها نطاقات من عشب جاف صالح للرعى.

بعد الظهر وصل فرد التبو ومعه جمل محمل بالأمتعة التى كانت فوق الجمل الهارب، وأخبرنا أن جمل مالكونى قد ألقى حمولته وفر عائدًا إلى منطقة الرعى فى "العوينات"، وأن مالكونى يسعى خلفه، وبحلول الحادية عشرة والنصف مساءً توقفنا فى منطقة رملية ناعمة للغاية ترصعها الصخور والرقع الصالحة للرعى بالقرب من "بارت شيزو" انتظارًا للهارب، وبعد وصولنا بوقت قليل ظهر مالكونى، إلا أننى كنت قد قررت ألا نتقدم أكثر فى هذه الليلة؛ فقد شعرت أن الراحة سوف تفيدنا جميعًا.

الثلاثاء ٨ مايو: بدأنا فى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، فى ظل وجود سحب كثيفة، وبعد ساعتين من ذلك أمطرت السماء قليلاً، وقام البدو - الذين تعتمد حياتهم على المطر - غريزيًا بالصياح مرحًا والغناء للإبل بحماس.

كانت الأرض متموجة، وقاسية، تكسوها الصخور والحصى الكبير، وبعد قليل من بدايتنا عبرنا بعض الغرود[41] الصغيرة، ثم عادت الأرض منبسطة مرة أخرى، تكسوها الرمال الناعمة، وفى الثالثة والنصف صباحًا دخلنا حزامًا من الكثبان الرملية العالية، عبرناه بعد ساعة ونصف، وبعد الكثبان عادت الأرض مرة ثانية إلى السريرة القديمة المألوفة، وهنا عثرت على قطع من قشر بيض النعام.

فى بداية اليوم أخذ آرامى - أخو مالكونى - كيسًا وذهب ليجمع بعض الحطب، وكان واسمه يحكى مصيره؛ لأن "التبو" و"القرعان" يسمون الرجل الذى قتل آخر "أرامى" - وقال إنه سوف يلحق بنا بعد ذلك، ولم يكن لدينا ما يقلقنا عليه؛ خاصةً وأنه أخبرنا أنه يعرف الطريق جيدًا، إلا أنه بعد ساعتين من السير على الطريق أصابنا القلق، وتوقفنا لانتظاره، وأطلقنا العديد من الطلقات لنلفت انتباهه، وتوجهه إلى موضعنا، وصاح الرجال باسمه بأعلى ما يستطيعون، ولكن كل هذا ذهب عبثًا.

استدرت إلى ملكونى وسألته عما ينوى فعله.

فقال" أخى مجنون، فلم يطلب منه أحد جمع الحطب، لقد غادر المخيم دون حتى أن يتناول طعام الإفطار، ربما دعاه الله إلى أجله، عندما يبزغ القمر سوف أترك حمولة جملى، وأعود للبحث عنه؛ فإذا كان حيًا فسوف أعود به، أما إذا كان ميتًا فسوف أدفنه وألحق بكم

(٤١) هى عبارة عن كثبان رملية صغيرة الارتفاع، لكنها بالغة الطول، تفصل فيما بينها مسافات قصيرة جدًا. "المترجمان"

بعد ذلك". قال ذلك بهدوء وببساطة كما لو أنه شيء طبيعي. نقلت الأمتعة من فوق جمل مالكوني إلى جمل آخر، وعاد للبحث عن أخيه.

وكان آرامي بالفعل قد نجا من الموت أكثر من مرة، وتمنى كل شخص أن ينجو هذه المرة أيضًا، إلا أن محمدًا كان يشك في هذا، وقال " ربنا رحيم، لكنني أظن أن آرامي قد مضى إلى حتفه".

كنت أخشى أن يكون على صواب؛ فقد كان هناك شيء غريب في آرامي منذ البداية. وقد علمت أنه في إحدى رحلاته من "إردى" إلى "العوينات" نفدت مؤنه من المياه، وأصابه "عطش سيئ" كما يدعونه أبناء الصحراء، ووصل إلى "العوينات" نصف ميت، ومثل هذه التجارب تترك بصماتها على المرء، وبالطبع فإن الأمر يتطلب وقتًا طويلاً قبل أن يعود المرء إلى نفسه مرة ثانية. وقد لاحظت في عينيه تلك النظرة الغامضة، المجهدة، الغريبة، وكم تساءلت عنها. وكنت أعلم أنه إذا لم يغذ فإن الصحراء - في أحد صورها القاسية - سوف من نصيبها.

ففي الصحراء، فوق الدروب الطويلة التي تخلو من الماء، وتحت تأثير الإرهاق والعطش والتعب وقلة النوم غالبًا ما يفقد الرجال رءوسهم، أو كما يقول البدو " يسيرون إلى حتفهم"، وهو ما يعني أنه ما لم يكن رفاقهم منتبهين إلى هذا الأمر، ويبقونهم مع القافلة، فإنهم يسيرون بعيدًا في الصحراء، متجاهلين حتى غريزة الإبل التي تبقيها مع القطيع. وفي هذه الحالة، إذا ما عاد الهائم فجأة إلى وعيه، فإن عليه أن يجلس حيث وجد نفسه ولا يتحرك؛ لأنه من المعروف أن

رفاقه عندما يدركون غيابه، سوف يتعقبون آثار القافلة ثم آثاره على الرمال لينقذوه، وقد قابلت بدويًا فى "الكفرة" كان قد تاه عن قافلته ثمانى عشرة ساعة، وعندما أنقذ كان غائبًا عن الوعى، ويعانى بشدة من الظمأ، وقال "إن الله كان رحيمًا بى؛ فقد كنت قادرًا على أداء صلاتى، والتوجه إلى الله قبل ما ظننت أنه الموت المحتوم"، ثم أضاف مبتسمًا " لكننا نعيش ونموت بمشيئة الله سبحانه وتعالى".

الأربعاء ٩ مايو: بدأنا فى الرابعة والربع بعد الظهر، وتوقفنا فى العاشرة والربع مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة أربعة وعشرين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى سبع وثلاثين درجة مئوية، كانت هناك سحب بيضاء، ورياح قوية دافئة من الشمال الشرقى، استمرت طوال اليوم، وفى المساء زادت لتصبح عاصفة رملية، وسقطت بعض قطرات من المطر فى السابعة مساءً، واستمرت العاصفة الرملية من الثامنة إلى العاشرة مساءً. كانت الأرض عبارة عن سريرة عادية، مع وجود رمال ناعمة فى بعض المواضع، ولا يوجد أى أعلام أو عشب جاف، وفى الصباح الباكر رأينا على البعد كثبانًا رملية تمتد على يميننا.

فى الليلة الماضية سرنا نحو أربع عشرة ساعة ونصف، ورغم هذا لم ينل التعب منا؛ فالإفطار وأربع ساعات نوم أعادونا جميعًا نشيطين مرة أخرى. وقد أراد محمد أن نبدأ مبكرًا، نظرًا لوجود منطقة غرود عسيرة تقع أمامنا، وكان من الصعب عبورها فى الظلام؛ لذا فبحلول الرابعة والربع صباحًا كنا على الطريق، حيث تمتد السريرة تحت أقدامنا، وتهب الرياح الشمالية الشرقية الباردة من خلفنا.

وبعد الثامنة صباحًا بفترة وجيزة شعرت بالرياح تلفح وجهي، جفلت مروعًا، فالرياح ليس من عادتها أن تغير اتجاهها فجأة، إلى جانب أن طبيعة الرياح لم تتغير؛ فهذه الرياح التي تواجهنا يجب أن تكون قادمة من الجنوب، ومع ذلك فهي ليست دافئة. كان هناك شيء غريب، نظرت عاليًا إلى النجوم، ولكن السماء كانت تكسوها السحب الداكنة بالكامل، أخرجت بوصلتي، وذهلت عندما اكتشفت أننا نتوجه صوب الشمال الشرقي، بدلاً من الجنوب الغربي، بدا واضحًا لي أن محمدًا قد "فقد رأسه" كما يقول البدو، وأصبح يقودنا إلى الاتجاه المعاكس للاتجاه الصحيح. كانت لحظة خطيرة، من تلك التي تتطلب لباقة وحذر في التعامل؛ فمن الخطر أن تقوض ثقة دليل الصحراء؛ لذا هبطت من فوق جملي، وامتطيت حصاني، وعدوت به إلى حيث يقود محمد القافلة.

وفي أثناء ذهابي لاحظتُ أن معظم رجال القافلة الذين ألفوا السير في هذه المنطقة، وهذا النوع من المناخ، شعروا أيضًا أننا نسير في الاتجاه الخطأ، لكن من آداب الصحراء أنه يجب ألا يجادل الدليل بأية حال؛ فدليل القافلة هو بالضبط مثل قبطان السفينة، وهو بكل تأكيد سيد القافلة، في كل ما يتعلق باتجاهها، ويجب أن يستشار أيضًا في مواعيد سيرها وتوقفها.

ومن حسن الحظ أنني كنت قد سألت محمدًا قبل أن نترك "العوينات"، عن الاتجاه الذي سوف نسلكه، وطابقت بوصلتي عليه، وبينما كنت أقترب من الدليل وجدته متجهمًا، ويفتقد ابتسامته المألوفة، وشعوره بالثقة بالنفس، أريته البوصلة، وأوحيت له بأننا نسير في

لاتجاه الخطأ، لم يقل شيئًا، لكنه مسح الأفق بتلهف بحثًا عن نجمه المفضل "الجدى"، لكن دون جدوى؛ فقد كان النجم القطبى يختفى خلف السحب.

وفى هذه اللحظة أطفأت العاصفة الرملية – التى بدأت تهب – مصباحه، كما لحقت القافلة بنا، ولاحظ كل فرد أننا ضللنا طريقنا. وتجمعت الإبل والرجال معًا، تضربهم العاصفة والرمال المؤلمة ، بينما جعلت الرياح من المستحيل على المرء أن يسمع صوته أو أن يقول شيئًا لأى رجل آخر.

تخلت ثقة محمد عنه تمامًا، واستطعتُ أن أرى أثر ذلك على وجوه الرجال، فقد كانوا جميعًا من رحالة الصحراء، ويعلمون معنى أن يضل المرء طريقه وسط السريرة حيث لا يوجد أثر لعلم أو طريق.

وقالت مجموعة " يجب أن نخيم حتى تصفو السماء"، لكننى كنت أعلم مدى خطورة هذه الفكرة، فهى تعنى أنهم سوف يمضون أربع أو خمس ساعات يتأملون مصيرهم، وينمو الإحباط واليأس فى داخلهم أكثر وأكثر؛ لذا قلت " لا حاجة بنا للتوقف؛ لأن بوصلتى يعول عليها، وقد اختبرتها أكثر من مرة، وطابقتها على الاتجاه الذى حدده لنا محمد، هذه الرياح تهب من الشمال"، جزمت بذلك فى هدوء وثقة بالنفس خلال إحدى فترات سكون العاصفة؛ لأنه كما كان الحال فى الأيام القليلة الماضية، فهى لو كانت تهب من الجنوب لكانت حارة، هذا هو الجدى، وهذا هو طريقنا"، وأشرت إلى حيث يجب أن يكون النجم القطبى.

فقال محمد مستجمعًا شجاعته "ربنا يحفظك، والله إن ما تقوله هو الصدق".

واقترب منى سنوسى بوحسان – الذى كان دليلنا إلى "الكفرة" – وبصوت عال أمَّن معقبًا " والله، ما تقوله هو الصدق". قالها بثبات "لقد فكرت فى ذلك، إلا أننى لم أستطع الكلام، لأنه لم يكن لدى دليل؛ لأن الجدى كان قد اختفى خلف السحب".

كان ذلك يكفينا، فأشعلنا المصباح بصعوبة، وبمعاونة محمد وبوحسان، قدتُ الطريق.

وفى هذه الأثناء سأل صوت من الظلام " كم علينا أن نمشى؟ "

فأجاب بوكارا ضاحكًا " دع الرياح تلفح قفاك الأسود، وعندها سوف تعرف".

وبعد بضع ساعات، أمسك محمد بيدى وأشار إلى كثبان رملية أمامنا، وهتف بقوة قائلاً " الغرود، الحمد لله، ربنا كريم"، وعاد للابتهاج مرة أخرى.

وسرعان ما هدأت العاصفة تمامًا، وعادت السماء صافية، وحتى أكثر الرجال تشاؤمًا لم يعد لديه ما يقلقه، ولكن خبرتنا القليلة المستمدة من هذه العاصفة الرملية، برهنت على أن الأشياء الصغيرة أثناء السفر فى الصحراء قد تكون لها أهميتها؛ فبوصلتى فقط هى التى أنقذتنا من هذا الموقف الخطير.

كان محمد متخوفًا من محاولة عبور الغرود فى الظلام؛ لذا خيمنا حيثما كنا.

الخميس ١٠ مايو: بدأنا فى الرابعة والربع صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، ثم بدأنا مرة أخرى فى الرابعة والنصف بعد الظهر، وتوقفنا فى السابعة من صباح يوم ١١ مايو. قطعنا خلال هذه الأوقات نحو ٧٥ كيلومترًا، كان الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح شديدة البرودة فى الصباح الباكر، معتدلة بعد ذلك، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية. وكان اتساع نطاق الكثبان الرملية كيلومترين، وكانت رمالها شديدة النعومة وخطرة فى بعض الأماكن، بعد ذلك دخلنا سريرة عادية.

بحلول الخامسة والنصف مساءً أصبح المكان مرصعًا برقع من الأحجار السوداء والبيضاء، مثل تلك التي كانت قبل "الكفرة". وفى الثالثة من صباح يوم ١١ مايو دخلنا نطاقًا من العشب الجاف الذى يمتد فوق رمال منبسطة وناعمة. وفى الرابعة والنصف صباحًا مررنا بحزام من الكثبان الرملية.

فى الصباح الباكر كنا على الطريق نعبر الغرود، وسرعان ما أدركنا مدى خطورة الخطأ الذى كنا سوف نرتكبه بمحاولة عبورها فى الظلام؛ فقد كانت شديدة الانحدار ورمالها ناعمة بشكل غادر، وغاصت الإبل حتى ركبها، وكان على الرجال مساعدتها على السير، وتطلب الأمر منا ثلاثة أرباع الساعة لكى نعبرها. توقفنا فى التاسعة صباحًا ونحن جوعى للغاية؛ لأننا لم نأكل منذ غداء اليوم السابق، وكنا نحتاج للطعام أكثر من النوم؛ لأن ساعات الراحة القليلة التى حصلنا عليها فى أثناء الليل أنعشتنا تمامًا.

كان الجو لا يزال حارًا عندما بدأنا مرة أخرى فى الرابعة والنصف بعد الظهر، ولكن النسمات التى كانت تهب من الشمال

الشرقى لطفت ذلك الجو القابض، وطلب منى هارى بضع يردات من القماش الأبيض لكى يصنع منها عمامة؛ لأن حرارة الشمس كانت تؤثر على رأسه، وكنت سعيدًا بإعطائها إياه، رغم أنه بين التبو والقرعان كان الشيوخ فقط هم الذين يرتدون الزى الأبيض.

فى هذه الليلة شعرتُ برغبة فى السير على قدمى؛ فامتطيت جملى أقل من المعتاد؛ ومنذ أن تركنا "العوينات" كنت أسير لما يتراوح بين ست وسبع ساعات فى الليلة، ولكن فى هذه الليلة سرت تسع ساعات. تقدمنا على نحو جيد حتى الثالثة صباحًا، عندما شعرت فجأة أو سمعت شيئًا يحفُ بحذائى، فنظرت إلى أسفل ووجدت عشبًا، فقد غيرت الصحراء من مظهرها. كانت الإبل جوعى؛ لأننا رحلنا عن "العوينات" ومعنا فقط طعام يومين لها، بأمل العثور على منطقة رعى لها؛ لذا تركناها تأكل على سجيتها بدلاً من دفعها للسير أسرع.

وكان السير مرهقًا للجميع؛ فقد كان علينا أن نتأخر فى النوم حتى نتأكد ونحافظ على تقدم الإبل داخل نطاق الرعى، وهو أمر بالغ الصعوبة، وقد ركب محمد وهارى معظم الطريق بينما حمل حسان المصباح، وقبل الفجر بقليل ترجل محمد وأراحه. وعندما جمعنا الإبل من أجل صلاة الصبح بدا الرجال مرهقين على نحو لم أرهم عليه من قبل.

الجمعة ١١ مايو: بدأنا فى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا فى الثالثة والربع صباحًا - من يوم السبت الموافق ١٢ مايو - قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٤٢ كيلومترًا، ظل الطقس صحوًا وصافيًا، وبلا رياح، وكان دافئًا طوال اليوم والليل، بلغت

درجة الحرارة القصوى ٣٩ درجة مئوية، كنا نجتاز نطاقًا من الرمال الناعمة التى تغطيها باقات من الأعشاب الجافة، والتى بدت مثل حقل من حقول الذرة اليانعة، وفى الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة مررنا بغرود عادية، وفى الواحدة دخلنا سريرة منبسطة تخلو من الأعشاب، وفى الثالثة والربع توقفنا عند تل من الحجر الرملى، بعد أن شعرنا أننا ضللنا طريقنا.

أمضينا اليوم فى النوم وتناول الطعام، وفى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر بدأنا وفى نيتنا أن نستمر فى السير طوال الليل، ولكن بحلول العاشرة مساءً أصبح الجميع مجهدًا يغلبه النعاس، حتى إن محمدًا امتطى جمله، وخلال الساعات القليلة التالية سقط نائمًا بين الفواصل، وبسبب تعبه لم ينظر خلفه ليصحح اتجاهه اعتمادًا على هدى النجم القطبى، وعندما يتجاهل الدليل "الجدى" فإنه يضل طريقه بالفعل، وشعرت أنا وسنوسى بوحسان بيقين أنه لا يسير فى الاتجاه الصحيح، لكننا لم نرد مجادلته مرة أخرى بعد الليلة السابقة.

فى الثالثة والربع صباحًا وصلنا إلى سلسلة من التلال وتوقف محمد تمامًا. وحتى هذه اللحظة كنتُ أسير خلف القافلة، وأتحقق من وقت إلى آخر من الاتجاه الذى نسلكه، فقد كنا نسير منذ العاشرة صوب الجنوب أكثر من ذى قبل. وعندما توقفت القافلة عدوت للأمام صوب محمد وسألته لماذا توقفنا؟! فقال وهو يشير أمامه "هذه الفتحة التى فى التلال لا أعرفها، كما لا أعرف طبيعة الأرض التى بعدها"، ومهما يكن خطؤه فقد كان صريحًا تمامًا.

لم أرد زيادة الشعور بالقلق لدى الرجل؛ لذا قلت ببساطة "دعنا نخيم هنا حتى الفجر؛ فجميعنا متعب هذه الليلة"، وما كدت أنتهى من كلامي حتى بركت الإبل ووضعت حمولتها على الأرض، لم أرَ أبدًا رجالاً تنام بمثل هذه السرعة؛ فقد لفَّ كل فرد نفسه سريعًا فى جيرده واحتمى من الرياح الشمالية الشرقية الباردة خلف أية قطعة من الأمتعة.

أما محمد فقد ذهب إلى السلاسل ليلقى نظرة عليها، وتبعته، وقلت له ملمحًا " أظن أنك قد تبعت الجدى أكثر من اللازم"؛ بمعنى أنه كان يتوجه أكثر صوب الجنوب، لم أرد الإشارة إلى أنه غفا فوق جمله، فلم أرد أن أهز ثقته بنفسه وأضعف معنوياته، تمتم وهو يمسح الأفق بتلهف " ربنا يباركك، لابد أننى فعلت هذا؛ لأنه لا يفترض بنا أن نصل إلى التلال مبكرًا هكذا، لقد كنتُ أتوقع أن نصل إليها فى الفجر، ولكن فى الصباح ربنا سوف يجلب لنا الفرج".

كنت منزعجًا بعض الشيء عندما تركته وتوجهت للسير بضع دقائق، أملاً ألا نكون قد سرنا بعيدًا عن مسارنا الصحيح، لكننى كنت مجهدًا للغاية لأستمر فى القلق؛ لذا سرعان ما غلبنى النوم.

السبت ١٢ مايو: فى الرابعة والنصف فجرًا سُمع صوت محمد وهو يؤذن للصلاة. فاستيقظنا سريعًا، وخلال ساعة كنا على الطريق، تقدم محمد القافلة، وانضممت إليه، كان لا يزال قلقًا، ولكن بينما كنا ندور حول التلال تنسم الصعداء وقال " ربنا كريم، من هنا يمتد طريقنا"، وأشار إلى الركن الشمالى الغربى من سلاسل التلال، وتوجهنا إليه. وبحلول التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا وصلنا

إليه ونصبنا مخيمنا. أرسلت الإبل إلى داخل التلال – مسافة كيلومتر أو كيلومترين – كى ترعى، وكان الرجال والإبل فى حالة سيئة بالفعل، وبدأ الماء الذى معنا ينفد.

بعد الظهر سبقنا محمد وهارى إلى التلال وصنعا أثرًا على الرمال بأحد قوائم الخيام لنتتبعه، وفى الخامسة مساءً تبعناهما إلى الكثبان الرملية، وبعدها إلى التلال، ولحسن الحظ أن الغرود لم تكن كثيرة، برغم أنها كانت وعرة بما يكفى، إلا أن الأرض التلالية التى تمتد بعدها هى التى أجهدتنا؛ فقد ظلت أقدامنا ترتطم بالصخور فى الظلام، ولا تحمى الأحذية البدوية من آلام هذا الارتطام. وبدا التصادم والإرهاق يزداد على وجه الخصوص فى ساعات الصباح المبكرة عندما أصابنا النعاس بصورة رهيبة، وكنا نسير بعين نصف مغلقة.

فى الليلة السابقة حاولت تجربة إطلاق طلقتين أو ثلاث من بندقيتى لأوقظ الرجال، وكانت الاستجابة جيدة؛ ففى كل مرة كانوا يستجيبون بتهليل عالٍ، ويسرعون من خطواتهم على الفور، ولكن فى هذه الليلة فشل هذا الأمر تمامًا. وفى نحو الثالثة صباحًا – أكثر الساعات ظلمة – كنت قد أفرغت بندقيتى بالكامل، ولكن دون أية استجابة.

على كل حال كان هناك تعويض بسيط، فى وسط هذا الامتداد المميت من التعب والكآبة، ففى الصباح الباكر بزغ الهلال كقوس فضى منظوم مع النجوم اللامعة التى توجد فوقه، قطعة فاتنة من المجوهرات السماوية، ثبت عينىَّ على جمالها ونسيت للحظة الرضوض التى أصابت قدمى المسكينة.

بعد فترة قليلة وصلنا إلى نطاق من العشب الجاف، كنا جميعًا مستعدين لترك الإبل ترعى لفترة، ولنمنح أجسادنا المنهكة فترة قصيرة للراحة، وفى الفجر توقفنا مرة أخرى لصلاة الصبح، وما كدنا ننهض من سجودنا حتى لف معظم الرجال أنفسهم فى جيرودهم وسقطوا على الرمال الحمراء الجميلة مثل الأحجار البيضاء، بينما سارت القافلة تتهادى، وانضم إلينا النائمون بعد فترة وجيزة، كنت آمل أن يمنحهم هذا النوم بعض الانتعاش.

فى هذا الصباح آلمتنى أوصالى بشدة، ولم أستطع إراحتها، رغم أننى جربت كل وضع ممكن فوق جملى، وكل طريقة ممكنة فى السير وسرعته، ولكن لم تُجدِ أى منها، بدت جفونى أيضًا كأنها مثقلة بالرصاص.

وفى السادسة صباحًا أسعدنا الحظ أن نمر ببعض رقع العشب الأخضر، ونصبنا مخيمنا بعد ثلاث عشرة ساعة من السير والعذاب، وكانت الأعين تحتقن بلون الدماء، والأجساد تحتجُ بكل عضلة وعصب، وخلال نصف الساعة أصبح المخيم صامتًا.

الأحد ١٣ مايو: استيقظنا فى العاشرة صباحًا من أجل الإفطار، ثم عاد الرجال للنوم مرة أخرى، لكننى لم أستطع فعل ذلك، بدأنا مرة ثانية فى الخامسة والربع مساءً، وفى هذا المساء أصبحت الأمور أسوأ مما قبل؛ فالأرض ازداد تضرسها ووعورتها، وأصبح السير كارثة مؤلمة لكل من الرجال والإبل، وكانت الإبل باستمرار تتأخر خلفنا فى أثناء دوراننا حول وبين الكثبان والتلال الصخرية الصغيرة، نتيجة لعثورها على مقدار ضئيل من العشب الذى كانت

ترعى عليه. وكان من الصعب تمييزها وسط الرمال الحمراء المليئة برقع من الصخور الداكنة.

توقف الغناء مبكرًا فى هذه الليلة؛ فالأمر الأكيد أن الرجال كانوا مجهدين للغاية، كما أخبرنى زروالى أن محمدًا جاء وقال لـــه إنه من الأفضل أن نخيم مبكرًا، ولانحاول السير طويلاً هذه الليلة. كان التقدم صعبًا للغاية، وكثيرًا ما كنا نغير من اتجاهنا لندور حول هذه النقـــاط العالية والنتوءات الصخرية؛ لذا كان نواجه خطر أن نضل طريقنـــا، ولكن زروالى العالم لمدى كرهى لأى تأخير أخبر الدليل أننى أبغـــى مواصلة السير فى هذه الليلة.

وفى النهاية أصبح السير صعبًا للغاية، وكانت الإبل تتخلف عنـــا باستمرار، وشعرت أنه لا فائدة من التقدم أكثر، ولو كنت فى حاجـــة إلى دليل على أن الرجال قد نال التعب منهم لكان ماثلاً فى حقيقة أن حسان – الذى من الواجانجى – المعتاد على السير الشاق قد امتطـــى جمله فى بداية هذا المساء ولم يهبط من عليه.

وفى الحادية عشرة والنصف مساء خيمنا، ولففـــت نفســـى فـــى جيردى، وقلت للرجال ألا يزعجوا أنفسهم بتجهيز حماية لـــى، فأنـــا واثق من أننى لن أتحرك من موضعى الأول الذى سقطت فيه حتـــى الخامسة صباحًا.

استيقظت بظهرٍ متيبسٍ وأقدامٍ متألمة.

ورغم ذلك فإن نسمات الصباح الصـــافية والمنعشـــة، ومظهـــر الرجال المشغولين والمتلهفين على التقدم أنسانى آلامـــى الجســـدية،

وبرغم الآمال الجديدة التى جلبها الصباح، فإن الأمور لم تكن مشجعة كثيرًا بالنسبة لنا؛ فالأرض كانت وعرة للغاية، وبدا الرجال كما لو أنهم قد فقدوا ثقتهم بمحمد وهارى، وكانت الإبل فى حالة سيئة، ومخزوننا من الماء أوشك على النفاذ.

الاثنين ١٤ مايو: بدأنا فى السادسة صباحًا وتوقفنا فى التاسعة صباحًا، ثم عدنا للسير ثانية فى الخامسة والنصف مساءً لنتوقف فى العاشرة مساءً، قطعنا نحو ٣٠ كيلومترًا، كان الجو صحوًا وصافيًا. فى السابعة صباحًا هبَّت نسمة باردة من الشمال الشرقى، توقفت فى الظهر، كان المساء والليل هادئين، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بدأنا والأرض تتكون من الرمال الناعمة التى تكسوها الأعشاب الجافة والخضراء، وبعد فترة وجيزة من بدايتنا بعد الظهر تغيرت المنطقة لتصبح الأرض متموجة مع وجود أودية مليئة بالأعشاب الخضراء و"النيشا" الجافة، وكانت تلك إحدى الإشارات على أننا نقترب من "إردى". وفى الثامنة والنصف مساءً عبرنا منطقة تلالية امتدت نحو أربعة كيلومترات، ثم بعد ذلك مررنا بوادٍ كبير به أعشاب وبعض الأشجار.

عندما بدأنا فى الصباح نويت أن نستمر فى التقدم لأربع أو خمس ساعات، ولكن سرعان ما أصبح الجو حارًّا للغاية وخيمنا فى التاسعة صباحًا، وكانت الراحة لمدة أربع ساعات لها تأثير جيد علينا، ولم يذهب أحد إلى النوم بعد ذلك حتى تناولنا الإفطار.

وبحلول الخامسة والنصف مساءً أصبحت القافلة على الطريق، وأصبح الماء الذى معنا قليلاً للغاية وسيئًا، وبدت الإبل ضعيفة

مجهدة. كنا متلهفين على الوصول إلى "إردى" بأسرع ما يمكن، وبعد فترة قليلة من بدايتنا عثر بوكارا وآرامى - ليس ذلك الشخص الذى ضل فى الصحراء واختفى، بل شخص آخر قتل رجلاً من قبل- على آثار "واران" كبير أو سحلية، وتتبعناها إلى جحرها. كان ممارسة القليل من العبث أمرًا جيدًا للترويح، حفرنا داخل الجحر، ولكن السحلية لم تكن فى داخله، تتبعنا آثارها إلى كومة من الصخور، وبعد عشرين دقيقة من الحفر أمسكنا بهذا الكائن.

ويستخدم البدو والسود دهن "الواران" كدواء للروماتيزم، ويقولون إنه إذا حمل شخص ما رأسه معه فإنه آمن من السحر الأسود، ويعلق جلده فى المنازل لإبقاء الثعابين بعيدة، و"الواران" لا يعض، لكن لديه ذيل مثل السوط يستخدمه فى القتال، وقد دبغ آرامى المخلوق من أجلى.

تتبعنا الآثار التى صنعها دليلنا، لكننا فقدناها أكثر من مرة فى الظلام، وأضعنا وقتًا كثيرًا فى محاولة العثور عليها، وأخيرًا بدأت تتذبذب أمامنا، ولاحظتُ أن محمدًا لم يكن واثقًا من اتجاهه. أمرت الرجال بالتخييم، وأطلقت طلقات فى الهواء، وبعد فترة وجيزة انضم إلينا محمد وهارى،اللذان أدركا أننى قررت التوقف، وأخبرنى الدليل أنه ليس واثقًا من الطريق فى هذه المنطقة فى الظلام، لكنه يعلم أننا لسنا بعيدين عن البئر.

وللمرة الأولى منذ أن غادرنا "العوينات" أتيحت لنا خمس ساعات من النوم المتواصل، وقبل الذهاب إلى الفراش تحدثتُ مع آرامى عن "إردى" وآبارها.

فقال "إن محمدًا دليل جيد فى ضوء النهار، لكنه كهل ولا يستطيع الرؤية جيدًا فى الليل، إلى جانب أنه لم يكن فى هذه المنطقة منذ سنوات عديدة، فقد كان يجب أن نخيم بجوار أول بئر هذا المساء، لكننا ضللناها، والله أعلم"، قلت له ألا يقول شيئًا من هذا للرجال، وإلا سوف يزداد قلقهم ويلومون محمدًا.

أعددتُ حقيبة نومى وجلستُ أفكر، كانت تلك أكثر اللحظات المحبطة طوال الرحلة؛ فالرجال فقدوا ثقتهم، وعانوا من الحرارة كثيرًا، وكانت الإبل تضرب بشدة للسبب ذاته، والدليل لم يكن واثقًا من الطريق، وبدأ الماء ينفد ويفسد، وكان أى من هذه الأمور كفيل بأن يجعل المرء قلقًا، ولكن وجودها مجتمعة تحطم أعصابه تمامًا.

وبينما كنتُ أستعرض صعوبات الرحلة وأخطارها - حتى هذا الوقت - تذكرت أن أحدًا لم ير آرامى المجنون أو أخاه ملكونى الذى ذهب ليبحث عنه مرة أخرى، ووجدتنى أتساءل عما إذا كان القدر ينوى أن يسلبنى ما كنتُ قادرًا على إنجازه؛ فلو كان القدر ماكرًا، فقد تخير اللحظة الملائمة ليضرب ضربته، فإذا كنت قد أخطأت "أركينو" و"العوينات" لم يكن الأمر سيصبح قاسيًا، ولكن الآن بعد أن حققتُ إنجازى المتواضع، كنت أشعر أنه يجب أن أعود به للديار. وتساءلت تُرى أتكون ليلة بلا نوم؟! ولكن الصحراء مارست سحرها مرة ثانية، وتعجبتُ أن أجد جفونى أصبحت أثقل، وأن النوم الذى جاء كان حلوًا للغاية.

الثلاثاء ١٥ مايو: استيقظنا فى الرابعة فجرًا، وكنا لانزال غير متأكدين أين نحن؛ لذا تقدمت مع محمد وهارى لنستطلع المكان،

عندما بزغت فجأة أمامنا تــلال "إردى" الحمراء، أرضــيتُ نفســى بتفحصها بنظارتى المعظمة لأتأكد أنه لم يلتبس علينا الأمــر، وبعــد ساعة من ذلك انطلقنا صوبها، وقبل أن نبدأ ثار جدل أيهما أفضل أن نخيم فى التلال عند بداية الوادى الذى ينتهى عنده البئر، أم نهبط إليه. كان النزول صعبًا على الإبل، ورغم هذا فقد قررنا أن نهبط ونخــيم فى قاع الوادى، ففى حالة تعرضنا لهجوم مغيرين فسوف يكون لدينا مصدر للتزود بالماء.

وتدريجيًا بدأنا فى تسلق ممر وعر بين جروف مــن الصــخور الحمراء، وفجأة خرجنا إلى قمة جرف عالٍ حيث يمتــد وادى "إردى" الذى كان منبسطًا تحتنا؛ وهو عبارة عن وادٍ ضــيق يبلــغ طولـــه عشرة كيلومترات تقريبًا، بينما لا يزيد اتساعه عن ١٠٠ متر، تحــيط به حروف حادة من الصخور الحمراء. وبعد السريرة الرتيبة الجرداء والصخور غير الصديقة التى كنا نجتازها منذ أن غادرنا "العوينــات" تأتى تلك الأشجار والأعشاب الخضراء، لتوحى بكل ما تعنيه جملــة "واحة فى الصحراء"، وبينما كنا نقترب من البئر سبقنا محمد وهارى مرة ثانية ليستطلعا المنطقة؛ فالسود دائمًا حذرون عندما يصلون إلــى بئر؛ إذ إنهم لا يقتربون منها مباشرة، بل يرسلون رجــلاً أو رجلــين أمامهما ليتأكدوا ما إذا كان هناك أحد بالفعل، وأنه ليس غريبًا أو على الأقل ليس عدوًا؛ لذا فالدليلان كانا لم يحددا الطريق الــذى يجــب أن نتتبعه فحسب، بل سيكتشفان أيضًا إذا ما كان يجب علينــا أن نكــون متيقظين لأى هجوم مباغت عندما نقترب من البئر أم لا.

سلكنا طريقنا بجهد عبر ممر وعر مفضى إلى الوادى، ونصــبنا خيامنا عند بدايته، وكانت البئر تقع فى أقصى جزئــه الجنــوبى، ولا

يوجد طريق للوصول إليها بأمان من أعلى - دون وجـود خطـورة بالغة على الإبل - فيما عدا الطريق الذى هبطنا منه.

اشتركت الوجبة الهائلة من الأرز والخبز الطازج الذى أعـددناه مع الجو الرائع المحيط بنا فى أن تجعلنا جميعًا سعداء كما لو كنا فى حفل عرس، أما أفكارى السوداء فى الليلة السـابقة فقـد بـدت الآن كابوسًا منافيًا للعقل، على الرغم من وجود قدر كبير من الحقيقة بها؛ ففى الصحراء غالبًا ما تكون المسافة التى تفصل بين الأمان والراحة والكارثة لا تتجاوز فى اتساعها سُمك شعرة الرأس الواحدة.

بعد أن شربنا ثلاثة أكواب من الشاى السـاخن شـعرنا بكسـل الرفاهية، وذهب الرجال إلى البئر ليسقوا الإبل وليجلبوا ماء للمخـيم، وعندما عادوا بدأت الحلاقة والاستحمام وغسيل الملابس، واسـتعادة احترام الذات، والثقة، وعادت الحياة مبهجة من جديد.

وفى الخامسة بعد الظهر تسلقت حائط الوادى ومعى الثيودوليـت وجمعت بعض الملاحظات، بينما ذهب زروالى وسنوسى بوحسـان وآرامى ليصطادوا "وادّان" أو خروفًا جبليًا، لكنهم عادوا بخفى حنين. وعندما سألت آرامى عما إذا كان خطأ القناصين أجاب "والله، لا، فقد صوبوا على نحو صحيح، ولكن الله كان رحيمًا بالوادّان".

مضت ليلة المخيم فى إراحة الإبل والغناء والمـرح، وشـعرت أننى لا أحتاج إلى شىء من هذه الليلة سوى الأحلام السعيدة.

الفصل الثامن عشر

الدخول إلى السودان

«استيقظت مبكرًا كى أفتح صندوق الأفلام، وأعيد ملء الكاميرات بينما كان الجو لا يزال باردًا. وفى السابعة صباحًا خرجت مع محمد وحماد لزيارة البئر».

وادى " إردى" الذى يعرف باسم "كركور" هو منخفض ضيق طويل ينساب بين التلال كالثعبان، ويجرى صوب الجنوب لنحو سبعة أو ثمانية كيلومترات، لينتهى عند جزء مسدود يشبه الجيب؛ حيث يقع البئر فى تجويف ظليل تحت الصخور، وهو ذو شكل شبه دائرى يبلغ طول محيطه نحو ستة أمتار، وتشبه هذه البئر تلك التى فى "العوينات"، وإن كنت أشك أنه بالإضافة إلى ماء المطر فإنها من المحتمل أن تعتمد فى تغذيتها على المياه الجوفية. وكان الاقتراب منها وعرًا، وإلى حد ما كانت خطرة فى التسلق، حتى إنه فى الليلة السابقة انزلق أحد الإبل الذى يحمل المياه وأصاب نفسه إصابة سيئة.

بعد أن تسلقنا للوصول إلى العين، استرحنا وتناولنا الشاى، ثم عدنا للديار تحت لهيب الشمس الحارقة، كان الوادى جميلاً بحوائطه شديدة الانحدار ذات الصخور الحمراء، بينما تتناثر الأعشاب الخضراء والأشجار عند سفوحه. وقد أخبرنى محمد أن هذا الوادى يعد من أصعب الأودية فى هذا الإقليم من حيث الدخول إليه؛ لذا فهو يعد أسهلها فى الدفاع عنه.

وعند الغروب تسلقت حوائط الوادى لأشاهد غروب الشمس الرائع ومشهد الضوء على الرمال الحمراء والصخور الوردية الملونة، كما حَلَقَ الرجال رءوسهم، وشذَّبوا لحاهم، وغسلوا ملابسهم ورتقوا، التى أصبحت مهترئة للغاية.

أنقذ عشب الرعى فى هذه المنطقة إبلنا، وكان من الحكمة أن نمضى هذا اليوم فى الراحة والتعافى. وأخبرنى محمد وهارى أنه اعتبارًا من الآن، لن يكون من الممكن السفر ليلاً؛ فقد كانت المنطقة كثيرة التلال، ولن تكون آمنة للسفر فى الظلام، وقد سلَّم كل البدو بمهارة محمد، بعد قيادته للإبل وسط الصخور شديدة الانحدار، للوصول إلى الوادى أمس.

فى المساء انطلق الكلب فى نوبة نباح، وشككنا أن أحدًا كان قريبًا منا؛ لذا أسرعنا بإطفاء النيران، وجمعنا الإبل معًا، وجهزنا بنادقنا، ووضعنا خفارة حول المخيم من الخارج، لكنه كان تحذيرًا كاذبًا، ومثل هذا الحذر الذى يشبه الحذر الذى نأخذه عندما نقترب من بئر ما، قد يبدو سخفًا عندما ينتهى الأمر، ولا يحدث شىء، ولكن فى المناطق المجهولة مثل هذه فإن القافلة التى لا تتخذه قد تكون حمقاء للغاية؛ فهجوم أفراد القبائلِ المعادية أو الخارجين على القانون أمر ليس بعيد الاحتمال.

الخميس ١٧ مايو: استيقظنا فى الرابعة صباحًا، وأصبحنا على الطريق بحلول الخامسة والنصف، كان التسلق للخروج من الوادى لا يقل صعوبة عن النزول إليه، وانزلق أحد الإبل، إلا أنه من حسن الحظ لم تنجم نتائج خطيرة، وعندما وصلنا إلى حدود الوادى ونظرنا

خلفنا، لاحظت الاختلاف بين الأودية فى هذه التلال وتلك التى فى "أركينو"، و"العوينات"؛ فهنا كان قاع الوادى على المنسوب ذاته للسهل الخارجى، والمرء يدخل إليه من خلال المرور عبر ممر كما لو كان يجتاز بوابة، بينما فى الإقليم الذى كنا به الآن كانت الأودية عبارة عن منخفضات أسفل المنسوب العام للمنطقة، والمرء ينزل إليها من خلال الدوران عبر ممر صخرى.

وخلال ساعة خرجنا من الوادى، وانعطفنا صوب الجنوب الشرقى؛ كنا فى منطقة جبلية من الصخور السوداء والحمراء، وكان جليًّا أننا لا نستطيع السفر فوق هذه الأرض فى الظلام. وفى التاسعة والنصف صباحًا هبطنا إلى واد كبير عبر ممر شديد الانحدار، وفيه تعثَّر جملان وألقيا حمولتيهما، وكان أحدهما يحمل مياهًا، وكان قريبًا للغاية من أن تدق عنقه، لولا ذهن عبدالله الحاضر، الذى سحب سكينًا وقطع حزام السرج مما أنقذ الموقف. وانفتحت السدادة الخشبية لأحد الفنطاسين وسكب ثلاثة أرباع الماء الموجود به، ومن حسن الحظ أن البئر التالية كانت على مسيرة ثلاثة أيام أمامنا، كما كان لدينا رصيد وافر لرحلة أطول. فحادثة مثل هذه قد تعد كارثة إذا ما كنا فى "الدفا" أو كما يسمى الطريق الطويل الخالى من المياه الممتد بين الآبار.

فى هذا الصباح حدث فجأة موَقِف خطير، وكاد أن يسفر عن نتائج مهلكة لولا شىء من الحظ؛ فقد كان أحمد – الطاهى الذى قدم معى من مصر – يمتطى جملاً بلا لجام، وسبق أن طلب من حميد – جمَّال بوحليجا – أن يزوده بلجام، إلا أن الأخير لكونه عليمًا بطرق الإبل، رأى من الأفضل عدم فعل هذا؛ لأنه كان الأهم أن تكون الإبل

قادرة على الرعى على سجيتها، فقد كانت فى حاجة للطعام أكثر من حاجتها للتوجيه.

وفى هذه الأثناء رأى جمل أحمد باقة من العشب الجيد؛ فهرع إليها مباشرة، وفى الطريق مر أسفل شجرة كثيفة الأشواك، ولم يستطع الراكب أن يفر من البروزات الحادة الناتئة من الشجرة، فجرح وجهه جرحًا شديدًا، وتحت تأثير الألم، شرع أحمد فى لعن الجمل ومالك الإبل، وعلى الفور رد حميد بالمثل ولعنه قائلاً له ألا يلعن الشريف مالك الحيوانات.

وبالمصادفة كنت قريبًا منهما، وفى قرارة نفسى أثنيت على سلوك الجمَّال وولائه لسيده بوحليجا.

هبط أحمد سريعا من فوق جمله، والدماء تتدفق من وجهه، وذهب فى ثورة غضبه صوب حميد، وهرع كل من سنوسى بوحسان، وحميد الآخر، وسعد العجيلة ليأخذوا جانب شقيقهم البدوى، بينما وقف عبد الله بجانب أحمد، ليصبح المصريان كتفًا بكتف.

كانت لدى خبرة بمثل هذا الشجار من قبل، ونظرت سريعًا لأرى أين توجد البنادق، وشعرت براحة عميقة وأنا أراها مربوطة بأمان فوق ظهور الإبل، ولم يكن مع الرجال سوى العصى ليتقاتلوا بها، ورغم هذا كان من الضرورى اتخاذ موقف حازم قبل أن تصبح المشكلة أكثر خطورة.

عدوت بفرسى وسط الرجال، ودفعته بين الفريقين المتقاتلين، وبفظاظة أمرت أحمد وعبد الله أن يتراجعا، كانت أكثر اللحظات

صعوبة؛ ففى أحد الجوانب يقف رجالى وفى الجانب الآخر يقف رجال قافلتى.

نظر سنوسى بوحسان وحميد خلفهما، وفى جزء من الثانية رأيت أعينهما تركز على البنادق المعلقة، وكانت أية كلمة مشجعة منى للفريق الآخر قد تعنى كارثة؛ لأن البدو يفوقونا عددًا، وفى الجانب الآخر لم يكن الوقت ملائمًا لأُهين رجالى أمام البدو، حتى ولو كانوا مخطئين؛ لذا سألت الرجال فى كلا الجانبين بلا تحيز " ماذا تقصدون بتصرفكم هكذا مثل الأطفال؟ رجال مثلكم يجب أن يخجلوا مما يحدث!"

بدأ حميد فى التحدث " لقد أهاننى".

قاطعه أحمد " لقد هاجمنى عندما كنت أهبط من فوق جملى".

أعلنت بحدة " أنا لا أبالى مَنْ أهان مَنْ أو مَنْ هاجم مَنْ، جميعكم رجالى، ومن العار أن أراكم تتصرفون هكذا مثل جماعة من الأطفال".

وفى هذه اللحظة حضر زروالى، واستدرت إلى عبد الله ثم إلى سنوسى بوحسان، وقلت لهما بصرامة "وأنتما يا أكبر مَنْ فى الرجال سنًا، بدلاً من أن تُهدئا الموقف أجدكما تشاركان فى هذا الشجار المهين، لعلنى ارتكبت خطأً، كان علىَّ أن أختار رجالاً لقافلتى وليس صبية".

وفى هذه الأثناء بدأ كلا الجانبين يهدآن، ويفقدان نظرتهما المتوترة التى يتسم بها رجال على وشك أن ينخرطوا فى شجار.

ووجدت زروالى، الذى من المحتمل أنه توقع أن آخذ جانب أبناء بلدتى عبد الله وأحمد - وكان غير مسلح - يفعل شيئًا غير متوقع، فقد أمر العبد فراج قائلاً "ضع حميد على الأرض، سوف أجلده بسوطى".

وفى سرعة البرق قام فراج قوى البنية بإلقاء حميد بفظاظة على الأرض وشل حركته بركبتيه، وقبل أن أستطيع معارضة سوط زروالى، كان قد هبط عليه مرتين، ولكن فى هذا الوقت كنت قد ترجلت وأمسكت بذراع زروالى.

وقلت جازمًا "إنها ليست مسألة عقاب، نحن لا نعلم من المخطئ، سوف أتحقق من الأمر بنفسى، وأعاقب بيدى من يثبت أنه مذنب".

واستدرت للرجال وأمرتهم "اتبعوا الإبل".

وأمرت محمد وهارى، اللذين ظلا بلباقة بعيدين عن هذا الأمر، وأنا أشير بعصاتى "قودا القافلة".

تحرك الجميع، وسرت بمفردى، محاولاً الحفاظ - من أجل الصالح العام - على تعبيرى المتجهم الرافض، وتدريجيًا تحرك زروالى بالقرب منى وسأل مستنكرًا " لعل البيه ليس غاضبًا مما حدث؟ ربنا العالم أننى عندما استيقظت هذا الصباح، كان هناك شىء ثقيل يطبق على قلبى، وشعرت بكل تأكيد أن أمرًا بغيضًا سوف يحدث، وشعورى عكسه سلامك علىَّ".

ولاحظت أننى أيضًا خامرنى شعور غامض، ولم يكن هناك سبب له؛ فكل شىء كان يمضى بنعومة وعلى نحو جيد، ورغم ذلك فقد كان هناك شىء يحزننى.

وخلال فترة وجيزة بدا الجانبان مثل الأطفال غير المطيعين، ولاحظت أن كلا الجانبين يختلسان النظر إلىَّ، ليريا إذا ما كان غضبى قد زال أم لا، لكننى حافظت على أمارات التجهم حتى وقت الغداء.

أولئك الذين سافروا فى الصحراء، ويعرفون البدو، سوف يدركون مدى احتمالات خطورة هذا الموقف؛ فكلمة واحدة قاسية يتم تأويلها كإهانة قد تعنى إطلاق النار إذا كانت البنادق قريبة من اليد؛ لذا فلو كانت البنادق مع الرجال، وكنت بعيدًا بضع مئات من الياردات - على النحو المألوف - لكان هناك بكل تأكيد إطلاق نار، وكان من المحتمل أن يقتل البدو أحمد وعبد الله من ناحية، ومن ناحية أخرى ماذا كنت سأفعل؟! كمصرى كنت سأثأر لأبناء جلدتى مهما كلفنى الأمر.

لذا فقد كان حظنا جيدًا أن البنادق كانت مربوطة بالإبل، وكنت أنا قريبًا من الموقف.

قال زروالى "نحن قريبون من نهاية الرحلة، وعند هذه المرحلة عادةً ما يتشاجر الرجال".

ومع مرور الوقت تلاشت آثار هذه الحادثة الخطرة.

أصبحت الشمس شديدة الحرارة، وخيمنا فى الوادى فى ظل بعض الأشجار الصغيرة، ووجدت الإبل بعض الأعشاب الصالحة للرعى، بينما أكلنا واسترحنا. وقبل أن نبدأ بعد الظهر جاء محمد، وسنوسى بوحسان، وبوكارا، وحميد الجمَّال، ليطلبوا منى أن أسامح حميدًا لأنه سمح لغضبه بأن يتغلب عليه عندما تشاجر مع أحمد،

وعفوت عنه بكل سرور، وذهب إلى أحمد وقَبّل رأسه، ورد أحمد المجاملة، وعندها انتهى الشجار وفق أفضل التقاليد البدوية.

واصلنا هبوط الوادى الضخم لنحو ثلاث ساعات، وخيمنا بالقرب من مصبه فى الساعة السابعة والربع مساءً، وقبل فترة قصيرة من توقفنا رأينا فى المواجهة تلال "آجه" حيث تقع البئر التالية. كانت الأرض الممتدة أمامنا عبارة عن سريرة مستوية، وكان من المريح رؤيتها؛ ففى الصباح عندما كنا نهبط عبر الوادى بدا كما لو أن كل حقائبنا ستصبح قطعًا صغيرة، إذا ما كان هناك المزيد من هذه المنحدرات؛ ففى بعض الأماكن كان الهبوط شديد الوعورة؛ لذا كان من الآمن لنا أن ننزِل حمولة الإبل، وأن يحمل الرجال الأمتعة ويهبطوا بها على الصخور شديدة الانحدار، والتى كانت تصل لنحو ثلاثة أقدام من صخرة إلى أخرى.

بزغ القمر الجديد ونحن نخيم، وكان اليوم التالى هو يوم عيد الفطر الذى يأتى بعد نهاية شهر رمضان، وجاء زروالى ليقول إن الرجال يبغون الاحتفال به وفقًا للعقيدة الإسلامية، ورحبت بذلك، طالما أن تلال " آجه " كانت على مرمى بصرنا، ومؤن المياه كانت وفيرة، بالإضافة إلى أن عشب الرعى الممتاز فى هذا الوادى كانت الإبل فى حاجة له.

نهضنا جميعًا مبكرًا فى اليوم التالى (الجمعة ١٨ مايو)، وارتدينا ملابس نظيفة للاحتفال بيوم العيد، وتبادلنا الأمنيات الطيبة، ثم تبعناها بصلاة العيد، كانت هناك نظرة تكسو كل وجه، وكأن الرجال يفكرون فى أولئك الذين تركوهم فى الديار.

أخرجت بعـض الجنيهات المجيدية والجنيهات المصرية ووزعتها؛ حيث ذهبت العملات المعدنية إلى كل من محمد، وهارى، وحسان، وآرامى، الذين كانوا سيتركوننا قبل أن نصل إلى الحدود حيث الجنيهات المصرية متداولة هناك، بينما حصل الباقى على أوراق البنكنوت التى سيكونون قادرين على استخدامها فى "الفاشر"، وأعطيت زروالى عشرين خرطوشة من طلقات المسدسات وزجاجة عطر، بينما قسّمت زجاجة العطر الأخرى بين الرجال، وتلقى بوكارا أحد غليوناتى وتبغًا ليستخدمها، وأعلن أنه لا يدرى ماذا يفعل ليرد كل هذا العطف الذى أبديته نحوه، وقال "لا أملك سوى جملى والملابس التى أرتديها، لقد أعطانى قيمة جملى تبغًا".

كان مخيمًا بهيجًا وقت الإفطار؛ فقد كان الرجال مسرورين بهداياهم، وكنت أستمتع برضاهم، وبعد الإفطار تمددنا جميعًا من أجل غفوة قليلة، إلا أننا نهضنا سريعًا وأجسادنا تحك بقوة نتيجة لهجوم النمل الأبيض.

فى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، كنا قد بدأنا السير، وبعد نصف الساعة من ذلك خرجنا من الوادى إلى السريرة، وفى مواجهتنا كانت تمتد سلسلة من التلال صوب الشرق والغرب وفى وسطها جبل كان يقع "أيسلنجة"، وإلى اليمين جبل " آجه " الذى كنا نتجه صوبه، وخبرنى هارى إنه توجد بئر أيضًا فى جبل " أيسلنجة"، ولكن كان من الصعب الوصول إليها، وكان الوادى الذى خيمنا عنده أبرز ما يميزه هو وجود شجرة عند الجانب الشرقى لمدخله.

كان يومًا حارًّا، وتحركنا ببطء لمدة ست ساعات، حتى وصلنا إلى حزام من الكثبان الرملية أوقف تقدمنا ليلاً.

السبت ١٩ مايو: بدأنا فى الخامسة والربع صباحًا، وتوقفنا تمامًا فى الثامنة مساءً، كانت هناك رياح شمالية شرقية حارة تهب من التلال، توقفت فى المساء، سرنا فوق رمال ناعمة شديدة التموج مغطاة بأعشاب جافة، وكلما اقتربنا من التلال كان تسطح الأرض يزداد مع وجود رقع من الصخور السوداء الصغيرة. وسرعان ما أصبحت الشمس حارة فى الصباح، كما تعرضنا لهبوب رياح حارة؛ لذا خيمنا فى التاسعة والنصف صباحًا فى ظل شجرة "تومتوم"، وكان ظلها السار ونتوءاتها من الثمار الحمراء تضفى شكلاً جذابًا فوق رءوسنا.

فى الثالثة والنصف بدأنا مرة أخرى على الرغم من الحرارة، على أمل الوصول إلى تلال "آجه" قبل حلول الظلام، وكان على الإبل أن تضرب حتى نبعدها عن ظل الشجرة، لتمضى تحت الشمس الحارة، وفى السابعة والنصف مساءً وصلنا إلى سفوح التلال، مع بزوغ الهلال الشاحب، وفجأة أطلق محمد تحذيرًا؛ فقد عثر على آثار حديثة لأقدام رجلين تقود إلى "ميردى"، وفى الصحراء فإن الشعور بوجود غريب على مقربة أمرًا يدعو لليقظة حتى يُثبت أنه ليس عدوًا، حُلِّت البنادق سريعًا، ونزعت الأقمشة المليئة بالزيت التى كانت تسد خزائنها وعُمرت بالطلقات، وجمع الرجال الإبل التى كانت تنتشر هنا وهناك لترعى، وتقدم محمد وهارى، وسنوسى بوحسان للأمام صوب الوادى ليستطلعوا الأمر، وبعد البحث الدقيق عادوا ليعلنوا أنه لا توجد آثار تقود إلى الوادى، ولكن هناك آثار حديثة تخرج منه. خيمنا عند مدخل الوادى الخالى من الأشجار والنباتات حتى نرى إذا ما اقترب أحدهم ليلاً، تناولنا عشاءنا على عجل،

وأطفأنا نيران مخيمنا، ووضعت الإبل والقرب فى منتصف المخيم، ورتبت الأمتعة حول حدوده، ووضعنا أربع نوبات للحراسة فى أثناء الليل، وذهبنا إلى مضاجعنا، ولكن النوم كان عسيرًا، بسبب حرارة الجوى الخانقة والترقب.

فى صباح يوم الأحد استيقظنا مبكرًا، واقتربنا من الوادى بحذر، ومررنا بآثار حديثة لأغنام ورجال، كنا على يقين أن أحدهم يخيم فى الوادى، لذا سبقنا محمد وهارى؛ لأن سكان هذه المنطقة كانوا من "القرعان"، ولا يوجد شخص آخر يتحدث لغتهم، وسرعان ما عادا ومعهما ثلاثة أفراد من القرعان، قابلتهم وفى وقار تبادلنا مراسم الأمان؛ حيث تقدم كل منا صوب الآخر وألقى ما كان معه من أسلحة " سيوفًا أو بنادق " على الأرض، وخاطبتهم بعبارات تحمل جلال الزمن " أقسم بالله أننا رجال مسالمون، وأننا لا ننوى بكم أى سوء، وأننا لا نعتزم سرقتكم"، ثم فعل فرد منهم بدوره الشيء نفسه، ثم انخرطنا فى أسئلة وإجابات مختصرة من كل جانب، من أنتم؟ متى جئتم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟ لأى غرض؟ ثم تصافحنا بالأيدى بصورة رسمية، والتقط كل منا أسلحته، وانسحب الجانبان.

حاولنا شراء خروف منهم، لكنهم رفضوا بيعه، وخلال فترة وجيزة رحلوا ثم عادوا ومعهم ثلاثة خراف، قدموها لنا على سبيل الضيافة، رافضين قبول أى ثمن لها، وردًا على مجاملتهم أعطيتهم قماشًا أزرق، كانوا سعداء به للغاية.

أُرسلت الإبل للبئر لتشرب ولتحضر المياه للمخيم، بينما شغل الرجال أنفسهم بالإعداد لوليمة اللحم الكبيرة، وبعد الظهر التقطت

بعض الصور للمنطقة، وفى المساء جمعت بعض الملاحظات العلمية، وكان المصباح اليدوى " البطارية " الذى كنت أستخدمه فى قراءة الثيودوليت يفزع صبية " القرعان " فى البداية، ثم أصبحوا يسروا لرؤيته بعد ذلك.

ولعل وادى" آجه " جدير بأن يكون مشهدًا لصورة رائعة، وهو عبارة عن ممر طويل ضيق يمتد بين جروف عالية، تكثر به النباتات والأشجار، أكثر مما رأيناه في هذه الأرجاء، وعند منتصفه يتشعب إلى فرعين أحدهما يمتد فى اتجاه الجنوب الغربى صوب البئر، والآخر يمتد فى اتجاه الجنوب إلى الصحراء الشاسعة، والبئر التى توجد عنده تشبه تلك التى كانت فى "إردى"، ولكن ماءها ملوث بشكل سيئ بفعل الأغنام والإبل، والوادى ملىء بالطيور التى كان تغريدها العذب يجعل المرء يظن أنه أمام أحد أقفاص الطيور بحديقة الحيوان.

استيقظنا ولا تزال الدنيا ظلامًا، والنجوم تلمع فى السماء. وجاء القرعان ليودعونا، وبعد أن سرنا لمسافة صغيرة انحرف آرامى وحسان إلى الجنوب أكثر، وتركانا ليعودا إلى "العوينات" ومعهما جمل آرامي، بينما اتجهنا إلى أسفل صوب التشعب الشرقى من الوادى، وكانت جوانبه شديدة الانحدار تحمينا من الشمس، وفى الطريق رأينا ثلاثة غزلان، وحاول بعض الرجال مطاردتها، ولكن الحيوانات الفطنة تسلقت التلال واستطاعت الفرار. وأطلق حامد وهو من الزوىّ النار على أحدها وأخطأه، وحتى لا يسخر منه الآخرون، رفض الاعتراف بفشله الكامل، وأذكر ذلك بقوة قائلاً "بعون الله أصبته، لقد رأيت الدماء تسيل منه". ولم يكن الأمر يعنى كثيرًا طالما أنه كان لا يزال لدينا لحم متبقٍ من ضيافة القرعان.

سرعان ما أصبح الجو شديد الحرارة ورفضت الإبل أن تتقدم؛ اذا خيمنا فى ظل شجرة، إلا أنه سرعان ما اكتشفنا أن أفضل حماية من الشمس بين الصدوع الصخرية.

تركنا الإبل ترعى على سجيتها وهدأ الرجال ليستعدوا لوجبة الظهيرة، فذُبح خروفان وغرس لحمهما فى عصى، وقلبا ببطء فوق النار حتى يتم شواؤهما بالطريقة البدوية، كان مذاقهما لذيذًا. وفى أثناء إعداد اللحم، جرح سعد يده، ورأيت الدماء تسيل منه، وسألت من أين جاءت؟! فقال بوكارا "من غزال حميد، ومرة أخرى انطلقت الضحكات بين الرجال حول واقعة الصيد الفاشلة.

بعد الغداء ملأتُ ساعاتى، وسجلتُ قراءات البارومتر الجاف، وترمومترى درجة الحرارة القصوى والصغرى، ودونت مذكراتى، وفجاه جاء حميد يعدو نحونا وهو يقول إنه رأى سربًا من النعام قريب منا، قبضنا جميعًا على بنادقنا، ووقفنا مستعدين، وسرعان ما ظهر النعام، وكان عدده يتراوح بين الثلاثين أو الأربعين، إلا أن البدو كانوا غير صبورين وفتحوا النيران عليها، بينما كانت المسافة لاتزال كبيرة للغاية، فاندفع النعام إلى وادٍ آخر، والرجال يلاحقونه بحرارة، وأُطلقت العديد من الطلقات، ولكن سرعان ما عاد زروالى ليقول إنه لم يتم اصطياد أية نعامة.

وبعد فترة وجيزة ظهر حميد وهو يحمل نعامة صغيرة، ويتبعه سنوسى بوحسان، كان كلا الرجلين يطالبان بحق إصابة الطائر، ونظرًا لأنه كان مصابًا بطلقتين – رغم أن أيهما قد تكون أماتته – فقد حضرا إلىَّ لأحكم فيما بينهما، وسألت عن رأى الرجال الذين

شاهدوا إطلاق الرصاص، فأجمع الكل على أن طلقة حميد هى التـــى صرعت الطائر؛ لذا حكمت لصالحه.

أما حميد الآخر - الجمَّال - فقد كان ضئيلاً، حاد الملامـــح، لا يخشى حيوانًا حتى الثعابين، وقد فوجئ بنعامة فـــى أحـــد الأجـــزاء المغلقة من الوادى، وبعد أن فشل فى الهجوم عليها بالأحجار، انـــدفع صوبها وأمسكها من عنقها، وتصارع معها بشجاعة، لكنها رفسته فى جنبه بإحدى قدميها القويتيـــــن، وفـــرت - كنت أشاهد هذا القتـــال من خلال نظارتى المعظمة، وتكاد جوانبى أن تنفجر من الضـــحك - ثم قفزت النعامة حافة الوادى وهى تنظر خلفها باحتقار إلـــى حميـــد، الذى وقف يلعنها وينفض ريشها عنه، ثم سار فى مشية امرأة عجوز ويده تضغط على الجانب الذى أصابته النعامة.

وعندما عاد سألته على انفراد "هل أصابتك النعامة؟"

فأجاب سريعًا بعد أن رفع يده من على جنبه "آه، لا"

فسألته مرة ثانية "إذًا لماذا لم تعد بها؟"

فعلل ذلك بتفسير يحمل قدرًا من القناعة "كان علـــىَّ أن أتركهـــا تذهب، فما هى إلا أنثى".

ولعل أحد أكثر الأمور التى ندمتُ عليها فى هذه المرحلـــة هـــو أننى لم أكن قادرًا على متابعة الصيد كما كنت أحب؛ فليلـــة الســـير بين"العوينات" و"إردى" تركتنى فى الصباح مجهدًا للغايـــة، لفعـــل أى شىء عدا تسجيل قراءات مُعداتى العلمية، ومحاولة اختلاس ساعة أو ساعتين من النوم قبل أن يصبح الجو حارًّا للغاية، كما أن مؤننا مـــن

الطعام بدأت تتناقص وتتناقص، ولم أستطع المكوث فى "آجه" حيث يوجد الكثير من الغزلان، والنعام، والخراف البرية؛ فندرة المياه جعلتنى لا أضيع وقتًا كثيرًا هناك؛ حيث إن البئر كانت شديدة التلوث بفعل الحيوانات. كما كانت بندقية الجيش المصرية القديمة التى معى، وبندقية الفرسان الإيطالية التى أهديت لى فى "الكفرة" تصلحان للاستخدام فى الدفاع عن النفس فقط، بينما فائدتهما كانت ضئيلة فى القنص من على مسافات بعيدة، خاصة بالنسبة للغزلان؛ لذا كان الصيد رفاهية أنكرتها على نفسى.

كان الجو شديد الحرارة، ولم نستطع البدء حتى الخامسة مساءً، وبعدها واصلنا السير فى الوادى البهيج لما يربو على الساعة، وبعد ذلك بدأنا فى تسلق التلال، وعندما وصلنا إلى القمة كنا نستطيع رؤية جماله بوضوح؛ حيث كانت التدرجات الخضراء من الأشجار والشجيرات تصنع شكلاً خلابًا فاتنًا يتناغم مع الرمال الوردية والصخور الحمراء للتلال التى تحرس الوادى، والأصوات الناعمة للحمام الذى لا يحصى عدده، والذى كان يحلق مع نسمات المساء الباردة، وغروب الشمس الرائع، بلونيه الأحمر والذهبى، لتكتمل هذه المجموعة التى ليس من السهل نسيانها، أوقفت حصانى، ومكثتُ نصف الساعة سعيدًا، وأنا ممدد فوق الرمال الناعمة أرتشف من بهجة هذه القطعة الصغيرة من الجنة، وسرعان ما حل الظلام، وبدا الهلال، ومن بعيد سمعتُ بدو قافلتى يغنون، نهضت على كره وعدت للطريق من جديد.

وسرعان ما أصبحنا فى منطقة مختلفة وعرة وشديدة التموج، تحيط بها تلال شديدة الوعورة، وكانت الإبل تعانى من ماء "آجه" الملوث، والرجال أيضًا. لذا خيمنا مبكرًا لهذا السبب، وبسبب أنها كانت منطقة من الخطر السفر فيها على هدى ضوء قمر ضعيف، فقد انعطفنا صوب وادٍ ذى رمال ناعمة يبعد نحو مائتى متر عن طريقنا، وخيمنا هناك.

استيقظنا يوم الثلاثاء ٢٣ مايو، وكانت النجوم لم تغادر السماء بعد، وبدأنا مع شروق الشمس الرائع، تحركنا ببطء، نظرًا لكثافة الشجيرات والصخور المتناثرة، بالإضافة إلى أن محمدًا وهارى لم يطآ هذه المنطقة منذ عشر سنوات، لذا كانا يفتشان عن الطريق بحذر.

قلت لحميد الجمَّال بينما كنت أسير فى موضعى المفضَّل خلف القافلة "أحسب أن محمدًا يمتطى جمله وإلا ما تحركنا بمثل هذا البطء". فقال رفيقى الفطن بسرعة "يا بيه، الرجل أشيب الشعر يسير، فآثار أقدامه على الأرض".

ومرة أخرى أعجبت بقوة ملاحظة البدو، خاصة الجمَّالين، فقد عرف حميد خصائص آثار قدم كل فرد يسير فى القافلة، وبالطبع كان يعلم آثار أقدام كل جمل أيضًا.

فى يوم الأربعاء استيقظنا مبكرًا عن المعتاد، لتلهفنا على الوصول إلى بئر "عنبة"؛ فمياه "آجه" كانت أسوأ ما تذوقناه، وكانت آثارها على الرجال والإبل سيئة، وبعد ثلاث ساعات من السير وصلنا إلى حدود الوادى حيث تقع البئر، هبطنا إليها واكتشفنا من

اثار أقدام الأغنام، والحمير، والرجال الموجودة فى المنطقة أن المكان مأهول بالسكان، لذا سبقنا محمد ليقابل الرجال الذين يعيشون هنـــاك، ويعطى ويتلقى الأمان، وسرعان ما خيمنا بجانب البئر، كـــان المـــاء ممتازًا، واستمتع الرجال والإبل بمذاقه.

كان هناك بالفعل مخيم كبير للبدو، به مئات الأغنـــام، وبضـــعة خيول، وبعد قليل حضر كل السكان يقودهم الشيوخ لتحيتنا، تصافحت معهم، ووزعت بعض العطر عليهم واضعًا القليل فى يد كل منهم.

بعد الظهر أحضروا خروفًا كضيافة، ومن بينهم امـــرأة كانـــت لديها حاسة تجارية قوية – عرضت زبدًا وسمنًا وجلدًا لتبيعـــه لنـــا، وأعطيناها فى المقابل جنيهات مجيدية وأقمشة. وفى المساء جمعـــت بعض الملاحظات وكان البدو – سكان المنطقـــة – مرعـــوبين مـــن الثيودوليت والبطارية، وبدأت شكوكهم تتزايد؛

حتى إن أحد الشيوخ دخل خيمتى وباغتنى وأنـــا أفـــتح حقيبـــة المعدات العلمية التى كانت معى، وعندما شـــاهدته أغلقـــت الحقيبـــة سريعًا، وقتها أدركت على الفور خطئى؛ فقد اســـتطعت أن أرى فـــى وجه الأسود القاسى وعينيه الصفراوين اللتين كانتا تشـــبهان عينـــى الثعلب أنه يؤمن بأن معى ذهبًا فى الصندوق، وبينمـــا كـــان يغـــادر خيمتى أمرت سنوسى بوحسان وحميدًا أن يقفا كحراس فى المخـــيم، وأشرتُ لهما وأخبرت الشيخ ألا يسمح للنساء أو الأطفال بـــالاقتراب من المخيم فى الليل، مخافة أن يرتكب رجالى خطأ ويطلقـــون النـــار عليهم، كانت مجرد إشارة إلى أننا متيقظون للغاية؛ لذا فلا أمل فـــى مباغتتنا واستطعت رؤية الإشارة وهى تصل إلى مقصدها.

الفصل التاسع عشر

إلى فوراويا مع نقص المؤن

«وادى "عنبة" تكسوه الرمال الناعمة التى تنتشر فوقها الشجيرات الجافة والخضراء بالإضافة إلى الكثير من الأشجار».

نمت جيدًا فى الليلة السابقة، واستيقظت على جلبة امرأة بدوية، تتفاوض مع رجال قافلتى على مقايضة الصفائح الفارغة، وعرضت مقابلاً لها لبنًا ونوعًا من الشجيرات الجافة يسمونها "توباكو"، كما تلقينا خمس غنمات أخرى على سبيل الضيافة، وفى المقابل وزعت المزيد من الهدايا.

بدأنا فى الثالثة والربع ظهرًا تحت تشجيع الرياح الجنوبية الغربية الباردة، ولكن سرعان ما توقفت الرياح، ليصبح تقدمنا بطيئًا بسبب حرارة الجو، ومع ذلك فقد كان المساء أكثر برودة واستطعنا تعويض بعضٍ من الوقت الضائع، أما الليل فقد كان باردًا للغاية.

الجمعة ٢٥ مايو: استيقظنا فى الرابعة صباحًا، وبدأنا السير بعد ذلك بساعة وربع الساعة، كانت الأرض شديدة التموج والوعورة، ولم يكن هارى واثقًا من الطريق؛ لذا فقد تحركنا ببطء بسبب صعوبة السير وعدم تيقن الدليل من الطريق. وبعد التاسعة بقليل دلفنا إلى أحد الأودية الجانبية وخيمنا بعد ساعة من ذلك.

وجدت سنوسى بوحسان بينما كان يسير بجانبى يصوغ رأيه فى الدليل بصورة تعكس اعتزازه ببداوته، قائلاً " هؤلاء القرعان يتهادون مثل الإبل، فهم لا يسيرون مثل البدو الذين يطيـــرون مباشـــرة إلـــى هدفهم مثل الطيور".

عندما عدنا للطريق بعد الظهر، كانت الشمس لا تزال حارقـــة؛ لذا تحركت الإبل ببطء، وكان غناء الرجال أشبه بصـــوت موسـيقى القرب المحطمة. ولعل ذلك مرده أيضًا إلى أننا كنا مجبـــرين علـــى التحرك ببطء؛ لأن هارى زاد عدم يقينه من الطريق الذى كنا نسـلكه عما قبل. وفى بعض الأحيان كنا نتتبع بعض الآثار التى خلّفها قطيع من الأغنام فقد افترضنا أنه متوجه إلى " باو"، ولكن فـــى الفواصـــل ضاعت تلك الآثار وسط نطاقات الصخور المهشمة.

بعد الخامسة بقليل دخلنا إلى وادٍ كبير – عرفنا بعد ذلك أن اسمه "كونى مينا" – يتشعب صوب الشرق والغرب، وكان مليء بالأشجار الصغيرة، وقبل أن نصل إليه بقليل قابلنا أحد القرعان ومعـــه بضـــع غنمات، توجه نحوى وألقى سيفه ورمحه على الأرض وخلع نعليـــه، ثم تصافحنا مع تكرار قول " كيف حالك؟ طيبون"، فقد كانت تلك هى كل الكلمات العربية التى يعرفها.وبعد ذلك تحدث معه محمد وهارى، وعرفا أنه يوجد مخيم للقرعان فىّ الوادى الممتد أمامنـــا، وأن أحـــد تجار الماشية قد وصل للتو، قادمًا من "فادا" التى توجد فى "الواداى"، ومعه أغنام وأبقار فى يتجه بها إلى "الفاشر"؛ لذا سبقنا محمد وهارى واقتربا من أكواخ القش التى يتكون منها مخيم القرعان، بينما توجهنا صوب الوادى وخيمنا عند حدوده.

وسرعان ما جاء أحدهم وهو يعدو، طالبًا منا أن نعود إلى المخيم، ونبدأ مرة أخرى فى اليوم التالى. قدرت اقتراح الضيافة، إلا أننى شعرت أننا لا نستطيع أن نتراجع حتى ولو كيلومترين، شكرته على الدعوة وأخبرته أننا فى عجلة شديدة من أمرنا، وأنه يجب علينا أن نخيم فى الجوار انتظارًا لعودة دليلنا، وبعد ساعة من ذلك ظهر محمد محملاً بأخبار من "فادا" و" الفاشر"، حصل عليها من التاجر.

انشغلنا هذا المساء بفحص حقائبنا وإصلاح الأضرار التى لحقت بها، واكتشفنا أن كل الحبال التى معنا أصبحت بالية، وكذلك حقائب البدو المصنوعة من الصوف، وأننا نفقد الكثير من الوقت على الطريق فى إعادة التحميل ونقل الأشياء من جملٍ إلى آخر، ولكن عزاءنا أننا كنا نعلم أنه خلال أسبوعين سوف نصل إلى "الفاشر".

وفى ٢٦ مايو شاهدت أجمل شروق شمس لم أرَ مثيلاً له من قبل، كانت أشعة الشمس البيضاء المتألقة تنعكس على الصخور الحمراء والسوداء القريبة والتلال البعيدة فتجعل كل شىء رائعًا ومتميزًا، وسرعان ما تغير لون هذه الأشعة إلى الأحمر الدافئ المتقد، ثم نفذت الأشعة الذهبية عبر السحب الرقيقة وفاضت فوق كل شىء، بينما كانت الظلال الطويلة التى تلقيها الصخور والشجيرات على سطح الأرض أشبه بالرسومات السوداء على الرمال الصفراء، وبدت ظلال القافلة وهى تتحرك ببطء كرسم خرافى.

وسرعان ما أثبت أنه صباح شديد الوطأة فقد ارتفعت درجة الحرارة بصورة كبيرة.

فى صدر النهار انضم إلينا هارى، ومعه خروف مذبوح وهو الضيافة القادمة من مخيم القرعان.

تتبعنا آثار الإبل والأغنام، وسرنا من وادٍ إلى آخر إلى أن خيمنا فى أكبرها، كان به العديد من الأشجار الظليلة.

وكانت هناك دائمًا مشكلة سواء توقفنا تحت ظل شجر وعانينا من هجوم النمل الأبيض وكل أنواع الحشرات الضارة، أو نصبنا خيامنا فى الشمس الحارقة. وإن كنت أميل إلى تجربة حظى فى الظل، طالما أن الحشرات دائمًا معك، بينما تزيد درجة حرارة الشمس بنحو خمس أو ست درجات بعد الظهر. وكان الوادى الذى خيمنا فيه يدعى " كاب تيركو".

بدأنا مرة أخرى فى الرابعة بعد الظهر، فى ظل وجود نسمات جنوبية شرقية،جعلت السير غير ممل، كما كانت هناك أيضًا بعض السحب التى لطَّفت من حرارة الشمس. فسارت الإبل على نحو أفضل، وقرب الغروب مررنا بأسرة من القرعان تتكون من رجل وزوجته وطفل عارٍ، وبعد ذلك عثرنا على بئر، كان عمقها سبعة أمتار وماؤها كان جيدًا، على الرغم من أن جذور الأشجار القريبة من تلك البئر تعفنت فى داخلها وجعلت رائحتها كريهة.

خيمنا فى الثامنة مساءً – لحسن الحظ – فى منطقة خالية من الصخور والشجيرات؛ إذ زار مخيمنا فى الواحدة صباحًا أحد الضباع، ولولا يقظة حميد " الجمَّال " لنال من بركة – الفرس – الذى كان مربوطًا فى أثناء الليل؛ لذا لم يكن قادرًا على الدفاع عن نفسه،

إلا أن حميدًا أطلق دفعات من النار عليه، ومن خلال نظارتى المقربة رأيت جسمه الأسود وهو يجرى بعيدًا فى ضوء القمر المتألق.

الأحد ٢٧ مايو: بدأنا فى الساعة الخامسة والربع صباحًا وتوقفنا فى التاسعة والربع، ثم عدنا للتحرك مرة أخرى فى الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا فى الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٣٠ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٧ درجات مئوية، فى الصباح كان الجو صحوًا وصافيًا وهادئًا، وفى منتصف اليوم هبَّت رياح جنوبية شرقية حارة توقفت بعد الظهر، كما ظهرت بعض السحب البيضاء. وفى المساء أصبح الجو دافئًا وصافيًا، ثم كثيف السحب مع سقوط بضع زخات من المطر فى العاشرة مساءً. مررنا بأودية تكسوها الرمال الناعمة، مع وجود بعض تلال من الصخور الرملية المنخفضة التى يتراوح ارتفاعها بين عشرين وثمانين مترًا، وبعض رقع من الصخور التى تتخلل الرمال.

برهن هارى على عدم مهارته؛ فقد تنبأ بأننا سوف نصل إلى "باو" فى هذا الصباح، ولكن عندما حل المساء لم نكن قد وصلنا إلى هناك بعد. لقد عرف الأماكن عندما رآها، ولكن إحساسه بالاتجاه كان خاطئًا، ولعل أسوأ ما فى الأمر أن ماؤنا كان أوشك على النفاذ فيما عدا قربة أخيرة، وكانت ساخنة للغاية.

واصلنا السير حتى السابعة وخمسة وأربعين دقيقة، وعندها وصلنا إلى أرض صخرية كان من الخطر على الإبل اجتيازها حتى

فى ضوء قمر جلى، كنا عند بداية وادٍ كبير، الذى أعلن هارى أنه "باو"، إلا أننا لم نستطع تصديقه، كما أن الخبرة علمتنى ألا أسمح باستخدام آخر مؤننا من المياه ليس فقط عندما أرى البئر، بل عندما أقترب منه وأتأكد أنه يوجد به ماء صالح للشرب، وأصررت على عدم لمس آخر قربة فى هذه الليلة، وذهبنا إلى مضاجعنا بلا عشاء؛ طالما كنا لا نستطع الطهى بلا مياه.

ورغم ذلك فقد كان عزائنا هذه الليلة الجميلة، تمددت فى الفراش أراقب مداعبة السحب للقمر، حتى غلبنى النعاس.

استيقظنا مبكرًا؛ فالمعدة الفارغة لا تشجع على النوم طويلاً، وقدنا الإبل كما لم نقدها من قبل، وكانت تبدو متعبة وضعيفة، وعندما يكون الرجال والإبل جوعى وعطشى تبزغ كل المساوئ الأخرى للقافلة، لم يكن هناك غناء هذا الصباح، الصمت فحسب كان يدفعنا نحن والإبل للأمام بقوة.

كان نزول الوادى وخطرًا؛ حتى إن ثلاثًا من الإبل ألقت حمولتها على الأرض، واضطر الرجال إلى حملها والهبوط بها إلى منسوب الأرض ثم تحميلها من جديد، وفى النهاية رأينا بضعة خراف وكوخًا من القش أو اثنين، عندها توقفنا، وسمحت للرجال بأن يشربوا من ماء القربة الأخيرة؛ لأنهم قد طلبوا ذلك أكثر من مرة هذا الصباح.

تقدم هارى ومحمد صوب الكوخين، وفى الوقت ذاته تحركت القافلة لتهبط الوادى صوب البئر، وسرعان ما جاء بعض سرد القرعان والقبائل البدوية ليقابلونا. أطلقنا بنادقنا فى الهواء كالمعتاد،

كما لو كان ذلك الأمر للتحية، ولكن فى الواقع كنا نعطى انطباعًا لسكان المنطقة عن مدى استعدادنا.

لاحظت - بالصدفة البحتة - أن كل من قابلنا - سواء كانوا رجالاً أو نساء - كانوا من كبار السن، لم يكن هناك أى فرد صغير السن فيما بينهم، خاصة من النساء. ومع ذلك فلم أُلقِ لهذا الأمر بالاً إلى هذا الأمر باعتباره أمرًا استثنائيًّا، ولكن بعد فترة وجيزة اندهشت أن أرى مجموعات من الفتيات النحيفات الجميلات ذوات البشرة البنية أو السوداء، أنصاف العرايا، فى ملابسهن البالية، يتوافدن معًا فى مجموعات تتكون من ثلاث أو أربع فتيات، استدرت إلى بوكارا وسألته من أين جاءت تلك الفتيات؟ فأجاب بوكارا وهو ينظر إليهن بإعجاب شديد " والله العظيم، هذه الفتيات من القرية؛ فقد ظنوا أننا جئنا لننهب القرية ونسبى فتياتها ليصبحن إماء؛ لذا فبمجرد أن رأوا قافلتنا أرسلوهن خارجًا ليخفوهن. أما الآن بعد أن عرف الرجال أننا قافلة مسالمة، أبلغوا الفتيات أن يعدن".

وعندما كانت الفتيات تمر بحصانى كن يسقطن بحياء على ركبهن كتحية، وفقًا لتقاليدهن هنا عند مخاطبة شخصٍ من مرتبة أعلى؛ ففى هذه الجزء من العالم عندما يقابل المرء شخصًا أعلى منه مكانة فإن من اللياقة ألا يقف بل أن يجلس علامة على التوقير. وواحدة تلو الأخرى سقطن الفتيات على ركبهن، وفى المقابل كنت أرد عليهن بتحية الإسلام "سلام الله عليكن ورحمته وبركاته"، وبينما كن ينهضن مرة أخرى كانت الفتيات تنظرن فى حياء إلى رفاقى من البدو المعجبين بهن.

خيمنا فى نهاية الوادى بالقرب من البئر، وبعد ساعة من ذلك حضر شيخ المخيم ليحيينا، وناقشنا معًا الطريق إلى " الفاشر" والاتجاه الذى يجب أن نسلكه، وهنا بدا هارى مستغرقًا فى تفكير عميق، وقد تملكه الحزن؛ لأننا كنا بالقرب من وطنه، فقد عبرنا حدود الوادى الفرنسى الآن. كان قد تخلى عن حقوقه، وفرَّ هاربًا من الفرنسيين تاركًا كل ممتلكاته وأقاربه، وذهب إلى واحة "العوينات" المعزولة ليحيا فيها منفيًّا بإرادته.

كنا نعبر بيئة مختلفة تمامًا؛ فقد كان هناك العديد من الطيور المتنوعة بما فيها: الغربان، والبوم، والببغاوات، والحمام، بالإضافة إلى طيور أخرى لا أعرفها.

فى أثناء الليل قتلت الأسود حمارين، وأسر بعض المستوطنين أحد صغار هذه الأمور، وأرسلوا جلده إلى " فادا " ليباع هناك.

* * *

هناك العديد من سود القرعان وقبائل البدو فى " باو". وتتسم النساء بأنهن جميلات، يرتدين ملابس بسيطة للغاية، تتكون من قطعة واحدة من القماش تُلف بمهارة حول الجسم، ثم يُلف فوقها شريط صغير يستخدم كحزام يوضع بداخله سكين صغير، أو يلففن قطعة صغيرة من جلد الأغنام حول الجزء الأسفل من الجسم، ويُصففن شعورهن فى جدائل صغيرة، ويرتدين حليًّا من الفضة والعاج، ويضعن حلقات فى شعورهن، وعقودًا من الخرز والكهرمان، بينما يقتصر رداء الفتيات الصغيرات على مئزر بسيط من الجلد أو

القماش، أما الرجال فقد كانت بنيتهم الجسدية رائعة، حيث يسيرون عرايا فيما عدا قطعة من القماش تلف حول عورتهم، ويحملون معهم رمحين أو ثلاثة بالإضافة إلى سيف وخنجر، وكان الشيوخ فقط هم الذين يرتدون ثيابًا بيضاء وعمائم كبيرة.

* * *

أعطينا النساء والأطفال بعض المكرونة، لكنهم رفضوا أن يأكلوها، وبدلاً من ذلك نظموا حباتها فى خيط، وصنعوا منها عقودًا ارتدوها فى زهو، وسرعان ما تحركت غريزة البدو التجارية، فصنعوا عقودًا من مخزون المكرونة القليل الذى معهم، وقايضوها بالزبد والجلد.

كان على محمد وهارى أن يتركانا هنا؛ فلم يستطيعا المجازفة بالتوجه جنوبًا أكثر من ذلك، ووجدت بعض الصعوبة فى العثور على دليل يقودنا إلى " فراويا"، لكننى نجحت فى النهاية. تلقينا خروفًا كضيافة وتعشينا مبكرًا يوم الثلاثاء، عازمين على أن نبدأ السير بقوة فى الصباح الباكر.

لم يقدم الدليل نفسه، وبدأت أشعر أن البدو يشكون فى قافلتى، إلا أنه ظهر فى الساعة الحادية عشرة مساءً، وفى التو أيقظت الرجال وأمرتهم بأن يجهزوا الإبل ويحملونها، قبل أن تتاح للدليل أية فرصة ليغير رأيه.

الأربعاء ٣٠ مايو: بدأنا فى الواحدة صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة والنصف، وبدأنا مرة أخرى فى الرابعة والربع بعد الظهر، وتوقفنا

فى السابعة والربع مساءً، قطعنا خلال هذه المدة نحو ٤٠ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٦ درجة مئوية، ظل الجو صحوًا وصافيًا، مع وجود رياح قوية ومتربة تهب من الجنوب الشرقى، وبعد الظهر تغير اتجاه الرياح لتصبح شمالية شرقية لتتوقف فى المساء، بدت المنطقة كالتى قبلها وإن تفاوت جمالها، كما خلت من الأودية الكبيرة والأشجار الضخمة. وفى الثامنة والربع عبرنا واديًا صغيرًا يجرى شرقًا وغربًا.

عندما بدأنا فى الواحدة صباحًا، كان هناك قمر جميل جعل الرؤية واضحة مثل النهار. وبدأ معنا كل من هارى ومحمد؛ لأنهما أرادا أن يعطيا انطباعًا للرجال فى "باو" أنهما سوف يذهبان معنا إلى "الفاشر"، لأنهما خشيا أن يكمن أحد لهما على الطريق، وخلال ساعة كنا خارج الوادى وتوقفنا لنودع دليلينا اللذين كانا سيسافران – فى طريق عودتهما إلى "العوينات" – فى الليل فقط، حتى يتجنبا اكتشاف أمرهما.

وبينما كنت أقف بعيدًا بعض الشىء عن القافلة فى لحظة وداعهما، لاحظت أن الصعوبات التى خضنا غمارها سويًا قد قرَّبت كل منا للآخر. كان محمد طويلاً، منتصب القامة، ذا عينين ثاقبتين، يتسم بثقة فى النفس أكسبته إياها حياة الصحراء، بالإضافة إلى إيمان راسخ بالقضاء والقدر، يقبل معه الإنسان كل ما قد يأتى. بينما كان هارى ذا أخلاق نبيلة، كهلاً متواضعًا، دمث الخلق، ذا ابتسامة عذبة، وسلوك ساحر. تبدو عليه أمارات الكبرياء عند تحركه على الرغم من أنه كان يعانى من جرح فى قدمه اليسرى؛ لذا كان يجرها عندما يسير؛ كان أميرًا بطبيعته.

ولم يكن ذلك فراق رفقاء سفر فحسب، بل وداع أشقاء.

نسينا كلنا أننى رأس القافلة وهم أدلائى، ووضع هارى يده على كتفى وتحدث بنبرة مليئة بالمشاعر قائلاً " ربنا يكرمك ويعطيك القوة، هذا هو طريقك"، وأشار إلى فتحة فى التلال البعيدة، تمتمت ببعض كلمات لا أثق أنها لم تكن مرتعشة، واستدرت فى طريقى صوب قافلتى، واختفى هذان الجليلان بعيدًا فى ضوء القمر وصورتهما تدعو للشفقة فكلاهما منفى عن وطنه رغم أنهما قريبان من ديارهما.

توقفنا عند الفجر من أجل صلاة الصبح، وخيَّمنا فى الثامنة والنصف صباحًا، كانت هناك آثار أسود حولنا. عدنا للسير مرة أخرى مبكرًا بعد الظهر، لكن الرجال كانوا متعبين؛ فقد نالوا قسطًا ضئيلاً من النوم فى الليلة السابقة؛ لذا سرنا لمدة ثلاث ساعات فقط، بينما فرَّ هاربًا الخروف الذى أهدى إلينا ، وفى ضوء القمر سعى حميد وسعد خلفه يثغوان مثل الخراف لعلهما يجذبانه، لكن بلا فائدة.

الخميس ٣١ مايو: بدأنا فى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وعدنا للسير مرة أخرى فى الثالثة والنصف بعد الظهر لنتوقف فى السابعة والنصف مساءً.قطعنا ستة وثلاثون كيلومترًا. بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٧ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٥ درجات مئوية، بدأ الجو صحوًا وهادئًا، ومع حلول الظهيرة هبت رياح جنوبية شرقية، تغيرت لتصبح شمالية شرقية، وتوقفت قرب المساء. وقد اتسم كل من المساء والليل بالهدوء وبزوغ قمر كامل وبعض السحب البيضاء.

كان يومًا خاليًا من الأحداث المهمة.

بعد فترة قصيرة من بدايتنا المبكرة يوم الجمعة ١ يونيو غفا الدليل و" دارت رأسه"، وأصبحنا نتجه صوب الغرب بدلاً من الجنوب الشرقى، لم أتدخل حتى توقفنا لصلاة الصبح فى الخامسة صباحًا، وعندها سألته فى هدوء عما إذا كان ينوى السير صوب الغرب، اندهش لكنه اعترف بخطئه صراحة، ولحسن الحظ أننا لم نكن قد سرنا كثيرًا فى الاتجاه الخطأ.

فى السادسة والنصف صباحًا مررنا بتل يسمى "تاميرا"، وتوجد عنده شجرة جافة تعلم الحدود بين "الواداى" و"السودان"، ومن علامة الحدود هذه هبطنا إلى "وادى هوار"، وهو وادٍ كبير ملىء بالأشجار الضخمة، ويقال إنه يمتد صوب الغرب إلى "الواداى" – حيث يدعونه هناك باسم "وادى حواش" – وشرقًا إلى "السودان".

كانت تربة هذا الوادى شديدة الخصوبة؛ لذا يأتى إليه فى الخريف الرجال من "الواداى" و"دارفور" من أجل الرعى. خيمنا هناك خلال التوقف فى الظهيرة، ووجدنا بعض آثار الزراف، وبعد الظهر سرنا داخل منطقة زاخرة بالأعشاب الجافة العالية، كما لو كنا نسير وسط حقل كبير للذرة الناضجة.

أصبح رجال القافلة مرهقين، وبليت حتى ملابسهم الإضافية، وكانت الأحذية فى الرمق الأخير، بالإضافة إلى ذلك كنا نعانى بشدة من "الشِّبيط"، وهو عبارة عن أشواك كلابية صغيرة قاسية تنمو مع العشب القصير، وتعلق بأى فرد يمر بها، وعندئذ يكون من الصعب انتزاعها.

سمعت بوكارا يصف لحميد الزرافة والفيل؛ فقال له إن الزرافة لها رأس جمل، وحافر بقرة، ومؤخرة حصان، بينما كانت الكلمات التى وصف بها الفيل غريبة جدًّا، وشديدة المبالغة.

السبت ٢ يونيو: بدأنا مبكرًا جدًّا؛ حتى نتأكد من وصولنا إلى "فراويا" فى هذا اليوم، وفى الخامسة صباحًا مررنا على يميننا بعلم "حجر كمرارا" وكان يبعد عنا بنحو ١٠ كيلومترات، وبعد ساعة أخرى مررنا "بحجر أردرو" وهو تل يبلغ ارتفاعه نحو ٨٠ مترًا وطوله ٢٠٠ متر، و"حجر" كلمة سودانية تعنى "الجارا" أو "التل الصغير"، ثم بدأنا النزول إلى وادى "فراويا". كان أكبر الأودية التى عبرناها وأكثرها سكانًا، ومعظمهم من قبيلة "الزغاوة"، بالإضافة إلى بعض البدو.

خيمنا فى التاسعة صباحًا بالقرب من أحد مخيمات البدو، وسرعان ما سمعنا أخبارًا مؤلمة بأنه لا يوجد طعام متاح فى "فراويا". وكان ذلك على عكس توقعاتى؛ لذا أصبحت فى عجلة لأن أجد رسولاً يحمل رسالة إلى حاكم " دارفور " الذى كان مقره فى "الفاشر"، أطلب منه أن يرسل لى مؤنًا وقماشًا من أجل ملابس رجالى التى أصبحت أسمالاً. وبعد الكثير من التردد الناجم بوضوح عن الخوف من رجالى، حضر لزيارتنا شيخ الزغاوة من المخيم القريب منا، يدفعه الفضول لزيارتنا، وكان تحت الحكم السودانى، فاقتنصت الفرصة، وعرضت عليه أن يأخذ ثلاثة جنيهات مقابل أن يحمل رسالة منى إلى سافيل باشا حاكم "دارفور"، وكان عرضًا سخيًّا، وبالإضافة إلى ذلك توعدته بأمور عديدة غير سارة إذا ما تردد أو

رفض قبول هذا الأمر، قلت لــه إنه يجب أن يبدأ مع بــزوغ فجــر اليوم التالى، وقد تذمر بعض الشيء بدعوى أنه ليست لديه أية دابــة ليركبها، رحل وسرعان ما عاد ليقول "إنه سوف يأخذ خطــابى إلـــى "الفاشر"، وأنه ينوى الذهاب بحصان"، كان ذلك خبرًا جيدًا؛ لأننا لــم يكن لدينا سكر منذ ثلاثة أسابيع، واضطررنا إلى أن نحلى الشـــاى - بقدر ما نستطيـــع - بمسحوق البلح، كما نفد أيضًا ما معنا من دقيــق وأرز، بينما كان مذاق ما تبقى من مكرونة معنا - والتى كانت تعــد بالماء السيئ - بشعًا للغاية.

نقلت المخيم بالقرب من إحدى الآبار فى الوادى، وحاولت شراء خروف لأبهج رجالى، لكن الليل كان قد حل بالفعل، ولم يقتــرب أى من السكان المحليين من مخيمنا. فسقينا الإبل، وهدأنا نظــرًا لحلــول الليل، غير راضين تمامًا عن الحياة.

وفجأة أدهشنى أن أسمع صوت رجالى وهم يغنون فى سعادة كما لو كانوا قد عثروا على وجبة طعام جيدة، ناديــت علـــى زروالـــى وبوكارا وسألتهما علامَ هذا الغناء طالما أنه لا يوجد سكر أو طعــام، والأمور بصفة عامة غير مقبولة؟!

فأجاب زروالى " نستطيع أن نتنفس الآن، فقد دخلنـــا الســـودان، وشعرنا أننا - أصبحنا أخيرًا - فى آمان".

فسألت "ممَّ كنتم مرعوبين هكذا؟ هل من الرحلة التى قمنا بها!؟

فأوضح بوكارا قائلاً " عندما كنا فى "الكفرة" قال لنا كل أقربائنا إننا نسير إلى حتفنا - عندما سلكنا هذا الطريق - كما قــالوا لنـــا إن

مصيركم كُتِب عليكم، ولكن من يدرى؟ ربما يحميكم الله"، وقد تساءلنا هل من المحتمل أن يكونوا على صواب؟ "

وقال زروالى " لقد سمعت فى الكفرة كيف كان البعض يشجعونك على أن تسلك هذا الطريق، بينما كانت هذه النصائح ضدك؛ فمن أيدوك كانوا فى الحقيقة رجالاً حاقدين، كانوا يتمنون ببساطة ألا يروك مرة أخرى".

وفى هذا الوقت أيضًا كان زروالى – بعد أن أصبحنا قريبين من نهاية الرحلة – يشعر فى قرارة نفسه بحرية فى الحديث؛ لذا أخبرنى أن بيوت "الشدايدة" و"الجهيلات" من قبيلة زوىّ فى "هوارى" و"الكفرة" قد استاءوا بشدة من زيارتى الثانية، وعقدوا اجتماعًا ناقشوا فيه أيهما أفضل: أن يدمروا القافلة أم يحولوا دون رجوعى؟!

أدركت فى هذه اللحظة مدى الشجاعة التى كان يتمتع بها هؤلاء الرجال لكى يرافقونى فى هذه الرحلة عبر طرق غريبة وغير معروفة ودون أى تذمر أو احتجاج، كنت بالفعل فخورًا بهم.

فى الثانية صباحًا أيقظنى حميد – الذى كان يتولى نوبة الخفارة– ليخبرنى بوصول الرسول، وأنه كان مستعدًا لأن يأخذ خطابى إلى "الفاشر"، كنت قد كتبت خطابين بالفعل، وكانا جاهزين تحت وسادتى، أحدهما إلى سافيل باشا والآخر إلى الضابط المسئول فى "كوتوم"، وهى عبارة عن قاعدة عسكرية متقدمة على الطريق المتجه إلى "الفاشر"، أطلب منه أن يتأكد من وصول خطاب "الفاشر" إلى مقصده، كنت سعيدًا أن الرسول حضر مبكرًا؛ فكلما حصلنا على مؤننا الجديدة

مبكرًا كلما كان الجميع سعيدًا، وعدته بمزيد من الجنيهات إذا ما سلم الخطاب إلى "الفاشر" خلال أربعة أيام، وودعته بحرارة وراقبته وهو يعدو فى ضوء القمر ممتطيًا حصانًا قويًّا إن لم يكن بريًّا.

الفصل العشرون

نهاية الرحلة

«أبَى النوم أن يطاوعنى فى ليلتى الأولى بفوراويا؛ فقد كنت مستثارًا على نحو لم آلفه منذ أن ودعت الملازم باثر BATHER فى السلوم لأبدأ رحلتى؛ فالآن عدت للاتصال مرة أخرى بالعالم الخارجى، وانتهت الرحلة بالفعل على الرغم من أنه كان لا يزال هناك شهر أو أكثر قبل أن يصبح علىَّ أن أبدل قافلتى بوسيلة انتقال أخرى؛ فالواحتان المفقودتان "أركينو" و"العوينات" لم يعدا مفقودتين بعد الآن، كما أنه يمكن الآن - إذا كانت ملاحظاتى دقيقة كما آمل - رسم خريطة جيدة لهذا النطاق من الصحراء الليبية الممتد من "جالو" إلى "فوراويا"».

أمضينا ثلاثة أيام كاملة فى " فوراويا " محاولين التعود على المناخ الرطب الذى أصبحنا نواجهه؛ فالسحب الداكنة كانت تحوم فوق رءوسنا معظم الوقت، وكانت السماء تمطر كل يوم، كما كنا نحاول أن ننال كفايتنا من الطعام كى نبعد عن أنفسنا حالة الهزال التى كنا نعانى منها، حتى أتخم رجالى أنفسهم بلحم الضأن، ورغم هذا فقد كان نقص السكر اللازم لإعداد الشاى والمؤن الأخرى يقلل من استمتاعنا بهذه الولائم.

بعد ظهر يوم ٦ يونيو تحركنا صوب الجنوب، وتسللقنا ببطء للخروج من الوادى، وفى هذه الأثناء مررنا بالعديد من قطعان الأغنام والأبقار فى أثناء رحلة عودتها للديار، يتبعها فتيات نحيفات أو فتيان لا يرتدون شيئًا سوى مئزر يسترون به عوراتهم، أو عقود من الخرز.

كانت تلك البيئة تختلف تمامًا عن الصحراء التى عبرناها؛ فقد كنا نقطع دروبًا مطروقة، ونمر بقرى صغيرة تتكون من أكواخ من القش، ونساء يحملن الحطب، إلى جانب علامات العمران الأخرى.

وبالقرب من إحدى هذه القرى طلبت من القافلة أن تسبقنى إلى هناك، وأشرت لهم أين سنخيم، وتبعتهم بحصانى؛ فقد كانت هناك بعض النقاط المثيرة جغرافيًّا التى أردت أن أدون عنها بعض الملاحظات. وبينما كنت أسير على مقربة من المخيم سمعت صوتًا غريبًا يرتفع، كان عبارة عن مزيج من نحيب الرجال وغنائهم، وأول ما بدر إلى ذهنى أن يكون بعض رجال القافلة قد تورطوا فى مشاكل مع السكان المحليين؛ فنخست فرسى لأستحثه، وبينما كنت أقترب من المخيم بدأت أطمئن؛ فقد سمعت قرع طبول، ونساء تغنى، كنا بعد غروب الشمس مباشرة، وفى الغسق لم أستطع أن أميز تلك الحشود التى تتحرك صوبى، وسرعان ما وجدت أحد رجالى يسرع ليخبرنى أنهم قد تلقوا استقبالاً حارًّا من رجال القرية ونسائها، الذين أصروا على الخروج لاستقبال شيخ القافلة، ولم يكد ينتهى من إخبارى بهذا إلا ووجدت مجموعة من النساء صغيرات السن بعضهن يغنين وبعضهن يرقصن وهن يحطن بحصانى، الذى استجاب بما يليق

بحصان بدوى وبدأ يثب رقصًا، وأطلقت النساء زغاريدهن، وناقشنى البدو فى أمر إطلاق بنادقنا، وأفسح الجمع طريقًا لحصانى فسرت به مسافة قصيرة وتوقفت وعدت مرة ثانيةً على نحو أسرع ثـم كبحـت جماحه تمامًا، وفى هذا الوقت أخرجـت بنـدقيتى، وعنـدما توقـف الحصان تمامًا، أطلقتها – وفق تقاليد البدو – عند أقدام الصف الأول من الفتيات الجميلات، ففزع نصفهن بينما سُرَّ النصف الآخـر، ثـم أحاط ست منهن بحصانى وهن يدرن حولى وأعطيننى "الشبال" وهو عبارة عن قول مع انحناءة مفاجئة من الرأس يلوحن خلالها بخصـال شعورهن فى اتجاهى، كما يفعل النساء فى جنوب أوروبـا بإلقـائهن للزهور، وفى المقابل وضعت أصابعى على جبين كل فتاة، وحملـت بندقيتى عاليًا فى الهواء، ودرت بها فوق رءوسهن وأنا أصيح " أبشر بالخير"، وبعد هذا اتخذنا شكل موكب وتوجهنا صوب المخيم، وفـى اللحظة التى رآنى فيها البدو قادمًا ومحاطًا بكل هؤلاء الفتيات أطلقوا بنادقهم فى الهواء احتفاءً بهذه المناسبة؛ فالبدوى فارس بكـل معنـى الكلمة، وتلك هى فكرته عن الاحتفاء بالنساء، وبعدئذ وزعت بعـض العطر على الفتيات اللائى انصرفن بعد ذلك فى سعادة بالغة، وكانت أكثر ليالى المخيم بهجةً.

وفى اليوم التالى وصلنا إلى "أم بورن"، التـى تبعـد نحـو ٣٨ كيلومترًا عـن "فوراويا"، وخيمنا بالقرب من إحـدى الآبـار، وفـى صباح اليوم التالى استيقظت مبكرًا على صوت الماشية والأغنام التى جاءت للسقى، وبعد ساعة وجدنا سوقًا نشطة تُقام بطول مخيمنا؛ فقـد نصبنا خيامنا بغير عمد بالقرب من إحدى الأشجار الضخمة التى تعد بمثابة مركز منطقة السوق، والتى كان النساء فقط هن اللائى يشاركن

فى أنشطتها؛ حيث كن يحضرن الزبد، والجلد، والحصير، والذرة، والقطن، والملح، ويقايضن فيما بينهن دون استخدام النقود، وفى الوقت ذاته يرقد الرجال فى راحة ولا يفعلون شيئًا، وبينما كنت أتأمل هذا المشهد – الذى لم أشاهد مثيلاً له فى أية قرية أخرى من قرى السودان – لا أدرى لماذا وجدتنى أتساءل هل يا ترى حال هؤلاء النساء السود أفضل أو حال الإماء فى ديار البدو؟! فهن هنا يقمن بكل الأعمال: من العناية بالماشية والأغنام، إلى أداء الأعمال المنزلية، وإعداد الطعام، وصنع شراب "المريسا" المفضل لرجالهن، إلى تولى شئون السوق، أى كل شىء. بينما الإماء فى المقابل يكلفن بواجبات محددة، وقد تتاح لهن بعض أوقات الفراغ. وبينما كانت هذه الأفكار تدور فى خاطرى، شعرت أننى ألمح شيئًا مختلفًا فى نبرة صوتهن عندما يتحدثن ويضحكن، لا تملكه الإماء، ربما كان الأمر يتعلق بالشعور بالحرية حتى ولو كان يصاحبها الكد والعمل الشاق.

مكثنا فى "أم بورن" لمدة يومين، وفى هذه الأثناء زارنى عبدالرحمن جيدو وكيل "المحمديين" وزعيم قبيلة "الزغاوة"، وأحضر معه غنمًا ودجاجًا على سبيل الضيافة، وفى اليوم التالى حظينا بترحيب رسمى؛ إذ حضر الوكيل مع حاشية من الأتباع فوق ظهور الخيل، يقرعون الطبول، وكانت أسرة المحمديين – فى أثناء غياب سيد الديار – قد أرسلت لنا وجبة غداء مكونة من العصيدة، والخضراوات، والفطائر، وشراب المريسا.

كانت المرحلة التالية لرحلتنا عبارة عن خمسة أيام من السفر وصلنا فى نهايتها إلى "كوتوم" التى تبعد نحو ١٢٩ كيلومترًا صوب

الجنوب، وظل الجو - بصفة عامة - جيدًا على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة وسقوط بعض الأمطار.

سافرنا كالمعتاد فى الصباح الباكر، والأصيل المتأخر، وعبرنا دروب مطروقة صالحة للسير تمامًا تمر بأرض كثيرة التلال مغطاة بعشب جاف وأشجار صغيرة، وفى الفواصل كانت هناك بعض الرقع التى سبق حرقها تمهيدًا لزراعتها.

وفى اليوم الثالث عاد الرسول الذى أرسلته إلى "الفاشر" ومعه رفيقان، وإن كان اللقاء محبطًا بعض الشىء؛ فقد تطلب الأمر منه خمسة أيام ليصل إلى مقصده بدلاً من أربعة، ولم يحضر الرد على الخطاب الذى أخذه، قائلاً إن الرد ينتظرنى بحوزة أحد الجنود عند بئر " موتاريج"، التى تبعد نحو اثنتى عشرة ساعة سيرًا من المكان الذى كنا فيه، وكان مع الجندى أيضًا بعض المؤن لنا، لكنها كانت ذات نفعٍ محدود نظرًا لقلتها.

عندما خيمنا فى هذه الليلة كان يتبقى لدينا القليل من الطعام للعشاء؛ لذا أرسلت دليلنا بأقصى سرعة بعد العشاء، وأمرته أن يظل راكبًا طوال الليل حتى يصل إلى "موتاريج"، وهناك عليه أن يخبر الجندى أن يحضر إلينا بأسرع ما يمكن.

وفى صباح اليوم التالى بدأنا التحرك قبل الرابعة، وخلال ساعة جاء الرجال يهرولون نحوى ويخبرونى أن هناك جنديًا يمتطى جملاً قادمًا نحونا، وخلال دقائق تسلمت خطابًا من السيد تشارلز دوبويى - نائب حاكم دارفور فى غياب سايفل باشا، الذى استقال من الخدمة -

وكان معه بعض المؤن القليلة من الأرز والدقيق والشـاى والسـكر، وكنت مسرورًا على وجه الخصوص أن أضع يدى على مـؤن مـن السجائر.

فأنا لم أدخن منذ أن غادرنا " إردى"؛ فقد أدركت فجأة وأنا فـى "العوينات" أنه لم يتبقَ سوى بضع سجائر، وعندها بدأت فى وضـع قواعد صارمة لنفسى، تقضى بسيجارة واحدة فى اليوم بعد العشـاء، كان أمرًا شاقًا للغاية أن أنتظر طوال اليوم من أجل فتـرة التـدخين القصيرة تلك، وكان الأمر أسوأ عندما كانت تأتى تلك اللحظـة؛ فقـد كنت أنزوى فى أحد الأركان المخفية وأشعل السيجارة الثمينة وأحميها بعناية بالغة من أى نسمة هواء قد تسرع من اشتعالها، وعندما نفـدت هذه السـجائر القليلة، لم يتبقَ لى سوى الانتظار والـذكريات، والآن - أخيرًا - ثأرت من الانتظار فقد ظللت أدخن حتى التهب حلقى.

حتى إن بوكارا، من أجل حفنة من السجائر التى وصلت حـديثًا، وضع طربوشه الأحمر فوق حصان الدليل وفعل القليل مـن المـرح العابث - إلا أن المرح العام الخالى من القيود الذى صـاحبه الغنـاء والرقص كان عندما خيمنا فى الاستراحة الحكومية فـى "مـاراهيج"؛ حتى إن العريف ظن أنه قد أصابتنا لوثة ما، بعـد أن رأى الرجـال وهم يضعون أقماع السكر على الأرض ويـؤدون حولهـا رقصـة همجية، وسأل " لماذا كل هذا الصخب؟ " فأجابه عبد الله "لأنه منذ ما يقرب من الشهر لم يكن لدينا سكر، والآن سوف نحلـى شـاينا مـن جديد؛ فالمرء لا يدرك قيمة السكر هذا حتى تأتى اللحظـة التـى لا يستطيع فيها الحصول عليه"، هزَّ العريف رأسه وابتسم قائلاً " إننا لم

نكن نعلم أن لديكم نقصًا شديدًا فى المؤن، يجب أن أعود فى الحال إلى "كوتوم"، وأحضر لكم المزيد منها"، وقبل أن يرحل كان كريمًا للغاية لأن يذهب إلى أحد المعسكرات القريبة ويحضر لنا خروفًا وزبدًا، وكان علينا أن نسدد ثمن هذه الأشياء للمعاون فى "كوتوم"، نظرًا لأن البائع رفض أن يقبل أوراق النقد المصرية، وبعد ذلك رحل العريف ومعه خطاب منى إلى السيد دوبويى، والمعاون "نائب الحاكم فى كوتوم".

وبقدر ما كانت المؤن التى أحضرها إلينا جيدة بقدر ما نفدت سريعًا، وأصبحنا فى حاجة ماسة للمزيد منها؛ لذا قررت أن نرحل على الفور، وقضينا فترة الظهيرة فى استراحة حكومية عند بئر"ماراهيج"، وفى المساء توقفنا بعد بضعة كيلومترات منها؛ فقد كانت الإبل فى حالة سيئة جدًّا، وكانت ظهور وجوانب بعضها متقيحًا للغاية وينزف، حتى إن جملين منها رفضا التحرك حتى أنزلنا الأحمال من عليهما.

وفى المساء أمطرت السماء لمدة ساعة، لكنها لم تستطع أن تخمد عزائمنا؛ فقد غنى الرجال ورقصوا حول النيران الكبيرة، وذكرتنى الرطوبة ورائحة العشب المبلل هذه بسيرى فى الريف الإنجليزى.

فى صباح اليوم التالى بدأنا مبكرًا، بهدف التوقف عند بئر "ميتاراج" فى الظهيرة، وبالفعل تغدينا فى الاستراحة القريبة من تلك البئر وتلقينا زيارة من شيخ الميتاراج الذى أحضر لنا بعض الدجاج على سبيل الضيافة، وطلب منا أن نتوقف هذه الليلة حتى يستطيع أن يضايفنا كما ينبغى فى اليوم التالى، إلا أننى شعرت بضرورة أن

نتقدم بأسرع ما نستطيع؛ فقد كانت حالة الإبل تزداد سوءًا، وكان علينا أن نترك إحداها مع شيخ القرية، واتفقنا معه على أنه إذا تعافى الجمل يمكن أن يحصل على ربع ثمنه عند بيعه، أما إذا توفى فإنه لن يتحمل أية مسئولية.

وبعد ساعة ونصف الساعة من تحركنا فى اليوم التالى، ظهر جندى آخر على ظهر فرس، وأحضر معه خطابًا من معاون "كوتوم" وكمية قليلة من الأرز والسكر، وقد استقبلناه شاكرين؛ لأننا للمرة الثانية كنا نعانى من نقص المؤن، كما نفد كل ما معنا من سكر للشاى. أعطيته خطابًا ليعود به إلى "كوتوم"، وبعد فترة قصيرة خيمنا فى أحد الأودية الصغيرة فى "بوا".

بعد الظهر، عاودنا السير من جديد، وسرعان ما بدأت السماء تمطر مع هبوب رياح شديدة من الجنوب الشرقى، ورأيت أنه قد يكون من الحكمة أن نخيم حتى تنتهى العاصفة، إلا أنه عندما تطلعت إلى المنطقة التى تمتد أمامنا من خلال منظارى المعظم اكتشفت صفًا من الأكواخ المصنوعة من القش تمثل حدود "كوتوم"، وأمام هذا المشهد قدنا إبلنا أسرع.

وسرعان ما بدا فريق من الأفراد الذين يمتطون الجياد يقترب منا، وعندها هلل البدو فى ابتهاج. وكان ذلك من أكثر المشاهد السعيدة التى رأيتها منذ عدة أسابيع، فقد كان رياض أبوعقلا أفندى، وناصر الدين شداد أفندى، اللذان يعملان معاونين فى كوتوم يتقدمان فصيلة من عشرة جنود بالإضافة إلى القاضى ورجال الدولة الرسميين، وأعيان "كوتوم".

صافحتهم جميعًا بحرارة، وبمرافقتهم تحركت القافلة صوب القرية، وبينما كنا نقترب، كانت نساء المركز اللائى يرتدين الملابس البيضاء يقرعن الطبول ويحيوننا بالغناء والزغاريد. استقر بنا المقام بجوار الاستراحة وداخلها، وحضرت النساء مرة أخرى ليقدمن تحياتهن فاصطففن فى صف طويل ثم غنين ورقصن كثيرًا ليرفهن عن البدو الذين يرافقونى، والذين طلبوا الإذن لهم فى إطلاق بنادقهم ليعبروا عن امتنانهم لتلك المجاملة، وبالطبع لم أستطع الرفض وبدأ بوكارا فى أداء مراسم سفع خف الفتيات، إلا أن النساء السودانيات لم يعتدن هذا السلوك البدوى فى التعبير عن التقدير مثل الفتيات فى الصحراء الشمالية؛ لذا فإنهن جزعن قليلاً من البارود الذى كان يومض عند أقدامهن، لكنهن تقبلنه بنفس رحبة، ثم بدأ صف النساء بالكامل يتمايل ويتراقص على إيقاع الطبول، بينما قام فرد تلو الآخر من رجالى بأداء "رقصة التكريم". كان استقبالاً بديعًا بالفعل، وسروره شتت - مثل السحر - الإرهاق والتعب الناجم عن الرحلة.

وتلا ذلك مزيد من الحفاوة، فقد أحضر لنا المعاونان - على سبيل الضيافة - أربعة خراف، وزبدًا، وخضروات طازجة، ولا مجال للحديث عن السكر الذى قدم لنا، وأمضينا ليلة سعيدة للغاية.

بدا وصولنا إلى "كوتوم" - فى هذا الوقت بالذات - للسكان المحليين كأنه حضور ميمون؛ لأننا وصلنا مع أول سقوط أمطار فى الموسم.

توقفنا هناك لمدة يومين، واحتفى بنا المعاونان بكرم بالغ فى غياب المفتش السيد آركل الذى كان فى " الفاشر".

وفى إحدى المرات حضرنا مباراة في كرة القدم بين فريقين من الجنود، كانت مبارة قوية أكثر من كونها تلعب بمهـــارة. وحـــدث أن حاول لاعب أن يضرب الكرة بقوة لكنـــه أخطأهـــا وقـــذف بحذائـــه السودانى عاليًا فى الهواء، ولم تكن المودة بين الضباط والرجال الذين يلعبون طيبة؛ لذا كان من الشيق رؤيتهم وهم يلعبون معًا.

فى هذا المساء تناولت العشاء مع رياض أفندى وناصـــر الـــدين أفندى، وكانت أول وجبة أتناولها فى منزل منذ أن تركت "الكفـــرة"، وقد أعطانى مضيفاى جريدة مصرية لأقرأها، كانت هى أول ما أراه من جرائد منذ ما يقرب من ستة أشهر.

تركنا " كوتوم " فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ يونيـــو، مبتهجين بالضيافة الكريمة التى حظينا بها والوداع الحار الذى ودعنا به أصدقاؤنا. وكانت رحلتنا إلى " الفاشر " التى اســـتغرقت يـــومين، بمثابة نزهة؛ حيث شعرنا جميعًا بالإثـــارة والابتهـــاج؛ لأننـــا عـــدنا للاتصال بالعالم من جديد.

ولكن بينما كنت أتوجه للفراش يـــوم ١٨ يونيـــو أدركـــت مـــع شعورى بالأسف أن هذا هو آخر يوم لى فـــى الصـــحراء الحقيقيـــة. وفكرت كيف أننى ســـوف أفتقد رجالى وإبلى، القفـــر والجمـــــال، الخلوة والصحبة، أو قل فى كلمتين: الصحراء وحياتها، شـــكرت الله - سبحانه وتعالى - لأنه قادنا عبر الرمال الواسعة غير المطروقـــة، ووجدتنى أضيف دعاء - نصف حزين - بأن أعود إليها مرة أخرى؟

أصدرت أوامرى بأن نبدأ مبكرًا فى صباح اليوم التالى، ونتيجـــة لتلهف رجالى بالغوا فى فكرتى عن كلمة " مبكرًا"، ولكننى كنت أنـــا

مسى مستثارًا، ولم أمانع فى أن نصبح على الطريق بحلول الثانية والنصف.

وقبل ثلاث ساعات من الوصول إلى " الفاشر" خيمنا حتى نستعد لدخول المكان، فحلقنا جميعًا وارتدينا أفضل ملابسنا - فقد كان السيد دوبويى قد أرسل لنا فى " كوتوم " مؤنًا من الملابس البيضاء - وأصبح رجالى قادرين على الظهور مرة أخرى فى ملابس لائقة، واحتشدوا حول بقايا المرآة التى كانت معى ليشاهدوا كيف يبدون، نظفت البنادق، ورتبت الحقائب - التى كانت فى حالة رثة - قدر الإمكان، وتمنيت لو أستطيع فعل أى شىء للإبل أيضًا؛ فقد كانت نحيلة ومظهرها يدعو للرثاء، ولكن الراحة والعناية بظهورها المتقرحة كانت هى كل ما تحتاج إليه، ولم يكن لدينا الوقت أو الإمكانات لنمنحها إياها، وبرغم هذا يبدو أنه قد أصابتها عدوى التلهف التى أصابتنا، فتقدمت إلى الأمام فى سرعة. وارتدى عبد الله وزروالى ملابسهما الحريرية، وتحركت القافلة بابتهاج صوب مقصدها.

وبمجرد أن وصلنا إلى ضواحى الفاشر، ارتفع الهتاف والتهليل من كل مكان فى القافلة؛ فقد كان هناك موكب من الرجال الذين يرتدون الزى الكاكى يتجه نحونا، نخست بركة واستجاب الفرس مرحبًا؛ فقد رأى الأحصنة قبلنا، فانتصبت أذناه واندفع نحوها.

تقدم السيد دوبويى فوق حصانه، ليقابلنى وتصافحنا بحرارة، وتكررت التحية من الضباط المصريين والإنجليز الذين كانوا من فريقه، وذهبنا بعد ذلك إلى منزله كجزء من الكرم الذى قدمه لى

ولرجال قافلتى، وهناك قام البمباشى أنداس بأخذ الإبل المرهقـــة دون إبطاء، وقدم لها الطعام والماء والرعاية الصحية لجروحها التى كانت فى أمس الحاجة إليها. كما قام الضباط المســئولون عــن المحطــة اللاسلكية بكرم بإعلامى بالتوقيت الدقيق لجرينتش من بـــاريس مــن خلال الإذاعة. وكنت سعيدًا للغاية أن أكتشــف أن الكرونـــومتر[٤٢] الخاص بى تأخر ٢٣ دقيقة و٢٣ ثانية فقط خلال ثمانية أشهر.

مكثت ضيفًا على السيد دوبويى لمدة عشرة أيام حظيت خلالهــا بحفاوة بالغة من الضباط والمسئولين التــابعين للحاميـــة العســكرية، بالإضافة إلى كل من بنى وطنى والإنجليز ووجهاء البلدة، وأُغــدقت علىَّ الحفاوة، وقدم لنا بتلهف كل نمط من المساعدة التـــى كنــا فـــى حاجة إليه.

عدت إلى الحضارة مرة أخرى، واستمتعت برفاهيات الحياة مرة ثانية، خاصة الفواكه والخضروات؛ فعندما يخضع المرء لرجيم قاسٍ فى الصحراء ينظر إلى هذه الأشياء على اعتبار أنها رفاهيات وليس ضروريات. وكان هناك على وجه الخصوص نــوع مـــن البرقـــوق مدعاة فخر الميجور سميث SMITH، وكان حلـــو المـــذاق بطريقـــة غريبة، لم أذق مثله فى أى مكان آخر.

فى النهاية جاء اليوم الذى يجب أن أترك فيه رفاقى فى رحلتـــى من "الكفرة"، وعندما حضر لغرفتى فى هذه الليلة كل مـــن بوكـــارا وأخوه وحميد وسنوسى بوجابر ليودعـــونى، كانـــت لحظـــة تزخـــر

(٤٢) هو جهاز ميقاتى لقياس الزمن بدقة بالغة. "المترجمان"

المشاعر الحقيقية، وتزدحم بالذكريات؛ فهؤلاء الرجال القساة الذين جاءوا من الصحراء، انفجروا فى البكاء، وبللت الدموع عينىَّ أنا أيضًا؛ فقد كنا معًا فى السراء والضراء، وأصبحنا أصدقاء أوفياء، ولم أكن أتمنى أفضل منهم: صحبة فى رحلة إلى إقليم ناءٍ، أو أكثر قدرة، أو شجاعة، أو وفاء.

قرأنا الفاتحة، وكان صوت تلك الآيات المقدسة يمتزج بنشيج بوكارا، وصافحت كلاً منهم، وافترقنا على وعد بأن نلتقى يومًا - كما تمنيت - فى هذه الصحراء التى أحببتها بمثل ما أحببتهم.

كان يتبقى لى رحلة واحدة أخرى بالإبل إلى "الأبيض" التى تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر فى اتجاه الشرق، ومن هناك أخذت القطار إلى الخرطوم، ومنها إلى الديار فى القاهرة، والتى وصلتها فى الأول من أغسطس عام ١٩٢٣.

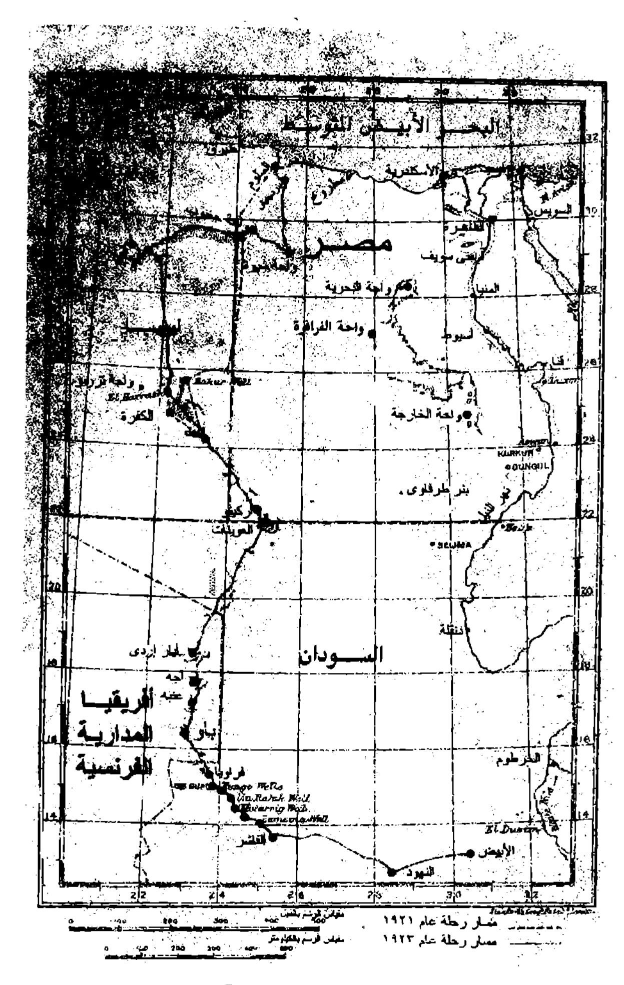
كنت بعيدًا عن الديار نحو سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا، قطعت خلالها ٢٢٠٠ ميل، عابرًا الصحراء باستخدام القافلة.

وحددتُ فى النهاية موقع آبار "زيغن"، والتى كانت تبعد فى الخرائط عن موقعها الصحيح بنحو ١٠٠ كيلومتر، وواحة الكفرة التى كانت الخرائط عن موقعها الصحيح بنحو ٤٠ كيلومترًا.

كما نجحت فى النهاية فى تحديد موضع واحتى "أركينو" و"العوينات" المفقودتين على خريطة الصحراء الليبية.

ملحق

بخريطة الرحلة والصور



١ - خريطة الرحلة.



٢- أحمد محمد حسنين بك.



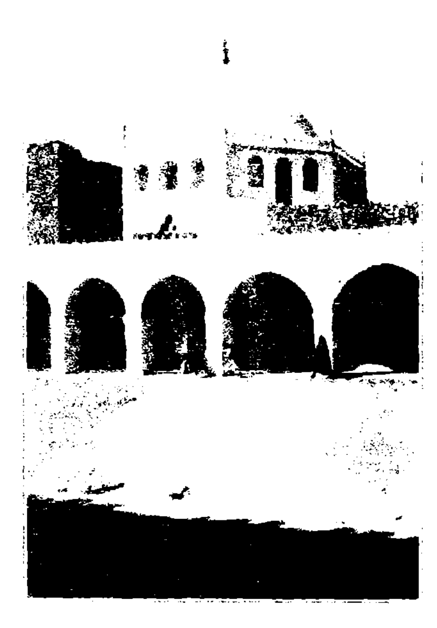
٣- واحة سيوة إحدى أقدم الواحات فى شمال أفريقيا.



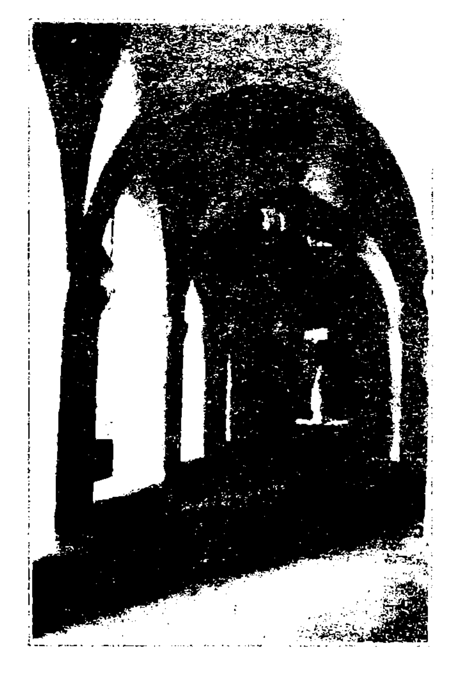
٤- مدخل ضريح السنوسى الكبير.

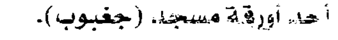


٥- السيد إدريس السنوسى رأس الطريقة السنوسية.



٦- مسجد القبة البيضاء في (جغبوب).





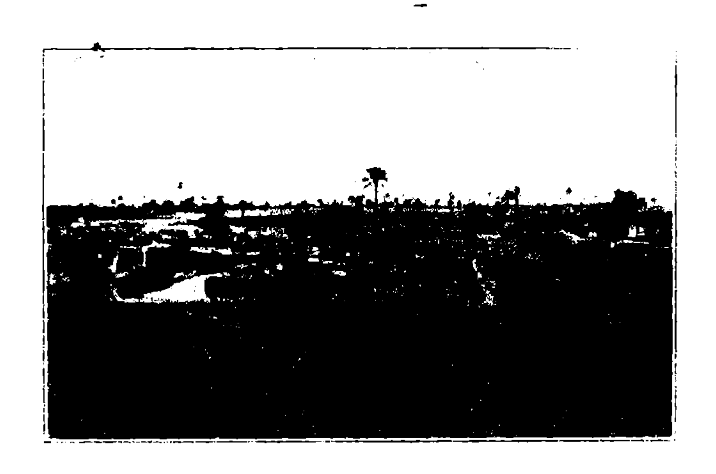
أحد أروقة مسجد. (جغبوب).



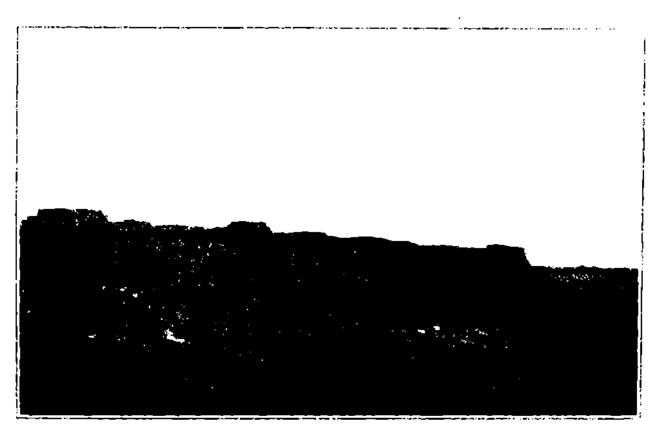
٧- الهواريا (علم الكفرة).



بقايا غابة متحجرة توجد فى الطريق إلى (جالو).

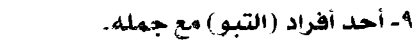


٨- (واحة جالو).



(التاج) مركز قيادة السنوسية في الكفرة.

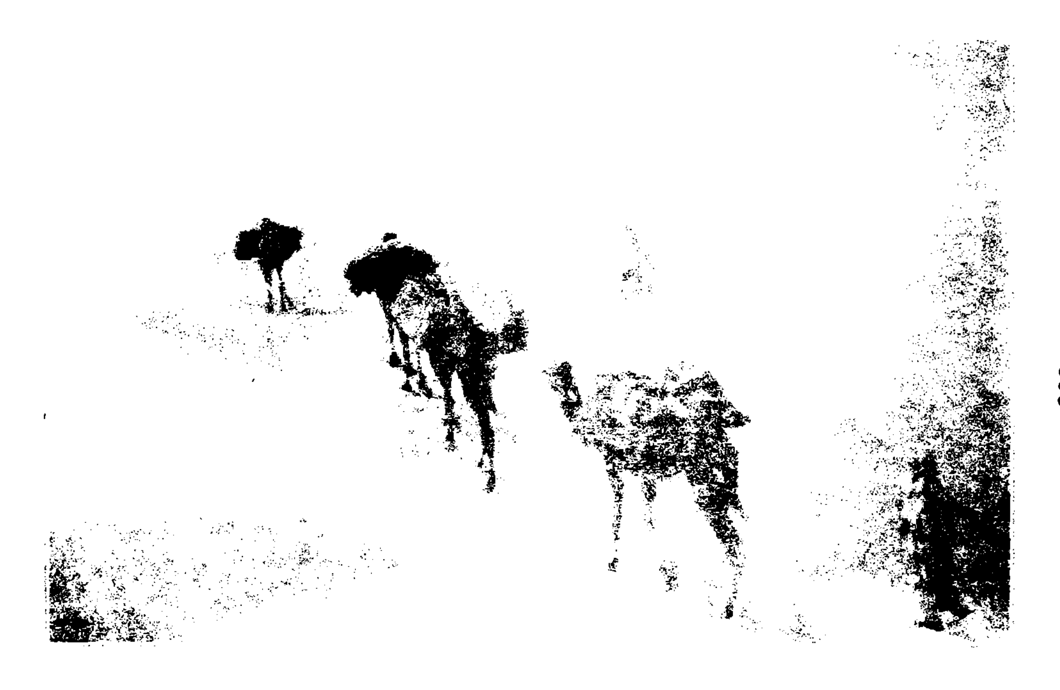




٩- أحد أفراد (التبو) مع جمله.



أحد الجمالين معصوب الوجه.



الجمال تعبر الكثبان الرملية.



ابن حاكم الكفرة



الأمير السنوسي في الكفرة.



١٢ - ملك العوينات الشيخ هارى.



السيد محمد العبيد.



١٣ - سيدي حسنين (الوكيل)



أعضاء مجلس واحة الكفرة.



٤١ ـ منظر للصحراء من فوق تلال أركينو



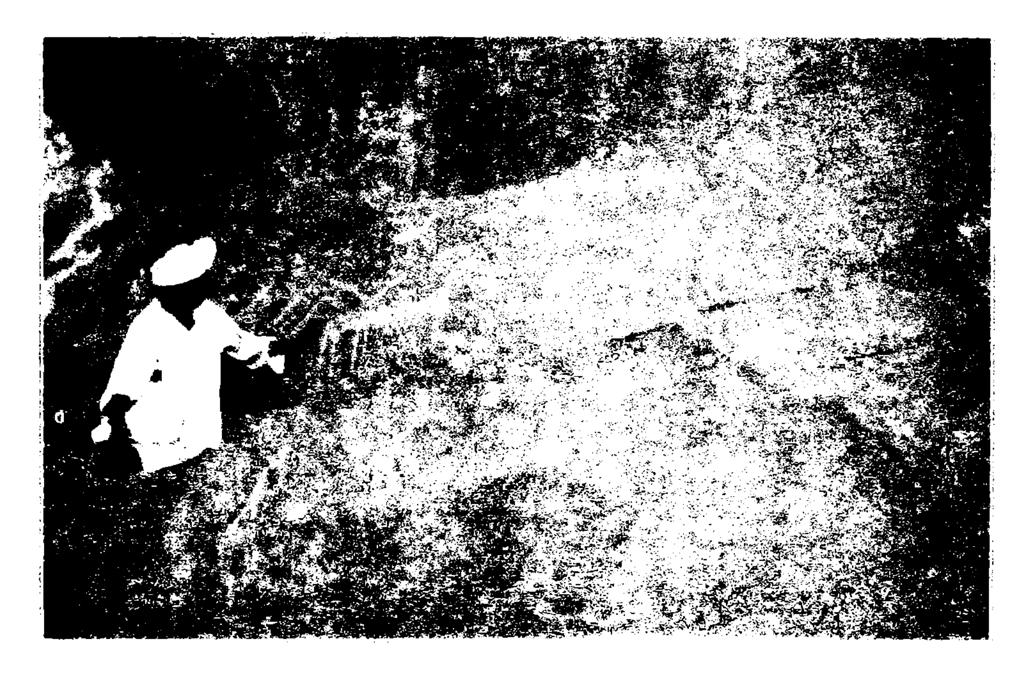
وادي العوينات.



٢٦- القافلة [illegible] طريقها إلى واحة [illegible]



١٧ - القافلة تقترب من سفوح تلال واحة العوينات.



[illegible]



١٩- تلال العوينات.



مخيم المستكشف عند سفح جبل العوينات.



٢٠- بئر المياه الموجود فى واحة العوينات.



٢١- وادى إردى.



وادى أركينو.



٢٢- أول شجرة تظهر عند الاقتراب من وادى إردى.



۲۳- بیطر اردی۔



٢٤- إحدى نساء الزغاوة.



أسرة بدوية.

المؤلف فى سطور:

أحمد محمد حسنين بك

- من مواليد بولاق عام ١٨٨٩م.
- تخرج فى جامعة أوكسفورد عام ١٩١٤م.
- بدأ حياته العملية فى وزارة الدفاع؛ حيث عمل سكرتيرًا خاصًّا للجنرال ماكسويل قائد قوات الجيش البريطانى فى مصر .
- انتقل للعمل فى وزارة الداخلية عام ١٩١٦.
- عمل سكرتيرًا أول بسفارة مصر بواشنطن عام ١٩٢٣م.
- تدرج فى مناصب القصر ليصبح فى سنوات معدودة الأمين الثانى للملك فؤاد، ورائد الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد، ثم بعد ذلك صار أمينه الأول عندما أصبح ملكًا، ثم رئيسًا لديوانه الملكى.
- توفى فى ١٩ فبراير ١٩٤٦ أثر حادث سيارة فوق كوبرى قصر النيل.
- كرَّمته العديد من المحافل العلمية المحلية والعالمية، كما حصل على العديد من الأوسمة والنياشين من مصر ودول العالم المختلفة منها: وسام سان لازار "إيطاليا"، ميدالية الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية للرواد "بريطانيا"، الوشاح الأكبر: نيشان محمد على "مصر".

المترجمان في سطور:

د. عبد الرحمن سعد حجازى

- من مواليد كرداسة بالجيزة عام ١٩٧١م.
- تخرج فى قسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٩٣م.
- نال درجة الدكتوراه فى أطروحه بعنوان "الخطاب السياسى فى شعر تميم بن المعز والمؤيد فى الدين الشيرازى: دراسة أسلوبية" عام ٢٠٠٤م.
- يعمل حاليًا مشرفًا مساعدًا على التصحيح اللغوى بالمشروع القومى للترجمة، بالمجلس الأعلى للثقافة منذ عام ١٩٩٧ حتى الآن.

صدر له:

- مصر فى ردائها الفاطمى، مجلة المحيط الثقافى، "المجلس الأعلى للثقافة" القاهرة، ديسمبر ٢٠٠١م.
- نشأة الموشحات (تفسير جديد)، مجلة جذور، النادى الأدبى الثقافى بجدة، المملكة العربية السعودية، العدد ١١، شوال ١٤٢٣هـ = ديسمبر ٢٠٠٢م.
- ترجمة ديوان أشعار من عالم اسمه الصين "مختارات من شعر آى تشيتغ"، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٣م.
- الخطاب السياسى فى الشعر الفاطمى: دراسة أسلوبية، القاهرة ٢٠٠٥م.
- له تحت الطبع كتاب "بلاغة التأويل".

أمير نبيه تادرس

- من مواليد القاهرة عام ١٩٧٠م.
- تخرج فى قسم الجغرافيا، جامعة الزقازيق عام ١٩٩١م.
- حصل على تمهيدى الماجستير فى الجغرافيا من جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م .
- التحق بالعمل بوزارة الثقافة عام ١٩٩٧م.
- عضو لجنة اتصال مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى أعوام: ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١م.
- عضو لجنة مراسم مهرجان القاهرة السينمائى الدولى أعوام: ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤م.
- يعمل حاليًا باحثًا بقطاع العلاقات الثقافية الخارجية "بوزارة الثقافة".
- يتولى الإشراف على وحدة معلومات قطاع العلاقات الثقافية الخارجية إلى جانب عمله.
- مثَّل جهة عمله فى العديد من المحافل الثقافية فى مصر، وشارك فى العديد من المناسبات الثقافية الدولية التى نظمت فى الدول الأجنبية من بينها: بولندا، بلغاريا، كوريا الجنوبية، الصين، كندا، سوريا.
- صدر له فى إطار المشروع القومى للترجمة ديوان أشعار من عالم اسمه الصين "مختارات من شعر آى تشينغ" عام ٢٠٠٣م.

المراجع فى سطور

طلعت الشايب

- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ورئيس تحرير سلسلة «آفاق عالمية»، وعضو مجلس تحرير مجلة «أدب ونقد» - حاصل على جائزة اتحاد كُتَّاب مصر فى الترجمة - ٢٠٠٣.
- ترجم ٣٠ كتابًا من بينها:
- صدام الحضارات (صمويل هنتنجتون) - حدود حرية التعبير (مارينا ستاج) - المثقفون (بول جونسون) - الحرب الباردة الثقافية (ف.س.سوندرز) - الطفولة فى السيرة الذاتية العربية (تيتز روكى) - التحدى (مهاتير محمد).

•

- كما ترجم عددًا من الأعمال الروائية العالمية من بينها:

فتاة عادية (للأمريكى آرثر ميللر) - الملاك الصامت (للألمانى هينرش بول) - عاريا أمام الآلهة (للهندى شيف كومار) - الحرير (للإيطالى اليساندرو باريكو) - البطء (للتشيكى ميلان كونديرا) - بقايا اليوم (للياباني كازو إيشيجورو) - الخوف من المرايا (للباكستانى طارق على)- مكتوب (للبرازيلى باولو كويليو).

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســن كامـــل



هذا الكتاب رحلة فريدة قام بها أحمد محمد حسنين بك (1889-1947)، الـــذى درس وتخـــرج فـــى أوكسفورد، وتدرج فى مناصب القصر بعد ذلك ليصبح الأمين الأول للديوان الملكى فى عهد الملك فاروق وأحد رموز الدولة خلال فترة حكمه. وكان فى صباه شغوفا بالسفر والترحال حتى إنه عرض على الملك فؤاد فكرة عبور الصحراء الغربية للبحث عن واحات مفقودة فى وسط الصحراء لا يعرف أحد عنها شيئًا، فأعجب الملك بالفكرة، وأمر بأن تتحمل الخزانة المصرية كل نفقاتها. وفى عام 1923 بدأ رحلته من "السلوم" على الساحل البحر الأبيض المتوسط، واتجه صوب الجنوب فوق ظهور الابل إلى أن وصل فى النهاية إلى مدينة "الأبيــض" فى الســودان، واستغرقت رحلته سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا، قطع خلالها مسافة 2.200 ميل تقريبا، ونجح خلالها فى اكتشاف واحتين مفقودين لم يصل إليهما أى رحالة من قبل، كما نجح أيضا فى رسم خريطة لتلك المنطقة الممتدة على طول رحلته، والتى لم تكن هناك أيضا أية معلومات عنها من قبل، وقد منحته الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية نوط الرواد عن هذاالإنـجاز، كمـا وجـهت إليـه العـديد مـن الـجمعـيات الجغـرافية فـى دول العـالـم المـختلفة دعـوات لإلقـاء محاضرات عن رحلته، وما صادفه فيها، وما عثر عليه، وما أنجزه خلالها. وقد ذكر كل هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى عديدة فى هذا الكتاب.